عالم المعرفة

149

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

ماهية الحروب الصليبية

تأليف:

د. قاسم عبده قاسم

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923 ـ 1990

149

ما هية الحروب الصليبية

تأليف:

د. قاسم عبده قاسم

مايو 1990

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر عن رأي كاتبها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى

المقدمة 5

الفصل الأول:
فكرة الحروب الصليبية: منظور تاريخي 7

الفصل الثاني:
الظروف التاريخية والدوافع 47

الفصل الثالث:
الحملات الصليبية: عرض تاريخي 89

الفصل الرابع:
الحصاد: أثر الحروب الصليبية في العالم العربي 149

الخاتمة 197

المؤلف في سطور 201

المقدمه

لا تزال الحركة الصليبية، مقدماتها وتاريخها ونتائجها، مصدر جذب للباحثين والمؤرخين. وأخرجت أقلام النساخين والمطابع كتبا وأبحاثا ومؤلفات عديدة تحمل كلها عناوين «تدور» حول «الحروب الصليبية» بشكل أو بآخر. وعلى الرغم من أن أدبيات الحروب الصليبية في الغرب الأوروبي كثيرة ومتنوعة؛ إلا أن جوانب كثيرة من تاريخ هذه الظاهرة الفريدة لا تزال بحاجة إلى البحث والتنقيب. وفي التدوين التاريخي العربي لا تزال أدبيات الحروب الصليبية تدور في الغالب الأعم حول أحداث المعارك ووقائع الحروب، ولا يزال الاهتمام برصد الظاهرة من منظور يهتم بالسببية التاريخية، ويحاول استقصاء نتائجها وحصادها، محدودا للغاية.

ولسنا ندعي أننا نأتي في صفحات هذه الدراسة بكشف جديد في تاريخ الحروب الصليبية، ولكننا نحاول رصد الظاهرة في إطار يعالج الأيديولوجية التي أفرزتها، والدوافع والأسباب التي دفعت عجلة أحداثها، والظروف التاريخية التي أحاطت بها، ثم حصادها في العالم العربي الذي عاق من جراء وقائعها على مدى أكثر من قرنين من الزمان. وعلى الرغم من هذا فقد حرصنا على استعراض الوقائع والأحداث التاريخية بإيجاز حول محور الفعل ورد الفعل، وحاولنا تركيز الضوء على معادلة هامة في تاريخ المنطقة العربية، ومؤداها

أن العمل المشترك والتنسيق، والحد الأدنى من الوحدة كانت شروطا لازمة للنجاح والنصر. على حين كان التشرذم والتنازع والتخاصم سببا رئيسا من أسباب الهزيمة.

وبينما نعترف للسابقين من الأساتذة والزملاء بفضلهم الكبير والرائد في دراسة تاريخ الحركة الصليبية في الأدبيات العربية، فإننا نرجو أن تكون مساهمة هذا البحث الذي نقدمه للقارئ العربي مفيدة، وأن تكون إضافة إلى صرح نرجو أن يستمر في النمو حتى يوازن الدراسات الأوروبية لتاريخ الحروب الصليبية. وهذا الأمل يقوم على مشروعية علمية وقومية هي أننا كنا الطرف الذي وقع عليه العدوان الصليبي، ودفع الثمن من رفاهيته وتقدمه ونموه الحضاري من جهة، وأننا نتعرض لهجوم حركة مماثلة، ولكن في مصطلحات صهيونية من جهة أخرى. والله الموفق والمستعان.

المؤلف

1 فكرة الحروب الصليبية: منظور تاريخي

مدخل-المصطلح واختلاف مدلولاته-ينابيع الفكرة الصليبية في ثقافة أوروبا في العصور الوسطى-الأفكار الألفية ونهاية العالم-الحج المسيحي وتطور فكرة الحج المسلح-الغفران الصليبي وأطواره التاريخية-الحرب العادلة والحرب المقدسة-سوابق الحروب الصليبية-نضج الفكرة الصليبية-الاستخدام السياسي للحملة الصليبية.

ربما لم يعرف التاريخ الإنساني ظاهرة تاريخية حملت مصطلحا مناقضا لحقيقتها مثل «الحركة الصليبية». هذا المصطلح المضلل المربك كان نتاج عدد من التطورات التاريخية، والمفارقات المدهشة، في التاريخ الأوروبي وفي التاريخ العربي على حد سواء.

لقد بدأت أحداث الحركة الصليبية الفعلية في السابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة 1095م بالخطبة التي ألقاها البابا أربان الثاني raban II (1088-1099م) في حشود المستمعين الذين اجتمعوا في حقل فسيح في أوفريني بكليرمون في جنوب فرنسا. وكانت هذه الخطبة الشهيرة خاتمة مجمع

ديني عقده البابا، وجمع الأساقفة لمناقشة أحوال الكنيسة الكاثوليكية المتردية. وكانت الدعوة التي وجهها البابا بشن حملة تحت راية الصليب ضد المسلمين في فلسطين بمثابة إذن الدخول إلى رحاب التاريخ. ومنذ ذلك الحين كانت الحركة الصليبية-ولا تزال-مثار جدل ونقاش، وموضعا للبحث والدراسة، وإلهاما للفن والأدب. ويندر أن نجد في تاريخ الإنسانية ظاهرة كان نصيبها من الخيال والدراسة معا مماثلا لنصيب «الحركة الصليبية».

هذه الحركة كانت واحدة من القوى الكبرى التي حركت تاريخ الغرب الأوروبي، إذ إن الحركة الصليبية ظلت تحكم الأفكار والمشاعر في الغرب الأوروبي فيما بين سنة 1095 م وسنة 1400 م بصورة شاملة، وبحيث لا نكاد نجد كاتبا معاصرا لم يشر في كتاباته إلى إحدى الحملات الصليبية، أو إلى مصير الدويلات التي قامت أثناءها فوق الأرض العربية، كما ظلت للحروب الصليبية جاذبيتها في أوروبا الغربية حتى القرن الثامن عشر. فبالنسبة لخمسة عشر جيلا من أبناء الغرب الأوروبي كانت الحروب الصليبية تشكل جزءا حيا وحيويا من عالمهم ؛ إذ إن مئات الألوف منهم قد شاركوا بأنفسهم في حملة أو أكثر من الحملات الصليبية، كما أن آلافا عديدة من أبناء الغرب الأوروبي ساهموا بأموالهم في تمويل حملة أو أكثر من هذه الحملات. ومن ناحية أخرى، كانت أحداث الحروب الصليبية تشغل بال الكثيرين ممن لم يشاركوا بالنفس أو بالمال.[1]

أما العالم العربي فقد كان الطرف الذي وجهت إليه أوروبا الكاثوليكية عدوانها تحت راية الصليب. وعلى مدى الفترة ما بين أواخر سنة 1096م، وسنة 1291 م قامت عدة مستوطنات صليبية على التراب العربي في فلسطين وأعالي بلاد الشام والجزيرة. وتعين على سكان هذه المنطقة العربية أن يدفعوا ثمنا فادحا لكي يقضوا على الكيان الصليبي من جهة، ويتصدوا للمشروعات والغارات الصليبية المتأخرة من جهة أخرى. لقد كانت «الحروب الصليبية» أو حروب الفرنج، كما سماها العرب الذين عاصروها، سببا رئيسا من أسباب تعطل قوى الإبداع والنمو في الحضارة العربية الإسلامية. وبعد نهاية النضال ضد الصليبيين دخلت المنطقة العربية في منحنى التدهور والأفول الذي أدى بدوره إلى سقوط العالم العربي تحت السيادة العثمانية.

وإذ كان العثمانيون قد حافظوا على العالم العربي من السقوط في براثن السيطرة الاستعمارية على مدى ثلاثة قرون على الأقل، فإنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا لبث الروح في جسد الحضارة العربية الإسلامية المسجي. ثم انتهى هذا التوقف الحضاري إلى نهايته المحتومة التي أدت إلى حال الاستعمار والتبعية التي لا نزال نعانيها حتى اليوم. إذ إن أحدا لا يمكن أن يتجاهل علاقة ما جرى منذ عدة قرون بما يحكما اليوم علاقتنا بالغرب الأوروبي والأمريكي، كما أن أحدا لا يستطيع أن يغفره النظر عن حقيقة أن «الحملات الصليبية» ضد الشرق العربي كانت أول المشروعات الاستعمارية الأوروبية من ناحية، وأنها كانت «السابقة» أو «التجربة» التي سبقت مرحلة الاستعمار الحديث من ناحية ثانية ؛ فضلا عن أنها كانت إلهاما للتجربة الصهيونية ذات الأهداف الاستيطانية من جهة ثالثة.

وهذا، في تصوري، ما يجعل «الحركة الصليبية» جديرة بالدراسة والتأمل.

أولى مشكلات البحث في تاريخ «الحركة الصليبية» تتمثل في المصطلح ومدلولاته المختلفة التي تؤدي بالضرورة إلى حال من الفوضى والارتباك، لا سيما إذا كان المصطلح ذاته يحمل تناقضا بين دلالته اللغوية، وحقيقته التاريخية. لقد ارتبط اسم هذه الحركة بالصليب بعد حوالي قرن ونصف قرن من دوران عجلة أحداثها. والناظر في مجريات وقائعها يجد مزيجا من القسوة والوحشية والتدين العاطفي الذي يشويه التعصب، ويكتشف في ذلك كله تناقضا مع الصليب، رمز الفداء والتضحية بالنفس في سبيل الآخرين،[2] ولم يكن الصليب أبدا رمزا للحرب والقتل والعدوان.

ومن المهم هنا أن نشير إلى أن الرجال الذين قاموا بالحملة الصليبية الأولى لم يستخدموا مصطلح «الحملة الصليبية» أو «الصليبيين»، إذ لم يحدث سوى في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي أن ظهرت الكلمة اللاتينية (Crusesignati) ومعناها «الموسوم بالصليب» لكي تعبر عن الصليبيين، لأنهم كانوا يخيطون صلبان القماش على ستراتهم.[3] ولم يحدد حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي أن كانت هناك كلمة لاتينية تعني «الحركة الصليبية». وفي بداية الأمر كان من يشاركون في الحملة الصليبية يوصفون بأنهم «حجاج» (Preregrini)، وغالبا ما استخدمت عدة تعبيرات ومصطلحات أخرى مثل عبارة (Peregrinotio) ومعناها «رحلة الحج» التي كانت شائعة تماما في

الفترة الباكرة من تاريخ الحركة الصليبية. كذلك استخدمت كلمة (Expeditio) التي تعني «الحملة»، وعبارة «الرحلة إلى الأرض المقدسة» (Iter in terramsanctam)، واصطلاح «الحرب المقدسة» (Guerre Saint)-(Bellum Sacrum)، كما استخدمت عبارات ومصطلحات مثل «الحملة العامة» (passgim general) أو «حملة الصليب» (expeditio curcis)، أو «مشروع يسوع المسيح» (Negotium Jhesus Christi). وفي وسعنا أن نسوق عشرات الأمثلة المستقاة من كتابات المؤرخين اللاتين الذين عاصروا الحركة الصليبية، ولا سيما في أطوارها الأولى.[4] بل إنه مما يلفت النظر حقا أن عناوين مؤلفاتهم جميعا خلت من ذكر كلمة «الصليبيين»، أو «الحملة الصليبية» ؛ وإنما دارت حول «الحملة»، و«حجاج بيت المقدس»، و«الفرنج»... وما إلى ذلك.[5]

ومن المهم أن نشير إلى أن الكلمة الإنجليزية (Crusade) والكلمة الألمانية (Kreuzzag) قد ابتكرته في القرن الثامن عشر فقط، وبعد أن كان البحث التاريخي في الحروب الصليبية قد مضى شوطا منذ بدأ توماس فوللر (Thomas Fuller) الإنجليزي في القرن السابع عشر أول دراسة باللغة الإنجليزية حول الحركة الصليبية في كتابه باللغة الإنجليزية القديمة واسمه (Historie of the Holy Ware.) والملاحظ أنه استخدم عبارة «الحرب المقدسة»أيضا.[6]

وعلى الرغم من الفشل النهائي الذي منيت به الحركة الصليبية إلا أن المثال الصليبي تحول بمرور الوقت-تحت تأثير وسائل الإعلام التي عملت في خدمة الأهداف الاستعمارية الأوروبية-إلى مثال براق يوحي بالشجاعة والتضحية بالنفس في سبيل المثل الأعلى. واستقر في الوجدان الشعبي الأوروبي (والأمريكي) أن «الحملة الصليبية-Crusade» لا بد من أن تكون بالضرورة حملة خيرة، نبيلة القصد والهدف، منزهة الغرض مثل: رعاية المرضى، أو مساعدة المنكوبين، أو جمع التبرعات... وما إلى ذلك. وربما يكون الموروث الشعبي المتداول حولها في «أغنيات الحروب الصليبية Les Chanson des Crusades»[7] التي راجت tي ذلك العصر، واستمرت موجودة بعد ذلك تحكي قصة الحروب الصليبية شعرا وغناء للجماهير الأوروبية الجاهلة، باعتبار ذلك بديلا من كتب التاريخ التي سجلت قصة الحروب الصليبية. نقول: إن هذا الموروث الشعبي الذي حملته الأغنيات الشعبية

عن الحروب الصليبية ربما كان وراء هذه الصورة الأخاذة التي ترتسم في أذهان عامة الناس في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية حين ترن في آذانهم عبارة «الحروب الصليبية». فقد تخلت الأغنيات/الحكايات عن الحقيقة التاريخية لصالح التعويض النفسي والتفسير الشعبي لتلك الظاهرة التي كانت تمثل في حينها حلما من أحلام الفقراء.[8]

ولعل هذا ما جعل مؤرخا مثل نورمان كانتور يقرر أن الحادث الوحيد الذي يعرفه الخريج العادي من الجامعات الأمريكية في العصور الوسطى هو الحملة الصليبية الأولى التي بدأت أحداثها سنة 1095م، والتي يرسم لها في ذهنه صورة براقة أخاذة.[9] وهذا الموقف ينسحب على الفرد العادي أيضا في الغرب، بل إننا كثيرا ما نرى قادة الرأي والساسة الغربيين يستخدمون مصطلح «الحملة الصليبية» بهذا المفهوم النبيل والخطأ والعادل.

بيد أن المؤرخين الماركسيين في الاتحاد السوفيتي ودول الكتلة الشرقية لا يشاطرون أبناء الغرب الأوروبي هذا الموقف من «الحروب الصليبية» ؛ فقد عانت بلاد البلقان من وحشية الصليبيين على نحو ما سنوضح في حديثنا عن الحملة الشعبية والحملة الأولى، كما راحت الإمبراطورية البيزنطية وأملاكها ضحية الحملة الصليبية الرابعة في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، وظلت هذه المناطق تئن تحت وطأة الصليبيين أكثر من نصف قرن من الزمان. ومن ناحية أخرى، كان ماركس وأنجلز ولينلين يرون-ولهم كل الحق في ذلك-أن «الحملات الصليبية» كانت مشروعات استعمارية استيطانية تهدف إلى استعباد الشعوب تحت راية الصليب. وقد جهد لينين هذه النظرية حين اعتبر الإجراءات التي اتخذت عشية الحرب العالمية في أيرلندة ضد العمال «حملة صليبية» ضد العمال وحقوقهم. وقد درج الماركسيون على تضمين مصطلح الصليبية» معنى مجازيا سلبيا في كل كتاباتهم.[10]

وفي الأدبيات العربية التي تناولت تاريخ الحركة الصليبية نجد مفارقة مدهشة. فعلى الرغم من أن المؤرخين المسلمين الذين عاصروا الهجوم الصليبي على المنطقة العربية وكتبوا عنه (مثل: ابن القلانسي، وابن الأثير، وابن العديم، وابن واصل، وابن شداد، والعماد الأصفهاني، والمقريزي، والقلقشندي، وابن تغري بردي، وبدر الدين العيني... وغيرهم) لم يستخدموا

أبداً مصطلحات مثل «الصليبيين»، أو «الحملة الصليبية»، أو «الحرب الصليبية»، وإنما تكلموا عن الصليبيين بعبارات مثل «حركة الفرنج»، كما وصفوهم على الدوام بكلمة «الفرنج» على الرغم من أن كثيرين من أولئك المؤرخين المسلمين كانوا يفرقون بين الألمان والإنجليز وغيرهم من شعوب أوربا الغربية.

حقيقة أن المؤرخين المسلمين الأوائل، مثل: «ابن القلانسي»، «وابن الأثير»، لم يدركوا أبعاد الحركة الصليبية؛ لأنهم لم يروا غير إفرازاتها العسكرية والسياسية الباكرة على أرض الشرق العربي، ولكن الجيل التالي من المؤرخين المسلمين تحدثوا عن هذه الحركة بطريقة تدل على فهم أوضح وأشمل. ولعل هذا هو ما جعلهم لا يربطون بين «حركة الفرنج» والمسيحية والصليب على أي نحو. وربما يكون مؤرخو القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين (الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين) هم آخر من تناول «حركة الفرنج» بشكل أو بآخر، لا سيما وأن الكيان الصليبي كان قد انتهى في العقد الأخير من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي).

وقد توقف البحث التاريخي في العالم العربي فترة طويلة بفعل التخلف والركود الثقافي اللذين أحاطا بكافة جوانب الحياة العربية حتى القرن التاسع عشر على أقل تقدير. وعندما بدأت من جديد محاولات النهوض الثقافي والفكري كان لا بد للرواد من أن يتأثروا برقي الفكر والثقافة والعلم في أوروبا. ولم تنج الدراسة التاريخية من تأثير الانبهار الذي جعل الكثير ممن تصدوا لكتابة التاريخ أتباعا هذه المدرسة الأوروبية أو تلك. وفي خضم هذا الانبهار أيضا تمت ترجمة بعض المصطلحات، واستعيرت تقسيمات التاريخ الأوروبية، كما سادت الرؤية الاستشراقية.. الخ. بيد أن هذا الأمر لا يهمنا في هذا المقام سوى من حيث تأثيره في معالجة المؤرخين العرب لقصة الحروب الصليبية، إذ وقع أولئك الكتاب في شباك الترجمة عن الأوروبيين ؛ وبدءوا يستخدمون مصطلح «صليبي»، «وحملة صليبية»، و«حروب صليبية» في تناولهم للظاهرة التي درج أسلافهم على معالجتها تحت مصطلحات «الفرنج»، «وحركة الفرنج». ووجه الخطورة في هذا المصطلح عندما يستخدم في اللغة العربية أنه يوحي بأن الحركة كانت حركة دينية ترتبط بالصليب رمز المسيحية، ولا تضعها في إطارها الصحيح

باعتبارها مغامرة استيطانية متعصبة. ومن ناحية أخرى، فإن استخدام هذا المصطلح يظلم المسيحيين الشرقيين الذين عانى قسم كبير منهم من وحشية الفرنج وعدوانهم.

وعلى الرغم من هذا كله فإننا لا نستطيع بسهولة التغاضي عن هذا المصطلح الذي رسخ في الدراسات التاريخية العربية، وأصبح له مدلول تاريخي لدى المتخصصين، لسبب بسيط هو أنه لم تجر حتى الآن مناقشة جماعية لتحديد ماهية «الحركة الصليبية» من وجهة النظر العربية. ولا يزال المصطلح غامضا بالنسبة لعامة المثقفين في العالم العربي، بحيث يستدعي إلى الذهن بعض الأحداث أو الشخصيات البطولية التي ارتبطت بهذه الأحداث، وحسب.

وسوف نحاول، في هذا الفصل، تحديد الخطوط العامة لماهية «الحركة الصليبية» من خلال مناقشة الجذور التاريخية للفكرة الصليبية، وتتبع تطورها التاريخي لا العقلية والوجدان الأوروبيين بسماته الثقافية المعروفة في العصور الوسطى.

لقد كانت الأفكار التي تدور حول نهاية العالم بعد الألف الأولى من معاناة المسيح على الصليب، والأفكار التي تتعلق بالعالم الآخر، أحد ينابيع الفكرة الصليبية. فقد شاعت في أوروبا الغربية قرب نهاية القرن العاشر الميلادي وفي بداية القرن الحادي عشر الميلادي أفكار، وحكايات، وقصص،، أساطير تتحدث عن قرب نهاية العالم مع اكتمال الألف الأولى بعد المسيح (حوالي سنة 1033 ميلادية). وقد ظهر في عدة أماكن في أوروبا الغربية بعض ظواهر فلكية وطبيعية اعتبرها الناس دليلا على اقتراب نهاية العالم. فقد حدثنا «رالف جلابير» الراهب الفرنسي عن ثورة بركان فيزوف في إيطاليا لاعتبارها «نذيرا باقتراب القيامة، وبأن زمن إهلاك وشيك يتهدد أرواح البشر». كما تحدث عن مجاعة رهيبة «... استمرت خمس سنوات في شتى أنحاء العالم الروماني، بحيث ألم ينج إقليم واحد من المجاعة ونقص الخبز، ومات كثيرون بسبب الجوع....». وقال إن الأوروبيين اضطروا إلى أكل الحيوانات والزواحف القذرة، كما أكلوا لحوم البشر.[11] كما تداول الناس في غرب أوروبا كثيرا من القصص والحكايات المشابهة وفسروها التفسير نفسه. لقد كان مفهوم الأوروبيين آنذاك مثقلا بالعناصر الغيبية.

إذ كانت العقيدة الكاثوليكية عشية الحروب الصليبية لا تزال بعيدة عن تحديد إطارها بشكل متكامل، ولم يكن الأساقفة والقساوسة، غالبا، يصلحون لوظائفهم ؛ سواء من حيث مستواهم الفكري، أو من حيث سلوكهم وأخلاقهم، كما أن الغرب الأوروبي ظل حتى ذلك الحين ريفي الطابع، وكان الدين بالنسبة لسكانه (وهم أغلبية سكان أوروبا آنذاك) مزيجا من الخرافة، وطقوس عبادة الطبيعة، وبعض تعاليم المسيحية.[12]

وفي ظل هذا الجو النفسي والفكري الذي ساد أوروبا الكاثوليكية في القرن الحادي عشر الميلادي، كان طبيعيا أن ترد الظواهر الطبيعية إلى قوى غيبية من ناحية، وأن يتم ربطها باقتراب نهاية العالم والأفكار الألفية والأخروية من جهة أخرى. فقد كثر الحديث عن السماء التي تمطر نجوما هنا أو هناك، وراجت حكايات عن الأنوار الشمالية المبهرة، والشهب الملتهبة في السماء، كما شاعت أخبار الأطفال الذين يولدون بأربع أيد أو مثلها من الأرجل، وقصص عن أطفال تكلموا عقب ولادتهم. وتناقل القرويون، وغيرهم، حكايات عن مدينة القدس وهي تتجلى في السماء متلألئة أمام عيون الرعاة المبهورين، وذلك القس الذي رأى سيفاً معلقا في السماء تحمله الريح، والقس الآخر الذي رأى في صفحة السماء، وفي وضح النهار، معركة بيت فارسين ينتصر أحدهما على الآخر بعد أن يضربه بسيف كبير[13]... وحكايات كثيرة صدقها البسطاء، وحاول المتعلمون أن يفسروها في ضوء ما اعتبروه علامة على قرب نهاية العالم.

لقد كان الناس الذين سيطرت على وجدانهم آنذاك المشاعر الألفية والأخروية تواقين لضمان الخلاص. وقد تحولت مشاعرهم هذه إلى التأكيد على ضرورة الرحلة إلى بيت المقدس (Iter Hyerosolimitanum) وقد أنعكس ذلك في زيادة عدد الرحلات التي قام بها الحجاج من غرب أوروبا صوب القدس في السنوات القليلة التي سبقت وتلت الألف الأولى بعد ميلاد المسيح. ولا يمكن لمن يقرأ أدبيات القرن الحادي عشر الميلادي أن يخطئ تلك النغمة الألفية والأخروية التي كانت بمثابة الإيقاع الدال في الفكر والمشاعر السائدة آنذاك.

ومما يلفت النظر حقا أن هذه الرؤى والأحلام المقدسة والأخبار الإعجازية قد تضاءلت أخبارها بعد أن دارت عجلة الحروب الصليبية

بالفعل. إذ شاعت تلك الأخبار والحكايات قبل رحيل الحملة الصليبية الأولى، وأثناءها. وطالما كانت الظروف والأحوال مواتية للصليبيين لا نجد في مؤرخات اللاتين الذين كانوا ضمن شهود الحملة إلا القليل من هذه الأخبار. فإذا تأزمت الأمور وضاقت السبل بالصليبيين ظهرت أخبار المعجزات والخوارق والأحلام الدينية في الوقت المناسب، على نحو ما حدث أثناء حصار إنطاكية المزدوج سنة 1098م.(14) ومن المثير حقا أن من تنسب إليهم تلك الأحلام الدينية والرؤى المقدسة كانوا دائما من الفقراء.

وفيما بين سنة 1096م وسنة 1098 م لا نجد في المصادر اللاتينية سوى أخبار قليلة عن هذه الرؤى والأحلام. بيد أن النظرة الأخروية صاحبت الحملة الصليبية منذ بدايتها، لا سيما عندما كان الفقراء يتصورون أنهم المقصودون بهذه الدعوة. فقد تبلورت فيهم الأفكار الألفية والأخروية، فساروا صوب القدس دون انتظار الأمراء وفرسانهم الذين كانت تعوزهم فسحة من الوقت لتمويل الحملة. وكانت أخبار الإشارات المقدسة مثل: هجوم الجراد بشكل وبائي، والنجوم التي أمطرتها السماء، وغيرها من الأخبار التي تداولها الناس آنذاك، ترتبط بما جاء في سفر الرؤيا،(15) وكانت تدور على ألسنة البسطاء والمتعلمين في غرب أوروبا الكاثوليكية باعتبارها حقائق.

ويخبرنا «بلدريك الدوللي»(16)، (Baldric de Dol) أن هذا الجو الذي ارتبط بسفر الرؤيا لم يكن نتيجة الدعوة الرسمية التي وجهتها البابوية إلى الفرسان الإقطاعيين للمشاركة في الحملة الصليبية، وإنما كان نتيجة استجابة الفقراء السريعة التي نجمت عن معاناتهم بسبب تدهور المحاصيل في السنوات القليلة التي سبقت خطبة البابا أربان الثاني. إذ كان من السهل عليهم أن يرحلوا عن بلادهم بحثا عن خلاصين: دنيوي وأخروي، وبحثا عن سبيل يوصلهم إلى مستقبل أفضل ؛ وهو مستقبل حملته الجموع الجاهلة بأحلام أخروية غامضة. ولاشك في أن أغلبية أولئك الفقراء كانوا يؤمنون بأنهم المختارون.

ولأنهم كانوا يؤمنون بهذا، لم يترددوا في الضغط على قادة الحملة الصليبية الأولى (كما سنوضح في الفصل الثالث من هذه الدرامة). ومن ناحية أخرى، فإن زعماء مثل ريمون دي سانجيل قد استثمروا هذه المشاعر الألفية والأخروية التي سادت بين عامة الصليبيين لحسابهم، على نحو ما

فعل هذا الأمير الصليبي في قصة اكتشاف «الحربة المقدسة»، كما أوضحنا.

بيد أنه ينبغي علينا ألا نبالغ في قيمة الأفكار الألفية والأخروية. ويأتينا الدليل من الحوليات والمؤرخات اللاتينية التي ساهم كتابها أنفسهم في صياغة الأيديولوجية الصليبية، فقد كتب أولئك المؤرخون جميعا بعد نهاية أحداث الحملة الصليبية الأولى ونجاحها، وهو ما يعني أنهم كانوا يتوخون أن يصوغوا نموذجا مثاليا يكون عامل جذب دائم في حالة الدعوة إلى حملة صليبية جديدة على غرار الحملة الأولى،[17] ولم يكن الذين ساهموا في الحملة الصليبية الأولى يعرفون أنها «الأولى»، أي ستتبعها حملات أخرى. إذ لم يكونوا واثقين من نجاحها بحيث تتبعها حملات أخرى. ولكنها عندما نجحت أخذ المؤرخون يكتبون قصتها بعد توقف الأحداث، فصاغوا نموذجا مثاليا لها.

وعلى الرغم من أن هذه الأفكار والتوقعات التي دارت حول اكتمال الألف الأولى في التقويم المسيحي، وما أفرزته من أخبار المعجزات والخوارق والأحلام المقدسة كانت من روافد الأيديولوجية التي صاغت الحملة الصليبية، إلا أنها في التحليل الأخير لم تكن عامل الحسم في الوصول إلى صيغة الحملة الصليبية، وإنما كان الفضل في ذلك راجعا إلى تسليح الحج المسيحي من ناحية، وفكرة المكافأة التي ينالها الصليبي من ناحية أخرى. وقد تمثلت المكافأة في مفهوم الغفران الصليبي الذي تطور ليصل إلى صكوك الغفران التي ثار ضدها مارتن لوثر بعد قرون قليلة.

والحج المسيحي إلى بيت المقدس وفلسطين ممارسة دينية مسيحية نمت نموا شبه عضوي منذ بداية الوجود التاريخي للمسيحية. فعلى الرغم من أن الحج ليس فريضة دينية على المسيحية مثلما هو الحال في الإسلام إلا أن الجذب العاطفي نحو الأرض التي شهدت قصة المسيح، ومولد المسيحية، ظل يشد الناس من أتباع هذا الدين بشكل متصاعد مع مرور الزمن.

ففي أيام المسيحية الأولى كانت رحلات الحج المسيحية إلى فلسطين نادرة، إذ إن السلطات الرومانية لم تكن تشجع الحج إلى هناك. فقد كانت اقدس نفسها قد دمرت على يد القائد الروماني تيتوس Titus منذ حوادث سنة 70 م، وبقيت أطلالا تنعي من بناها حتى أعاد الإمبراطور الروماني

هادريان بناءها وأقام بها معبدا للربة فينوس (Venus Capitolina). وما أن جاء القرن الثالث بعد الميلاد حتى كان الكهف الذي شهد مولد المسيح في «بيت لحم» قد صار معروفا للمسيحيين. وبدأ المسيحيون بزيارة الأماكن المقدسة للصلاة ونيل البركة. ثم زادت حركة الحج المسيحية إلى فلسطين بعد انتصار المسيحية بعد أن اعترف بها الإمبراطور قسطنطين الكبير وشريكه ليكينيوس سنة 313 م. ثم رحلت الإمبراطورة هيلينا (Helena)، أم قسطنطين، إلى فلسطين حيث قيل إنها اكتشفت خشبة الصليب الأعظم، وبنى قسطنطين كنيسة الضريح المقدس.[18] ونتيجة لهذا تزايدت رحلات الحج، ففي سنة 333 م قام رجل من بوردو في فرنسا برحلة حج إلى فلسطين وسجل لنا وصفا لهذه الرحلة.[19] وبعد ذلك بوقت غير طويل، قامت امرأة نبيلة من بلاد الغال (فرنسا) بزيارة الأرض المقدسة.[20] وقرر نهاية القرن الرابع الميلادي سافر واحد من كبار آباء الكنيسة الكاثوليكية هو القديس جيروم إلى فلسطين، وهناك لحقت به مجموعة من سيدات إيطاليا الموسرات ممن كن من أتباعه في إيطاليا. وفي صومعته ببيت لحم كان يستقبل أعدادا متزايدة من المسيحيين الذين جاءوا يسدون إليه واجب الاحترام بعد زيارتهم للأماكن المسيحية المقدسة.[21]

هكذا كان المسيحيون، منذ وقت مبكر، يزورون القدس وفلسطين لأنهم يريدون أن «... يقتفوا آثار خطوات المسيح وحوارييه، وخطوات الأنبياء...» ويقول القديس باولينوس St. Paulinus of Nola: إن سبب الحج إلى فلسطين كان «.... الرغبة في رؤية الأماكن التي تجسد فيها المسيح ولمسها، وديننا يحفزنا إلى رؤية الأماكن التي جاء المسيح إليها...»[22] لقد كان المسيحيون يحجون إلى الأراضي المقدسة لاستعادة أفضل ذكريات العهد القديم والعهد الجديد، إذ كانوا يحجون إلى القدس وإلى طريق الأنبياء في بداية الأمر. ثم ما لبث الحجاج أن تحولوا إلى الضريح المقدس الذي صار محورا لحركة الحج المسيحي.[23] وتخبرنا نصوصا كثيرة كتبها حجاج أوروبيون قبل عصر الحروب الصليبية أن بعضا الحجاج كانوا يحرصون على الأكل في كهف أكل فيه المسيح مع حوارييه[24]، كما كان بعضهم يستحمون في مياه نهر الأردن التي تم فيها تعميد المسيح.[25]

وقد قامت الأديرة ونزل الضيافة باستقبال أعداد الحجاج المتزايدة.

ولم يجف نهر الحجيج بلين غرب أوروبا وفلسطين أبدا، حتى بعد الفتح الإسلامي لهذه البلاد قي القرن السابع الميلادي. ولأن الحج إلى بيت الله الحرام من الفروض الأساسية «لمن استطاع إليه سبيلا»[26] من المسلمين. ولهذا السبب تعاطف الحكام المسلمون تجاه رحلات المسيحيين الأوربيين الذين أرادوا الحج إلى القدس وثمة وثيقة هامة تقوم دليلا على مدى تسامح المسلمين مع الحجاج الأوربيين، كتبت حوالي سنة 808 ميلادية، بها أسماء القساوسة والشمامسة والرهبان في كنائس القدس وأديرتها.[27] ومن ناحية أخرى لعبت تجارة «الذخائر المقدسة» دوراً هاما في إثارة الاهتمام بالأرض المقدسة في الغرب الأوروبي[28] «والذخائر المقدسة» بالنسبة للمسيحيين هي رفات القديسين، وملابسهم، وأدواتهم الشخصية، وما إلى ذلك. وقد استقر في أذهان الناس في الغرب الأوروبي آنذاك، بكل ما ميزه من تدين عاطفي مشوب بالخرافات والخزعبلات، أن الحاج الذي يجلب معه شيئا من هذه «الذخائر المقدسة» يكتسب مجدا ومكانة في عيون أهل بلده. فقد كانت تلك الأشياء توضع في الكنائس لكي تزينها. وبطبيعة الحال كانت هناك مواد كثيرة مزيفة في تلك التجارة التي راجت في الغرب الأوروبي برواج الحج إلى فلسطين. وقد نسجت قصص خيالية كثيرة حول الرحلات والذخائر المقدسة مما زاد في تأجج الجو النفسي المشبع بالأفكار الألفية والأخروية منذ بداية القرن الحادي عشر الميلادي، أو قبله بسنوات قليلة.

بيد أن التطور التاريخي في المفاهيم التي جعلت الحج وسيلة من وسائل التوبة والتكفير عن الذنب كان هو الأكثر أهمية من تطور حركة الحج نفسها. ومن المهم أن نلاحظ أنه بينما تضاءلت قيمة الأفكار الألفية والأخروية في تحريك الحملات الصليبية التالية كان «الغفران الصليبي» يزداد أهمية في تعبئة الناس في غرب أوروبا لكي يشاركوا في الحرب ضد المسلمين.

ويجب النظر إلى الغفران الصليبي باعتباره تطورا لنظام الكنيسة الباكر للتكفير عن الذنوب التي يرتكبها الفرد الكاثوليكي. وقد قام هذا النظام على أساس من مراحل ثلاث: الاعتراف، والرضاء، والمصالحة (أي العودة إلى الجماعة المسيحية)، وكانت رحلة الرضاء هي التي تمحو الخطيئة

وتجعل المصالحة ممكنة. كما أن المبدأ الذي تم العمل به آنذاك كان يقضي بأن تكون التوبة، أو العمل الذي يكفر به الفرد الكاثوليكي عن ذنبه مساويا لهذا الذنب[39] ثم تطورت المفاهيم الكنسية حول هذا الموضوع بحيث صار على المذنب أن يقوم بأعمال قاسية تستغرق وقتا طويلا للتكفير عن ذنبه. وتم وضع قوائم بالأعمال التي يكفر بها المذنبون عن خطاياهم، وكان الحج، إلى أحد المزارات المقدسة في المسيحية، واحدا من أهم هذه الأعمال التكفيرية. ولم تصبح فكرة الغفران فعالة حقا إلا بعد أن ارتبطت بفكرة الحج إلى القدس. وكانت الرحلة إلى القدس تحتل مكانة خاصة كما كانت لها قيمتها السامية بين رحلات الحج المسيحية الأخرى.

حقيقة أن القدس كانت ذات جاذبية طاغية بالنسبة للحجاج المسيحيين بسبب ارتباطها بقصة المسيح وقصص العهد القديم، فضلا عن طول الرحلة وصعوبتها، ولكن رحلة الحج التكفيرية لم تكن قاصرة على القدس.[30] ويبدو أن أهم حافز إلى الحج إلى القدس كان هو السعي إلى الكمال، وهو أمر يمكن السعي وراءه بالذهاب إلى الأماكن «التي شهدت أعمال الرب العظيمة وعبادته هناك»، ومن ثم كان الحاج الكاثوليكي يتوقع أن يكرس نفسه للرب من جديد، وأن يبدأ حياة جديدة خالية من الذنوب والخطايا، كما كانت هذه الرحلة بداية لحياة النسك والزهد لكثيرين من الناس.[31]

فقد تم هذا النمط من الحج التكفيري، أو «حج التوبة»، ليكون عقوبة كنسية على الجرائم الكبرى بعد أن عجزت الكنيسة الكاثوليكية عن التصدي لتيار الحج العاطفي الذي ظل يجذب الناس في غرب أوروبا صوب الأرض التي شهدت قصة المسيح. وكان الحج بقصد التكفير عن الذنوب والجرائم يوجه إلى جميع المراكز المسيحية الكبرى مثل: روما حيث قبر القديس بطرس، ومزار القديس ميخائيل في مونت جورجانو (San Michele at Monte Gorgano)، والقديس جون في كومبوستيلا في إسبانيا (Santiago di Compostella) والقدس، وبيت لحم في فلسطين.

وكانت رحلة التوبة التي يقوم بها الحاج تصل في بعض الأحيان إلى سبع سنوات كاملة، وأول مثال من هذا النوع حدثتنا عنه المصادر بوضوح كان في القرن التاسع الميلادي، إذ ارتكب ثلاثة أخوة من جنوب إيطاليا جريمة قتلوا فيها عمهم القسيس. وكان الحكم الذي فرضته الكنيسة عليهم، تكفيرا عن

جريمتهم، أن يكبلوا أنفسهم بالسلاسل الحديدية، ويدورون حول الأماكن المقدسة «في التراب والغبار حتى يحين الوقت الذي يقبل فيه الرب توبتهم».[32] وكان القرن العاشر الميلادي بداية عصر الحج الكبير، بسبب رسوخ مفاهيم التوبة والغفران من ناحية، واستقرار الأوضاع في حوض البحر المتوسط من ناحية أخرى، فضلا عن قيام العلاقات التجارية بين المدن التجارية الإيطالية والإمبراطورية البيزنطية ومصر والشام، وما فرضته من ضرورات السلام والهدوء. وكان بوسع الحجاج الأوروبيين أن ينتقلوا في أرجاء فلسطين بحرية، لأن السلطات الإسلامية (سواء من العباسيين أو الإخشيديين أو الفاطميين) كانت ترحب بهم.[33]

وإذ أرست الكنيسة الكاثوليكية الاعتقاد بأن رحلات الحج هي طريق الخلاص تزايد إقبال الناس على المشاركة فيها منذ القرن العاشر الميلادي فصاعدا. وقد قام عدد من كبار القوم، رجالا ونساء، بعدة رحلات إلى الأراضي المقدسة[34] على الرغم من صعوبة السفر، ووعورة الطرق وأخطارها آنذاك، وهذا ما يجعلنا نعتقد بأن الناس قد ربطوا بين الحج إلى الأرض المقدسة والأمل في الغفران.

ومن ناحية أخرى كانت للحج المسيحي بقصد التوبة قيمته العملية من الناحية الاجتماعية، إذ كان يرغم المجرمين وأصحاب الذنوب على الابتعاد عن المجتمع عدة شهور، أو عدة سنوات (قد تصل إلى سبع سنوات)، فإذا نجوا من مخاطر الطريق وعادوا سالمين فإنهم لابد من أن يحرصوا على وضعهم المتميز الذي حققته رحلة الحج وشهرتهم الطيبة بالتقوى والصلاح.[35] وقد ذهب رجال من أصحاب المزاج العنيف مثل «فولك نيراNerra الرهيب» إلى فلسطين سنة 1002 م، وزارها مرتين بعد ذلك تكفيرا عن ذنبه، كما زارها روبرت الشيطان كونت نورماندي بقصد التوبة.[36] لقد اضطرت الكنيسة الكاثوليكية إلى منح غفران جزئي لقاء رحلة الحج إلى القدس. وفي عز ازدهار الحركة الصليبية كانت الكنيسة تمنح غفرانا غير محدود للصليبيين في مقابل الغفران الجزئي الذي كانت تمنحه للحجاج غير المقاتلين.

ولم يكن من الممكن أن يتسع نطاق رحلات الحج التكفيرية سوى بوجود تسهيلات مناسبة في الطرق التي يسلكها الحجاج. وقد وفرت الأديرة

الكلونية[37] شبكة اتصالات واسعة، كما استخدمت قدرتها التنظيمية الفائقة في ترتيب التسهيلات للحجاج الذاهبين إلى فلسطين. وقد تبرع أثرياء التجار الإيطاليين، والأوروبيين الأغنياء، بالإنفاق على دور الضيافة والمنازل التي كرست للحجاج القادمين من بلدان غرب أوروبا. وفي كل عام كانت أوروبا تشهد قدوم عدد من الرهبان المقيمين في القدس لجمع التبرعات من الأثرياء، لتوفير التمويل لهذه المنازل ودور الضيافة.

وفي القرن الحادي عشر الميلادي كان قد استقر في ضمير الناس في غرب أوروبا أن رحلة الحج تتويج لحياة المرء يتمنى المتدينون أن تكون هي الخاتمة المناسبة لرحلتهم في الحياة الدنيا. وقد أمدنا رالف جلابير، الذي كان هو نفسه راهبا من الكلونيين، بنص يجسد هذه الرؤية، إذ يقول: «... لا الوقت نفسه بدأت أعداد تفوق الحصر تتوجه إلى ضريح المخلص في القدس من شتى بقاع الدنيا، وبأعداد أكبر مما كان يتوقعه أي إنسان. ولم يكن الذاهبون من العامة وأبناء الطبقة الوسطى فقط، بل ذهب إلى هناك كثيرون من الملوك العظام والكونتات والنبلاء. وأخيرا-هذا شئ لم يحدث قبل ذلك-أنطلق بعض الفقراء وكان العديدون يتمنون الموت هناك، بدلا من العودة إلى الوطن...»[38].

وفي القرن الحادي عشر الميلادي كثرت رحلات الحج التكفيرية من غرب أوروبا إلى القدس، فقد كانت الكنيسة تفرض على المذنبين، ومن أضروا بمصالح الكنيسة، ومن ينتهكون «سلام الرب»، رحلة حج إلى فلسطين تكفيرا عن ذنوبهم. وقد تزايد عدد الحجاج التائبين في هذا القرن بحيث صار الحج من أهم روافد الفكرة الصليبية. وطوال القرن الحادي عشر الميلادي، وحتى العقدين الأخيرين منه كان تيار الحج لا يزال يصب باتجاه الشرق. وفي بعض الأحيان كانت مجموعات الحجاج تصل إلى عدة آلاف من كل عمر وكل طبقة،[39] وكل منهم على استعداد ليقضي سنة أو أكثر في هذه الرحلة. ومن الواضح أنه منذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي بدأت المصاعب تزداد أمام رحلات الحج الكاثوليكية إلى فلسطين. وكان من أسباب ذلك الغزو السلجوقي الذي وضع القدس تحت سيادة الأتراك السلاجقة في سنة 463 هجرية/ 1071 ميلادية عندما نجح القائد السلجوقي أتسيز، العامل في خدمة السلطان ملك شاه، أن يستولي على الرملة وطبرية

وبيت المقدس،[40] ويعيدها إلى السيادة الإسلامية للخلافة العباسية بعد أن كانت تحت الحكم الفاطمي منذ دخولهم بلاد الشام في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وقد استردها الفاطميون بعد خمس سنوات ولكن أتسيز طردهم منها بعد حصار عدة شهور ومذبحة رهيبة.

ويبدو أن المشكلات الأمنية الناجمة عن توغل السلاجقة في بلاد الشام في ذلك الحين قد تركت آثارها السلبية على الحجاج الكاثوليك المسافرين عبر الأناضول. بيد أن الجماعات الكبيرة من الحجاج المسلحين كانت أيضا من أسباب المتاعب التي لاقوها آنذاك. فقد أقلقت السلطات الإسلامية المشاكل التي كانوا يثيرونها اعتقادا منهم بأنهم كلما تعرضوا لمزيد من الأذى والمتاعب كانت رحلتهم أكثر نجاحا.[41] وفي رأي البعض أنه ربما كان المسلمون يفيدون تجاريا من ازدهار الحج المسيحي إلى البلاد المقدسة. ولكن الدخل الذي كانت السلطات الإسلامية تحصله من الحجاج الكاثوليك كان تافها بالقياس إلى موارد المسلمين الهائلة آنذاك، ولا سيما إذا وضعنا في اعتبارنا أن التقشف كان أحد المثل العليا التي يسير الحجاج على هديها تشبها بالحواريين.

وثمة أسباب قوية تدفعنا إلى الظن بأن الحج إلى بيت المقدس، في الفترة السابقة على عصر الحروب الصليبية، كان يحظى بتقدير كبير في مجتمعات أوروبا الغربية. وفي رأينا أن الحملة الصليبية كانت التطور المنطقي للحج المسيحي إلى فلسطين، إذ لم تكن فكرة الحملة الصليبية لتطرأ على بال أحد لو لم تكن رحلات الحج الكاثوليكية قد استمرت منذ فترة باكرة وحتى أخريات الزمن الحادي عشر الميلادي. ذلك أن تيار الحج المستمر كان لابد من أن يؤدي بالضرورة إلى فكرة أن الأرض التي شهدت قصة المسيح، وفيها ضريحه، لابد من أن تكون تحت سيطرة أتباعه. ولم يكن السبب هو الرغبة في حل المشكلات والصعوبات العملية التي كانت تواجه الحجاج الكاثوليك، ولكن لأن أوروبا التي بدأت تشعر بقوتها رفضت بقاء أرض المسيح بأيدي المسلمين الذين صورتهم الدعاية الكنسية في صورة الكفار المتوحشين.[42] وكانت الفكرة التي ملكت عقول أبناء الغرب الأوروبي في أخريات القرن الحادي عشر الميلادي، هي فكرة تخليص الأرض المقدسة

من المسلمين. وقد أدى هذا بالضرورة إلى بروز أهمية القيام بحملة حج مسلحة (وهي الحملة الصليبية) لتحقيق هذا الهدف.

ومن الأمور ذات الدلالة أن المعاصرين لم يفرقوا أبدا بين الحج والحملة الصليبية على نحو ما تكشف روايات المؤرخين اللاتين، إذ كان الخط الفاصل بينهما رقيقا للغاية.

لقد كانت الفكرة الحاسمة في كليرمون سنة 1095م هي عسكرة الحج، وإضفاء طابع القداسة على هذه الممارسة في الوقت نفسه. وكان الصليبي في حقيقته حاجا من طراز خاص، إذ كان حاجا يتمتع بامتياز حمل السلاح. حقيقة أنه كان أعلى درجة من الحاج المسالم، بيد أن الاختلاف بين الصليبي والحاج كان اختلافا في الدرجة فقط ولم يكن اختلافا في الجوهر. وكانت تلك هي رؤية المعاصرين أيضا. فقد كان السيف الذي يحمله الصليبي مباركا من الكنيسة باعتباره جنديا في جيش المسيح، كما كانت سائر مهمات الحاج التقليدية تحظى بمباركة الكنيسة. وقد يبدو هذا الأمر أكثر وضوحا إذا عرفنا أن زعماء الحملة الصليبية الثالثة، وهم فردريك بربروسا ملك ألمانا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا، قد تلقوا مهمات الحجاج التقليدية وهي العصا والتصريح (Staff and scrip) عندما انطلقوا في سبيلهم لقتال صلاح الدين الأيوبي.(43)

حقيقة أن كلمة «جندي المسيح» صارت في القرن الثاني عشر الميلادي تعني «صليبي» على حين توارت كلمة «حاج»، التي استخدمها المؤرخون الذين عاصروا الحملة الأولى، رويدا رويدا. وهنا ينبغي أن نتذكر أن المؤرخ المجهول قال على سبيل المثال وهو يتحدث عن أهل مقدونيا: «لم يصدقوا أننا حجاج، ولكنهم ظنوا أننا جئنا لنهب أرضهم وقتلهم».(44)

هكذا اختلطت فكرة الحج بفكرة الحملة الصليبية، وأصبحت كل منهما تعني الأخرى في بداية الحركة الصليبية، ثم توارت فكرة الحج في الخلفية، على حين صارت فكرة الحملة الصليبية تعني «جندي الرب». ولكن أهم عناصر هذه الحملة المقدسة يتمثل في مفهوم الغفران الذي كان هو العنصر الأهم في عيون العامة، لا سيما بعد أن ارتبط بالحج الجماعي الذي تقوم به أعداد كبيرة، وبعد أن صار مركز الدعوة إلى الحملة الصليبية في خطة أربان الثاني في كليرمون.

حقيقة أن الغفران الذي منحه البابا في كليرمون لم يكن غفرانا كاملا ؛ ولكن الناس فهموا أنه غفران كامل. ففي رواية فوشيه الشارتري عن خطبة البابا يقول: «إنني أخاطب الحاضرين، وأعلن لأولئك الغائبين، فضلا عن أن المسيح يأمر بهذا، أنه سوف يتم غفران ذنوب كل أولئك الذاهبين إلى هناك إذا ما انتهت حياتهم بأغلالها الدنيوية سواء في مسيرتهم على الأرض، أو أثناء عبورهم البحر، أو في خضم قتالهم ضد الوثنيين. وهذا الغفران أمنحه لكل من يذهب بمقتضى السلطة التي أعطاني الرب إياها ...».[45] فقد ذهبت، الدعاية الصليبية الشعبية إلى آفاق أبعد من ذلك، والواضح أن حقيقة ما قيل في كليرمون قد توارى في الخلفية بسبب الدعاية الصليبية النزقة.

وليست هناك طريقة لتفسير نجاح الدعاية للحملة الصليبية الأولى في عامي 1095 م و 1096 م، سوى البحث في تحول مفهوم الغفران الصليبي إلى غفران كامل من الذنوب على يد الدعاة الذين روجوا للمرسوم الصادر في كليرمون وقدموا له تفسيرات تتعدى حدوده. وبعبارة أخرى كان الغفران استجابة لحاجة الناس التواقين إلى الخلاص من ناحية، ومتطلبات الحركة الصليبية نفسه من ناحية أخرى. وتبدو هذه الحقيقة واضحة من خلال النقد المرير الذي صبه علماء اللاهوت الكاثوليك على الغفران الصليبي منذ حوالي سنة 1130م. وكان بطرس أبيلار (Peter Abelart) (1079م-1142م) هو أول من دخل هذا المجال.[46]

ويبدو أنه مع بداية الحركة الصليبية كانت المسألة قد خرجت تماما من أيدي رجال الكنيسة، فقد تجاهل الناس خطط البابوية في تنظيم الحملة الصليبية كما ضاعت هذه الخطط في موجات الأحداث المتلاحقة. وهذا هو نفس ما حدث بالنسبة لمفهوم الغفران الذي تطور بشكل تلقائي بفضل تداعيات الأحداث. وقد اضطر البابوات للتخلي عن صيغة الغفران الجزئي الذي تحدث عنه البابا في خطبته بكليرمون، وفي خطاباته إلى أتباعه عندما تحدث عن «إسقاط التوبة»، أو «حذف الكفارة- remissio pecctorum»[47] وتبنوا التفسير الشعبي للغفران. وقد بدأ هذا الموقف منذ عهد البابا أجينيوس الثالث (Eugenius III) في إعلانه الغفران المرتبط بالحملة الثانية (1145- 1149م).[48] وقد أدى هذا الموقف الجديد إلى غفران الخطايا

والإعفاء من التوبة والتكفير.

وهناك بابوات حاولوا إعادة لزمن إلى الوراء وإلغاء النص الخاص بغفران الذنوب والاكتفاء بإعفاء الصليبي من التوبة أو التكفير مقابل اشتراكه في الحملة الصليبية، ولكن محاولات البابا جريجوري الثامن[49] باءت بالفشل، ووصلت مسألة الغفران إلى ذروتها في مجمع اللاتيران الرابع سنة 1215م. ومنذ ذلك الحين فصاعدا كانت فكرة الغفران تشكل أساس النظرة البابوية للحملة الصليبية. وقد نال كل الناس الذين ساهموا بأنفسهم، أو بأموالهم، في أي حملة صليبية، وعدا بغفران كل ذنوبهم وخطاياهم التي اعترفوا بها.[50]

لقد تجسد مفهوم الغفران الصليبي واضحا جليا في دعائيات الحركة الصليبية بعد ذلك. ففي خضم نشاطه المحموم للدعاية للحملة الصليبية الثانية (التي جاءت رد فعل لاستيلاء المسلمين بقيادة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود على إمارة الرها الصليبية) قام برنار مقدم دير كليرفو (St. Bernard de Clairvaux) بحث أبناء الغرب الأوروبي على الذهاب في الحملة الصليبية.[51] وكان ذلك بتفويض من البابا أجينيوس الثالث. وقد ذكر برنار في واحدة من خطبه الدعائية لهذه الحملة: «أيها الجندي الباسل، يا رجل الحرب، الآن لديك قضية تجعلك تقاتل دون أن يحيق الخطر بروحك ؛ قضية، النصر فيها مجيد، والموت في سبيلها مكسب. أم تراك رجل أعمال ناجح يدرك مكاسب هذه الدنيا بسرعة ؟ فإذا كنت كذلك فإن باستطاعتي أن أقدم لك صفقة محترمة، فلا تجعل هذه الفرصة تفوتك. خذ شارة الصليب، وفي الحال ستنال الغفران على كل خطاياك التي اعترفت بها بقلب نادم. ولن يكلفك كثيرا أن تشتري مكافأة السماء إذا ارتديت شارة الصليب في تواضع».[52] وليس هناك وضوح أكثر من هذا في حقيقة أن الاشتراك في الحملة الصليبية صار ثمنا للحصول على الغفران الصليبي.

وقد عكس الأدب الأوروبي في تلك الفترة مفهوم الغفران الصليبي على النحو الذي استقر في الوجدان الشعبي واستجابت له البابوية في المرسوم الذي أصدره البابا أجينيوس الثالث في ديسمبر 1145م،[53] ففي أغنية صليبية يرجع تاريخها إلى القرن الثاني عشر الميلادي ضمن المجموعة

المعروفة باسم (Carmina Burana) نجد النغمة نفسها عن الغفران الشامل لقاء أخذ شارة الصليب:[54]

التاجر الحاذق سيكون هناك
ذلك الذي يريد شراء الحياة
والأخير سيكون الأول
والأول أخيرا
والاجتماع مختلف
لكن طريقة الدفع (remuneratio) ستكون واحدة
لأن كل العاملين (أي الصليبيين)
سينالون ثمنا هو الحياة

وتقول قصيدة أخرى من القرن نفسه، ضمن المجموعة المعروفة باسم أغنيات الحروب الصليبية:[55]

لقد سمعت مثلا سائرا يقول:
«التاجر العاقل ينفق المال من حافظته
«وصاحب القلب الطائش
«هو الذي يرى الحسن فيختار القبيح»،
هل تعرفون بما وعد الرب
أولئك الذين سيأخذون صليبه؟
إنه لثواب حسن بالتأكيد.
الفردوس، وكان وعده صدقا،
إن من يمكنه أن يربح مكافأته
أحمق إذا انتظر إلى الغد.

وقرب نهاية القرن الثالث عشر الميلادي كتب الشاعر البروفنسالي (Aimeric de Belenoi) قصيدة تحمل هذا المغزى:[56]

لأن المسير يعني الأمل،
ومن أجل الممتلكات والفرح والشكر،
وفي سبيل الشرف والعزة.
ومن أجل الخلاص من الخطيئة.

ومنذ مطلع القرن الثالث عشر الميلادي توسعت البابوية في منح الغفران

الذي كان امتيازا للصليبيين الذاهبين إلى الأرض المقدسة. ففي سنة 1207 م منح البابا أنوسنت الثالث الفرسان الأوروبيين المشاركين في الحملة الألبيجنسية (التي دعت إليها البابوية ضد نبلاء الجنوب الفرنسي الذين اعتنقوا مذهبا كنسياً يعارض هيمنة رجال الكنيسة الكاثوليكية على الناس في غرب أوروبا) غفرانا يماثل الغفران الممنوح لمن يحاربون المسلمين في فلسطين. «نحن نرغب في أن أولئك الرجال الذين أخذوا السلاح للقتال ضد الهراطقة يجب أن يتمتعوا بالغفران نفسه الذي منحناه لأولئك الذين هبوا لنجدة الأرض المقدسة».(57)

ثم حدث تطور جديد وهام. فقد صارت البابوية تمنح الغفران لمن يرسلون المحاربين بدلا منهم، ولمن يساهمون بأموالهم في تمويل إحدى الحملات الصليبية عوضا من المشاركة بأنفسهم. ونتيجة توسع البابوية في الاستخدام السياسي للحملة الصليبية، أي استخدام الفكرة الصليبية في شن الحرب ضد خصومها داخل أوروبا الكاثوليكية نفسها، فتح الباب على مصراعيه أمام فكرة شراء الغفران بالمال. وهو ما أدى إلى ظهور مشكلة صكوك الغفران التي ثار ضدها مارتن لوثر فيه بعد.

ففي سنة 1246م أعلن البابا أنوسنت الرابع حربا صليبية ضد الإمبراطور فردريك الثاني، وفي سياق الدعاية «الصليبية» قال البابا: «نحن نمنح الغفران لكل أولئك الذين أخذوا على عاتقهم إنجاز هذا العمل شخصيا وعلى نفقتهم، كما نمنح الغفران لأولئك الذين لا يشاركون في الحملة شخصيا، ولكنهم يرسلون المحاربين اللائقين على نفقتهم، حسب إمكاناتهم ونوعياتهم، ونمنحه أيضا للذين يقومون بهذا العمل على نفقة الآخرين، ونحن نرغب في أن يتمتعوا بكل الامتيازات والحصانة التي نمنحها في المجمع الكنسي العام لمن يساعدون الأرض المقدسة».(58)

وبنهاية القرن الثالث عشر الميلادي كانت الدعوة إلى أي حملة صليبية تبدو للكثيرين، من رجال الكنيسة والعلمانيين على حد سواء، مجرد وسيلة لجمع الأموال للباباوات والفرسان لاستخدامها في عدة أغراض لا تتصل بالحرب ضد المسلمين في فلسطين.(59) وفي سنة 1326م قال البابا يوحنا الثاني والعشرون: «... لقد فكرنا أن نمنح هذا الغفران الذي كان الكرسي الرسولي قد اعتاد منحه، في حالات مماثلة، لأولئك الذاهبين إلى نجدة

الأراضي المقدسة...».[60] لقد كان البابا يتحدث عن حملة صليبية متوجهة إلى إسبانيا، وليس إلى فلسطين حيث كان الوجود الصليبي قد انتهى منذ بداية العقد الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي.

وإذا أمعنا النظر في هذه الأمثلة التي سقناها في السطور السابقة، وفي حالات كثيرة منحت فيها البابوية الغفران الكامل لكل من شارك في حملة من حملاتها التي وجهتها ضد العرب والمسلمين، أو ضد خصومها السياسيين، أو المذهبيين في أوروبا الغربية نفسها، أدركنا أن البلاط البابوي كان يرى في هذه الحملات جميعا عاملا مشتركا جعل البابوات يتوسعون في استخدام الغفران الصليبي لتجنيد الجنود في الحملات الصليبية ضد المسلمين في فلسطين والأندلس وعلى شواطئ البلطيق، وضد المخالفات والمنشقين على الكنيسة الكاثوليكية، بل حتى ضد القوى العلمانية في الغرب الأوروبي. لقد كانت «الحملة الصليبية» أداة من أدوات السياسة الداخلية والخارجية بالنسبة للبابوية. وكان الغفران الصليبي، لقاء المشاركة بالنفس أو عن طريق تجهيز المقاتلين أو بمجرد دفع المال، هو الحافز الذي استثمرته في هذا المجال.

هكذا أدى التطور التاريخي إلى أن صار الغفران الصليبي يُشترى لقاء المال على النحو الذي تطور به في شكل صكوك الغفران الشهيرة، بيد أن تلك قصة أخرى، وما يهمنا في هذه الدراسة أن مفهوم الغفران الذي ارتبط بالحج التكفيري كان مرتبطا أيضا بفكرة الحرب المقدسة. ومن الطبيعي أن تروق دعوة الحج المسلح في عيون الفرسان من أبناء الطبقة الإقطاعية في غرب أوروبا على نحو خاص.

ومثلما تطور مفهوم الحج منذ بداية المسيحية حتى عشية الحروب الصليبية تطور مفهوم الحرب المقدسة، الذي كان من أهم روافد الأيديولوجية الصليبية.

لقد كان موقف آباء الكنيسة الأوائل حرجا وهم يواجهون مشكلة التوفيق بيت تعاليم المسيحية الداعية إلى السلم ونبذ الحرب[61] من ناحية، ومقاومة الشر الحتمي في الحياة الدنيا من ناحية أخرى. وفي العالم البيزنطي أدان اللاهوتيون، وعلى رأسهم القديس باسيل، الحرب لاعتبارها قتلا جماعيا ؛ ولكن هذه الإدانة لم يكن لها تأثير فعال في أرض الواقع.[62]

أما في الغرب اللاتيني فقد كان الموقف أقل استثارة، ولم يكن الناس على استعداد لقبول هذه الآراء السلمية، بسبب الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي نجمت عن الغزوات الجرمانية التي اجتاحت أوروبا فيما بين القرنين الخامس والسابع الميلاديين، وأسفرت عن قيام عدة ممالك، واختلاط سكاني واضح. وكانت الضرورة الثقافية الاجتماعية تحتم تبرير استمرار القيم والمثل الجرمانية في ثياب مسيحية. وفي ذلك الوقت كان نظام الفروسية الغربي يتطور مدعوما بالملاحم البطولية التي أعطت المكانة والهيبة للبطل العسكري.[64] ولم تستطع الكنيسة الغربية شيئا حيال هذه القيم والمثل العليا الجرمانية، فحاولت توجيه طاقتهم العسكرية وجهة تنفيذها.

وفي القرن الخامس الميلادي كان أول مفكر عالج مسألة تبرير الحرب على أساسا ديني هو القدس أوغسطين (Augustinus) (354-430م)، وربما لا يزال أوغسطين هو أكثر من عالج مسألة الحرب على أسس مسيحية ماهرة. فقد حاول أن يضع تعريفا للحالة التي تصبح الحرب فيها حربا عادلة (bellum justum). وقد خضعت الشروط التي وضعها أوغسطين للحرب العادلة بعد فترة من الزمن للتبسيط الشديد من جانب علماء اللاهوت الأوروبيين، بحيث اختزلت في شروط ثلاثة هي: 1- أن يكون هناك سبب عادل (ausa justa) لشن الحرب، وعادة ما يكون هذا «السبب العادل» عدوانا، أو عملا ضارا أتاه الآخرون. 2- أن يرتكز قرار الحرب على سلطة شرعية (auctorites pricipis)، وعادة ما تكون هذه السلطة علمانية بطبيعة الحال (على الرغم من أننا سوف نرى أن الكنيسة قد انتزعت لنفسها حق إعلان الحرب المقدسة، ثم الدعوة إلى الحملة الصليبية). 3- ويتمثل الشرط الثالث في سلامة القصد (intentio recta)، أي أنه يجب على كل مشارك في الحرب أن تكون دوافعه نقية سليمة، كما ينبغي أن تكود الحرب هي الوسيلة الوحيدة المتاحة لتحقيق هدف عادل.[64]

وفي رأي أوغسطين أنه يجب استبعاد السلام من بين الأسباب العادلة للحرب لأن كل طرف يشن الحرب من أجل السلام الذي يتوافق مع مصالحه.[65] وفي الواقع أن التقلبات السياسية في أوروبا آنذاك كانت تتيح فرصة هائلة لتفسير كل من هذه الشروط الثلاثة بما يتفق والمصالح

السياسية للطرف الذي يشن الحرب.

وقد كانت التقلبات السياسية والأحداث العسكرية العنيفة التي مر بها الغرب في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين مواتية تماما لإبراز مفهوم الحرب الدفاعية، وتأكيد شرعيتها،[66] إذ إن الهجمات التي شنها الاسكندنافيون الوثنيون، وهجمات المجريين والمسلمين على أنحاء متفرقة من أوروبا في هذين القرنين مثلت ضغطا على سكان أوروبا الذين عاشوا أوقاتا صعبة عقب انهيار الإمبراطورية الكارولنجية.

ومن ناحية أخرى كانت ثروات الكنائس والأديرة هي الهدف الذي يجتذب الغزاة في كل مكان، ومن ثم كان ضروريا على الكنيسة وعلماء اللاهوت أن يدعموا فكرة الحرب الدفاعية العادلة. ولأن المغيرين جميعا لم يكونوا من المسيحيين (لأن الفيكنج لم يعتنقوا المسيحية إلا بعد استقرارهم في نورماندي بغرب فرنسا في مطلع القرن العاشر الميلادي، كما أن المجريين اعتنقوا المسيحية في وقت قريب من هذا)، فقد كانت فكرة الحرب العادلة مرتبطة بفكرة الحرب ضد الوثنيات (أي غير المسيحيين)، ولذلك تحولت إلى مفهوم الحرب المقدسة.

وهناك من المفكرين من حاول التفرقة بيت «الحرب العادلة» و«الحرب المقدسة»،[67] بيد أن التمييز بينهما كان صعبا على المستوى النظري من ناحية، كما أن أحدا لم يحاول على المستوى العملي أن يميز بينهما من ناحية أخرى. وفي القرن التاسع الميلادي قام البابا ليو الرابع (Leo IV) بإعلان أن من يموت في سبيل الكنيسة سوف ينال ثوابا من السماء، وبعده بسنوات قليلة أعلن البابا جون الثامن (John VIII) أن ضحايا الحرب ضد المسلمين والفيكنج شهداء سوف تغفر ذنوبهم[68] (وهو الوعد نفسه الذي تلقاه المشاركون في الحملة الصليبية فيما بعد). ومن الخطأ أن نعتبر أن هذه كانت حملات «صليبية». الواقع أن ليو الرابع وجون الثامن كانا متأثرين بفكر (أشيدر) الأشبيلي الذي قال: «إن الرجال الذين تجعلهم حكمتهم وشجاعتهم جديرين بالسماء هم الذين يسمون الأبطال».[69] وتتمثل أهمية هذه الوعود، بمنح الغفران، أنها تكشف عن تأييد البابوية لفكرة الحرب ضد المسيحيين. وبمرور الوقت تحولت الفكرة إلى الهجوم بدلا من الدفاع، وإن ظلت داخل نطاق فكرة أوغسطين عن الحرب العادلة التي يشنها الرجال

لكي يستردوا ما هو حقهم. وكان من السهل دائما إلقاء اللوم على الطرف الآخر في الحرب، كما كان من الميسور دائما إيجاد سبب للحرب (causa belli) يبرر موقف من يبدأ.

لقد استخدمت البابوية فكرة الحرب العادلة في القتال الذي كان دائرا ضد مسلمي الأندلس، إذ منح البابا الإسكندر الثاني (Alexander II) في سنة 1063م غفرانا للفرسان الفرنسيين الذين ذهبوا لقتال المسلمين في إسبانيا.[70]

وفي رأي كثير من الباحثين أن جريجوري السابع (Gregory VII) (1073-1085م) هو الذي صاغ فكرة الحرب المقدسة في شكلها النهائي، وأحدث نقلة نوعية في موقف المسيحية من الحرب. فقد استخدم عبارة «جيش المسيح Militia Christi» للمرة الأولى بالمعنى الدنيوي وليس المعنى المجازي الذي أستخدمه القديس بولس.[71] ولدينا عدة وثائق تدلنا على مدى التغير الجوهري الذي أحدثه جريجوري السابع في مفهوم الحرب المقدسة.[72] وهذه الوثائق عبارة عن خطاب بتاريخ 2 فبراير 1074م من البابا إلى الكونت وليم الأول أمير بورجوني (Bourgogne) يدعوه لنجدة الكنيسة ومحاربة المسلمين الذين يهددون القسطنطينية، وخطاب آخر بعد ذلك بشهر (أول مارس) يدعو فيه «كل الراغبين في الدفاع عن العقيدة» لنجدة القسطنطينية التي وصل المسلمون إلى أسوارها، أما الخطاب الثالث فهو عبارة عن خطاب شكر موجه إلى الكونت وليم السادس أمير بواتييه (Count William VI de Poitiers) يشكره على ما قدمه من خدمات للدفاع عن العقيدة.

والوثيقة الرابعة-في رأينا-أهم هذه الوثائق جميعا ؛ فهي خطاب من البابا إلى الإمبراطور هنري الرابع إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة بتاريخ 7 ديسمبر 1074م يخبره باستعداده للمسير لنجدة الإمبراطورية البيزنطية (التي تدهورت أحوالها بعد هزيمتها أمام المسلمين في مانزكرت سنة 1071م)[73]، وتخليص القديس رومانوس بجيش قوامه خمسين ألف رجل.

ومن الواضح أن الفكرة التي كانت تدور بخلد «جريجوري السابع» كان محورها الحرب المقدسة الهجومية. ولكن النزاع الذي لم يلبث أن نشب بينه وبين الإمبراطور حال دون تنفيذها. وحلت ربط البابا جريجوري السابع

بين الحرب ضد المسلمين وفكرة الحرب المقدسة كان يجسد الفكرة القائلة بضرورة استخدام القوة لحماية شعب المسيح من الأعداء باعتبار هذا سببا عادلا (causa justa) في الحرب.[74] وهذه الذريعة هي التي اتخذها أربان الثاني في كليرمون سنة 1095م، وهو يدعو أمراء أوروبا وفرسانها، لأخذ شارة الصليب.[75] فقد ادعت البابوية أن الحملة الصليبية الأولى تقوم على سبب عادل هو مساعدة البيزنطيين ضد المسلمين في الشرق.

وعندما نجحت الحملة الأولى في إقامة مملكة بيت المقدس وعدة إمارات أخرى في المنطقة العربية، تغير المبرر الذي اعتبره اللاهوتيون «سببا عادلا» لشن الحرب ضد المسلمين. وتمت صياغة المبرر الجديد على أساس أن الأرض التي شهدت قصة المسيح قد صارت بأيدي المسيحيين حقا، بيد أنها تحتاج إلى قوات عسكرية للدفاع عنها. وقد أكد البابا أجينوس الثالث (Egenius) هذا الأمر سنة 1145م، وترددت أصداء كلماته في الخطابات البابوية بعد ذلك قال: «.. بفضل الرب وحماسة آبائكم، الذين ناضلوا للدفاع عنها (الأرض المقدسة) على مر السنين، لكي ينشروا المسيحية بين شعوب هذه المنطقة، نجح المسيحيون في الحفاظ على هذه الأرض حتى الآن، كما استولوا بشجاعة على مدن أخرى من الكفار...»، «... وسيكون الأمر عنوانا على النبل والاستقامة إذا دافعتم بجسارة عما حققته جهود آبائكم، أيها الأبناء. ولكن إذا جرى الأمر على نحو مختلف، لا سمح الله، فإنه سيبدو واضحا أن شجاعة الآباء قد تلاشت في الأبناء...».[76]

وانطلاقا من هذا الموقف الجديد لتبرير الحرب ضد المسلمين تحركت البابوية بعد أن استرد صلاح الدين الأيوبي مدينة بيت المقدس سنة 583 هـ/ 1187 ميلادية.[77] ووجدت البابوية، والمبشرون، ومؤرخو العصور الوسطى اللاتين الفرصة لكي يعيدوا صياغة «السبب العادل causa justa» للحرب على أساس استعادة القدس من المسلمين. لقد كانوا يحاكمون زمانهم ويشيرون إلى الأرض المقدسة باعتبارها «مملكة المسيح» التي تنتمي إلى العالم المسيحي، والتي يجب الدفاع عنها، واستردادها من المسلمين.

وقد كانت هذه العبارة وحدها (وقد ترددت كثيرا في خطب البابوات ودعاة الحركة الصليبية والمؤرخين الذين كتبوا عنها) كافية لأن تكون مبررا لصياغة السبب العادل في شن الحرب ضد المسلمين في الشرق العربي. إذ

إن البابوية ركزت دعايتها على أساس ضرورة الدفاع عما تبقى من الكيان الصليبي في فلسطين، بل إن محاولة غزو مصر في الحملة الصليبية المعروفة بالحملة الخامسة سنة 1218 م، والحملة التي قادها لويس التاسع سنة 1249 م، والتي عرفت بالحملة السابعة، والاقتراحات التي لم تنفذ بغزو مصر-كل هذا كان يتم باعتباره محاولة من جانب البابوية، والغرب الأوروبي الكاثوليكي للدفاع عن بقايا الوجود الصليبي في فلسطين.[78] وهكذا كان شرط «السبب العادل» لشن الحرب، كما وضعه أوغسطين، عاملا أساسيا في صياغة مبررات كل حملة من الحملات الصليبية ضد المسلمين في الشرق العربي.

بل إن البابوية توسعت في استخدام هذا «السبب العادل» لتبرير حملاتها ضد كل أعدائها من المسيحيين الكاثوليك في أوروبا نفسها. وقد أسرفت البابوية في استخدام نموذج «الحملة الصليبية» ضد أعدائها في الخارج والداخل مما أدى إلى ردود فعل سلبية كثيرة. ومنذ القرن الثالث عشر الميلادي حتى الآن خرجت آراء كثيرة تقول: إن «الحملات الصليبية» ضد القوى العلمانية المعادية للبابوية في أوروبا لم تكن تستند إلى أساس قوي، ولا يمكن تبريرها. ولكن البابوية ودعاتها حاولوا دائما تبريرها في إطار المفهوم المسيحي للحرب العادلة.

ومن ناحية أخرى، تأثرت الكنيسة في موقفها من الحروب الصليبية بحركة «سلام الرب» التي كانت في بداية أمرها وسيلة تدافع بها الكنيسة عن نفسها. إذ إن الفوضى التي استشرت في أوروبا عقب انهيار الإمبراطورية الكارولنجية بسبب المنازعات والحروب الإقطاعية جعلت الكنيسة تحاول تقييد العنف وتضييق نطاقه. فقد انهار النظام العام، وتراجعت الأخلاقيات، وفي كل مكان في أوروبا، طوال القرن العاشر الميلادي، كان المحاربون من أبناء الطبقة الإقطاعية يمارسون أفظع الأعمال. وعندما كانت الحروب الإقطاعية (feuds) تمزق أوصال أوروبا الغربية بسبب حال الجوع إلى الأرض في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، ظهرت حركة تدعو إلى السلام من خلال فكرتين أساسيتين هما: سلام الرب، وهدنة الرب. فقد تم عقد مجمع كنسي في شارو (Charroux) سنة 989 م أصدر مرسوما بالسلام جاء فيه تحريم مهاجمة ممتلكات الكنيسة، والفلاحين وأملاكهم، ورجال الكنيسة، مع تهديد كل من ينتهك هذه الشروط بالوقوع تحت طائلة عقوبة

الحرمان.[79] وتم التأكيد على قرارات هذا المجمع في السنة التالية في مجمع كنسي عقد في لوبوي (Le Puy)، وجاء مجمع بواتييه سنة 1000 ميلادية تأكيدا على هذا الاتجاه، الذي اتخذته الكنيسة الكاثوليكية للحد من أضرار الحروب الإقطاعية.[80] لقد تدخلت الكنيسة لحماية أملاكها ورجالها، ولكن المجتمع كله أفاد من نتائج هذه الحركة.

وفي معاهدات السلام الباكرة في شتى أنحاء أوروبا كان النبلاء الإقطاعيون يقسمون على مراعاة حصانة رجال الكنيسة، والمدنيين، وأملاك الكنيسة أيضا. ومنذ سنة 1040م فصاعدا بات من المعتاد إصدار مراسيم تحرم القتال في أيام معينة، ولدينا عدة وثائق من هذا النوع ؛ منها نص وثيقة هدنة الرب التي عقدت في أسقفية تيروان (Terouanne) سنة 1063 م ميلادية،[81] وهي تحدد فترة «هدنة الرب» بأربعة أيام وخمس ليال تبدأ بغروب شمس الأربعاء، وتمتد حتى شروق شمس الأثنين، وكل من يخرق هذه الهدنة يعرض نفسه لعقوبة الحرمان.

ويبدو أنه كلما مر الزمان كانت نصوص مراسيم هدنة الرب تزداد تشددا، إذ إن لدينا وثيقة عن مرسوم بهدنة الرب صدر سنة 1083م على يد أسقف كولون Cologne،[82] تبدو نصوصها أكثر تشددا من نصوص هدنة الرب الصادرة عن أسقفية تيروان قبل عشرين عاما.

ثم كانت المرحلة الأخيرة متمثلة في محاولة القضاء على الحروب الإقطاعية تماما. ويمكن إرجاع الفضل في تطور حركة السلام إلى الرهبان الكلونيين الذين ارتبطوا بحركة الإصلاح الكلونية. لقد كان المصلحون الكلونيون يستهدفون إصلاح الحياة الديرية والكنيسة الكاثوليكية، والعالم الغربي. كان إصلاح الديرية يستدعي وضع أسس جديدة ودستور جديد للرهبان، وكان إصلاح الكنيسة الكاثوليكية يعني إصلاح البابوية بالقدر الذي يمكنها من التصدي للعلمانيين، أما إصلاح العالم الغربي فكان يعني إخماد الحروب الإقطاعية التي باتت هي النغمة الدالة في الحياة الأوروبية آنذاك.

وقد خطت الكنيسة خطوات حاسمة تجاه «الحرب المقدسة» بسبب حركة السلام، إذ لم يكن يكفي إقناع النبلاء الإقطاعيين بعدم شن الحرب، وبات من الضروري إيجاد وسيلة تجبرهم على حفظ السلام. ومن ثم

تورطت الكنيسة في تنظيم الحملات العسكرية وتوجيهها لعقاب من يعكرون صفو السلام.[83] هذا النمط من الحروب الكنسية اعتبرتها الكنيسة «حروبا مقدسة»تشن في خدمة الكنيسة وتحت رايتها. وقد شاع هذا النمط ليكون بمثابة سلاح سياسي هام بأيدي رجال الكنيسة في القرن الحادي عشر الميلادي. وكانت تلك خطوة هامة نحو بلورة فكرة الحروب الصليبية.

ولم يحدث قبل منتصف القرن الحادي عشر الميلادي أن صارت البابوية قوية بالقدر الذي يجعلها تفكر جديا في تجريد حملة عسكرية ضد الشرق العربي الإسلامي، إذ إن السياسة النشطة التي اتبعتها البابوية في تلك الفترة التي شهدت إصلاح الكنيسة والبابوية[84] كانت تدفع البابوات نحو موقف جديد من الحرب. ففي سنة 1053م قام البابا ليو التاسع (Leo IX) (1048-1054م)، والذي يعتبر من أوائل البابوات الإصلاحيات، بقيادة جيش في جنوب إيطاليا ضد النورمان.[85] وفي هذه الحملة التي قادها البابا بنفسه منح الألمان الذين أرسلهم الإمبراطور الألماني غفرانا يعفيهم من العقاب على ذنوبهم، كما يعفيهم من التكفير عنها. ومن الجدير بالذكر أن هذه المعركة التي عرفت باسم معركة كيفيتا (Civita) انتهت بالقضاء على الجيش البابوي، وتم أسر البابا نفسه ليبقى رهين محبسه لدى النورمان حوالي سنة، ثم أطلق سرحه سنة 1054م، وعاد إلى روما ليلقى حتفه في السنة نفسها.

وكان الغفران الذي منحه ليو التاسع قي هذه الحملة شبيها بالغفران الذي منحه أربان الثاني للمشاركين في الحملة الصليبية الأولى.[86] ثم حاول نيقولا الثاني (Nicholas II) (1058-1061م) أن يحل المشكلة النورمانية بالتحالف مع أمراء النورمان على أن يكون ريتشارد أمير كابوا (Richard of Capua)، وروبرت جويسكارد (Robert Guiscard) تابعين إقطاعيين عليهما أداء الخدمات الاقطاعية العسكرية لسيدهما (البابا).[87].

هكذا صارت الكنيسة الكاثوليكية قوة عسكرية إقطاعية، استخدمت قواتها في الدفاع عن الدويلات البابوية، ثم استخدمت هذه القوة العسكرية فيما بعد في أغراض الحرب المقدسة. وكانت تلك في الواقع بمثابة «السوابق»، أو «التجارب» العملية التي نضجت من خلالها «الحملة الصليبية». ومن ناحية أخرى كانت «الحرب المقدسة» مفيدة للنورمان بقدر ما كانت

مفيدة للكنيسة، إذ قام روبرت جويسكارد بغزو شمال صقلية (1061-1072م) تحت راية الحرب المقدسة، فقد أعلن أن هذه الحرب ضد المسلمين وفاء للقسم الذي قطعه على نفسه أمام البابا نيقولا الثاني في ملغى، وبذلك حصل على مباركة البابوية على هذا المشروع.[88]

والمثال الأكثر وضوحا من الحروب النورمانية يتجسد في الحرب ضد المسلمين في الأندلس، والتي وصفها الكثيرون في مصطلحات أقرب إلى الحملات الصليبية، لا سيما غزو بربشتر (Barbastro)(1064 م) الذي ساهم فيه النورمان من ولاية نورمانديا بنصيب كبير.[89] وقد ارتفعت هذه الحملة الكاثوليكية ضد مسلمي الأندلس إلى مستوى «السابقة الصليبية» ؛ بيد أن غياب الدور البابوي النشط هنا ينفي عنها صفة «الحملة الصليبية» الكاملة، إذ إن موافقة البابا الإسكندر الثاني على هذه الحملة وتأييده لها ظل في حدود منح الغفران الجزئي لمن ساهموا فيها. وما حدث في إسبانيا كان «حربا مقدسة»عادية تتسق مع النموذج الذي دعا إليه البابوات والرهبان الكلونيون،[90] لأن الأديرة الكلونية كانت هي الأكثر نشاطا في مجال تسهيل الحرب ضد المسلمين في الأندلس. ومن الواضح أنه كانت هناك رابطة تجمع بين مقاومة المسلمين من ناحية والحملات الصليبية من ناحية أخرى.

وعلى الرغم من هذا إلا أن الحروب ضد المسلمين في إسبانيا لم تكن حروبا صليبية، إذ إن البابوية سمحت فيما بعد للفرسان بالقتال ضد مسلمي الأندلس بدلا من الاشتراك في الحملة الصليبية إلى فلسطين. ولدينا وثيقة صريحة في هذا الشأن. والوثيقة خطاب تاريخه فيما بين يناير 1096م ويوليو 1099م-أي في خضم الحركة التي شكلت لأحداث الحملة الأولى-موجه من البابا إلى بعض أمراء الأسبان يقول فيه:[91] «وإذا كان الفرسان في إقليم آخر قد قرروا جميعا الذهاب لمساعدة الكنيسة الآسيوية، وأن يحرروا إخوانهم من طغيان المسلمين فإنه ينبغي عليكم أيضا، وبتشجيع منا، أن تبذلوا قصارى جهدكم، ولا ينبغي لأحد أن يشك في أن خطاياه سوف تغتفر إذا مات في هذه الحملة حبا في الرب وفي إخوانه، وأنه سوف ينال بالتأكيد نصيبه في الحياة الخالدة بفضل رحمة الرب الواسعة. ولذا فإنه إذا كان أحدكم قد قرر الذهاب إلى آسيا فعليه أن يفي بقسمه هنا، ذلك أنه ليس من الخير في شئ أن ننقذ المسيحيين من المسلمين في مكان

لكي نعرضهم لطغيانهم في مكان آخر».

وعلى الرغم من صراحة هذه الوثيقة في المساواة بين القتال ضد مسلمي الأندلس والمشاركة في الحملة الصليبية. إلا أننا ينبغي أن نضع في اعتبارنا أن هذه الوثيقة قد صدرت بعد أن صارت «الحملة الصليبية» أمرا واقعا، وليس قبل ذلك. ومن ثم فإن «السوابق الصليبية»، التي عرضنا لها، لم تكن في حقيقة أمرها سوى مجرد «حروب مقدسة». بيد أن «الحرب المقدسة» تظل حربا مسيحية، والقول بقدسيتها لا يعفيها من الحدود التي وضعها الفكر المسيحي التقليدي على استخدام العنف. إذ كان لابد لها من توفر الشروط التي تجعلها «حربا عادلة»، أي السبب العادل، والسلطة الشرعية، وسلامة القصد.(92) وبطبيعة الحال، سيكون من العبث أن نفترض أن كل الحملات الصليبية كانت لها أسبابها العادلة-حتى من وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية وأبناء الغرب الأوروبي-كما أن حركة التاريخ لم تكن أبدا محكومة بآراء علماء اللاهوت والقانون الكنسي ؛ فليس ثمة نظرية تصنع الحركة التاريخية. وهذا أمر ستكشف عنه الأحداث نفسها.(93)

وعشية الحروب الصليبية كانت الكنيسة الكاثوليكية قد وصلت إلى موقف جديد تماما من الحرب تبلور في كتابات واحد من أهم أتباع البابا جريجوري السابع، وأكثرهم إخلاصا، وهو «بونيزو سوتري Bonizo de Sutri» الذي كان أول من جمع في كتابه «عن الحياة المسيحية De Vita Christiana» (فيما بين سنة 1090 م وسنة 1095م تقريبا) الآراء المتداولة عن واجبات الفارس المسيحي.(94)

ومن ناحية أخرى كانت في أوروبا عشية الحملة الصليبية الأولى طبقة من الفرسان الإقطاعيات قد تطورت ونضجت عبر أحداث القرون السابقة، وصار لها قانون أخلاقي مشترك عن الحدود السياسية للإقطاعيات والدول. وربما يبدو أن المناقشة حول أصول الحركة الصليبية قد طالت أكثر مما ينبغي، بيد أن هذه المناقشة بحد ذاتها كشفت عن حقيقة لا يرقى الشك إليها ؛ مؤداها أن الحركة الصليبية لم تكن لترى النور إلا بعد أن مهدت الكنيسة الكاثوليكية الأرض بصياغة أيديولوجية الحرب المقدسة من ناحية، وظهور طبقة الفرسان (التي وجه أربان خطابه إليها في كليرمون) بسماتها الإقطاعية المشتركة، ونظامها القيمي والأخلاقي الواحد، وظروفها

الاجتماعية والاقتصادية المتشابهة في سائر أنحاء الغرب الأوروبي، من ناحية أخرى.

وعلى الرغم من كل ما ذكرناه في الصفحات السابقة عن الحج، والحرب المقدسة، وتطور الفكرة الصليبية من منظور تاريخي إلا أنه سيكون من الصعب علينا أن نشرح الدور الكبير الذي لعبه الفرسان في الحركة الصليبية، أو دور العامة من الفلاحين وفقراء المدن، أو حتى دور البابوات والأساقفة وسائر رجال الكنيسة-فضلا عن ملوك أوروبا وأمرائها الكبار-أقول سيكون من الصعب علينا أن نشرح ذلك كله في ضوء الدين والنفسية الجماعية، والاعتزاز بالفروسية... وما إلى ذلك. إذ إن العوامل الاقتصادية، والاجتماعية الفردية، كانت لها أهميتها، وربما كانت أهميتها أكثر من اليوم. وهذا هو موضوع الفصل الثاني.

المراجع

(1) Jonathan Riley-Smith, What were the Crusades?, (London,1977)p.11.

(2) جاء في أنجيل متى (16 : 24)، «إن أراد أحد أن يأتي ورائي، فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني».

(3) بدأت هذه الممارسة عقب خطبة البابا أربان الثاني في كليرمون، إذ أسرع الفرنج « ... بمجرد سماع هذه الكلمات يخيطون الصليب على الكتف الأيمن لعباءاتهم قائلين: إنهم جميعا سوف يقتفون أثر خطوات المسيح...»انظر:

Gesta Francorum et aliorum Hierosolymintonorum; The Deeds of the Franks and other pilgrims to Jerusalem (ed. and. transl. by Rosalibd M Hill, London, 1962), pp.1- 2.

(4) انظر على سبيل المثال:

Fulcher de Chartres, Historia Hierosolymitana; A History of the expedition to Jerusalem 1095- 1127 (transl. by Francis Rita Ryan-with an introduction by H. S. Fink, Knoxville, 1961) pp. 71- 4, and passim; Gesta Francorum, pp. 7- 12; Raymond d'Aguilers, "Historia Fran-corum qui ceperunt Jerusalem", in RHC, Occ., III, passim

(5) راجع عناوين المصادر اللاتينية للحركة الصليبية في

Atiya, A.S., The Crusades, Historiography and Bibliography,(London 1962).

(6) انظر:

The Crusades Motives and Achievements,(edited with an introduction by James A. Brundage, Boston, 1964),pp.1- 3.

حيث أورد الناشر نصا من كتاب فوللر بعنوان:

? The Crusades: What was their justification

انظر أيضا:

H.E. Mayer, The Crusades, (transl. by Gillingham, Oxford, 1972),p 15; Riley-Smith, What were the Crusades,p12

(7) Joseph Bedier et Pierre Aubry (eds.), Les Chansons des Croisades avec leurs melodies, (Paris,1909).

(8) انظر ما يلي عن الحملة الشعبية.

(9) نورمان كانتور؛ التاريخ الوسيط: قصة حضارة-البداية والنهاية (ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم، دار المعارف، 1986)، الطبعة الثانية، جـ 2، ص 391- 392.

(10) ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، (دار التقدم، موسكو، 1986)، ص 5- 9.

(11) Ralph Glaber, Histotiarum Libri Unique: The Five Books of History, Extracts in: The High Middle Ages 1000-1300, edited by: Bryce D. Lyon. 5- 34 (U.S.A. 1964), pp.34-5

انظر الترجمة العربية الكاملة لهذا النص في:

قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية: نصوص ووثائق الحملة الأولى (القاهرة، 1985)، ص 43- 48.

(12) G.G. Coulton, The Medieval Scenes, (Cambridge, 1930), pp.23- 6; Sidney Painter, "Western Europe on the eve of the Crusades", in Setton, (ed.), A History of the Crusades, (The University of Wisconsin Press,1969), I, p .6.

انظر أيضا: قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، (الكويت 1988)، ص 97-100.

(13) Ralph Glaber, op. cit., pp. 36- 9; Alphandery, La Chretiente St 1, idee des croisades-Les Premier Croisades, (Paris, 1954), pp. 24- 6; Thomas Keightley. The Crusades; or scenes, Events and Characters from the times of the Crusade, (London, 1879), pp.27- 8.

(14) هذه إشارة إلى العثور على حربة أثناء حصار إنطاكية زعموا أنها الحربة التي اخترقت جسد المسيح عليه السلام، بعد رواية قصة حلم قسيس مصاحب لريمون دي سانجيل. وقد شك الصليبيون بعد ذلك في كذبه، انظر:

Gesta Francorum, pp. 57; William of Tyre, "A History of the deeds done beyond the sea, (transl. and annonated by: Emily Atwater, Babcock and A. C. Krey, Colombia University Press,(943),I,p.266;pp.289-290.

انظر الترجمة العربية لرواية ريمون الأجويلري عن هذه الحادثة: قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية-نصوص ووثائق، ص 226- 238.

(15) جاء في سفر دانيال الإصحاح الثاني (31-45) تفسير لحلم الملك نبوخذ نصر الذي رأى في منامه تمثالا» رأس هذا التمثال من ذهب جيد، صدره وذراعاه من فضة، بطنه وفخذاه من نحاس، ساقاه من حديد، قدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف» ثم «قطع حجر بغير يدين» هشم التمثال. وقد ربط دانيال بين هذا الحلم ونهاية العالم». وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لن تتعرض أبدا وملكها لا يترك لشعب آخر، وتسحق وتفنى كل هذه الممالك، وهي تثبت إلى الأبد.

وقد ربط الناس بين ما جاء في هذا السفر وما كان يحدث في أيامهم، كما ربطوا أيضا بين رؤيا دانيال عن الوحوش الأربعة في السفر نفسه (الإصحاح السابع)، وما اعتبروه علامة على قرب نهاية العالم.

(16) Baldric de Dol,"Historia Jeroslimitan", RHC, Occ. 'IV, 16- ff.

(17) Mayer, The Crusades, pp.12-13.

(18) Steven Runciman, A History of the Crusades, (Penguin Books 9- 38. 1980), Vol. I, pp.38- 9.

(19) The Itinerary of the Bordeaux Pilgrim in: Palestine Pilgrim, Text Society, Vol. I, (transl. by A. Stewart), London.1896.

وسوف نشير إلى هذه المجموعة اختصارا بالحروف P.P.T.S. وفقا لما هو متبع بين الباحثين.

(20) تعرف هذه السيدة أحيانا باسم (Aetheria)، وأحيانا باسم القديسة سيلفيا الأقطانية، ورحلتها ضمن مجموعة حجاج فلسطين انظر:

. The Pilgrimange of Saint Silvia of Aquitaine, in P.P.T.S., Vol. I, (transl. by J. H. Bernard), London, 1896; cf. Runciman, op. cit., vol. I, p.39.

(21) Runciman, op. cit., vol. I, p.39.

(22) John Wilkinson (ed.), Jerusalem Pilgrims the before Crusades,(England, 1977),P.42.

(23) Alphandery, La Chretiente, pp.20- 22.

(24) Theodosius the Topography of the Land, in Jerusalem Pilgrims,p.79.

(25) Hugebure, Life of St. Willibald, in Jerusalem Pilgrims p.131.

(26) سورة الحج، آية 27 «وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق» ؛ كما جاء في قوله تعالى (سورة البقرة، آية 197) «الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب».

(27) عرفت هذه المذكرة باسم «مفكرة بكنائس القدس»، انظر:

of the Churches of Jerusalem, in: Palestine Pilgrims,pp.138- 139.

ولمزيد من التفاصيل عن حركة الحج حتى القرن العاشر الميلادي انظر:

Runciman, A History of the Crusades, vol. I, pp.39- 44.

(28) Mayer, The Crusades, p.13.

(29) Ibid., pp.26- 28.

(30) Benjamin W. Wheeler, “The Reconquest of Sapin before 1095” in: Setton (ed.) A Hist. of the Crusades, vol. I, pp.33- 4.

انظر أيضا: قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص 36 وما بعدما.

(31) Jerusalem Pilgrims, p.42.

(32) Ibid, p. 43.; Michaud, Histoire des Croisades, (Paris, 1858), I, p.8.

(33) Runciman, Hist. of the Crusades, I, pp.43- 44.

(34) Mayer, The Crusades, pp. 13- 14; Runciman, op. cit., I, pp.45- 46.

(35) Bradford, The Sword of the Scimitar-The Saga of the Crusades (London, 1974), pp. 13-14; Michaud, Histoire de Croisades, I, p.14; Runciman, “The Pilgrimages to Palestine before 1095”, in Setton (ed.) A Hist. of the Crusades, vol. I., pp.74- 75.

أيضا: قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص 38- 39.

(36) Mayer, The Crusades, p. 14; Runciman, A History of the Crusades, vol I, pp. 45- 46; Michuad, Op.cit. I, pp.15- 16.

وقد اتهم فولك بقتل زوجته، وأتهم روبرت (ابن وليم الفاتح) بدس اسم لأخيه.

(37) في سنة 910 م أسس وليم الأول كونت أقطانيا (Count William I d‘Aquitaine) دير كلوني (Cluny) بدلا من الأديرة البندكتية التي كانت قد وصلت إلى حال من الترهل والتردي، وبداية القرن العاشر الميلادي كانت الأديرة الكلونية قد دخلت في علاقات قوية مع البابوية التي شهدت مجموعة من البابوات الإصلاحيين في القرن الحادي عشر الميلادي. وقد اعتبر الكلونيون أنفسهم حماة الضمير المسيحي، كما قاموا بتنظيم رحلات الفرسان الفرنجة عبر جبال البرانس للقتال ضد المسلمين في الأندلس، وأنشأوا عدة تنظيمات وبيوت ضيافة لخدمة حركة الحج إلى فلسطين- انظر:

Brundage, Medieval Canon Law and the Crusades, (The University of Wisconsin, 1969), p. 9; The Sword, pp. 15- 16; Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. I, pp.46- 50.

(38). 174. Ralph Glaber, Historiarum, (in Jerusalem

Pilgrims) p.174.

انظر الترجمة العربية الكاملة للنص: قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص 219-220.

(39) Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. I, pp.49- 50.

(40) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 40- 41.

(41) Alphandery, la Chretiente, pp. 25-26; Runciman, "The Pilgrimages", p.77; Brundage, Med. Canon Law,p.9.

(42) انظر رواية روبير الراهب حيث ينسب إلى البابا أربان قوله:«جنس غريب على الرب تماما قد غزا أرض أولئك المسيحيين وأخضع الناس بالسيف، والتدمير والحريق، كما حمل بعضهم أسرى إلى بلاده، وذبح البعض الآخر بوحشية، وسوى الكنائس بالأرض، لقد أجروا عمليات الختان للمسيحيين، وكانوا يصبون دماء الختان على مذابح الكنائس أو في أواني التعميد. وقد شقوا بطون أولئك الذين اختاروا تعذيبهم بالموت البطيء المثير للاشمئزاز، فينزعون معظم الأعضاء الحية، ثم يربطون ضحاياهم إلى العصي المدببة ويسحبونهم».

Robert of Rheims, "Historiora Ihersolimitana", RHC, Occ. III, pp.727- 730.

انظر النص الكامل لخطبة البابا أربان الثاني في كليرمون لرواية كل من: فوشيه دي شارتر، وروبير الراهب، وجيوبرت دي نوجنت، وبلدريك دي دول، في ترجمتها العربية: قاسم، الحروب الصليبية-نصوص ووثائق، ص 73- 90

(43) Mayer, The Crusades pp.30- 31.

(44) Gesta Francorum, pp.7- 8.

(45) Fulcher de Chartrs, pp.61- 63.

(46) كان أبيلار واحدا من خمسة مفكرين كبار قادوا الفكر والثقافة في غرب أوروبا في القرن الثاني عشر الميلادي، وينسب إليه بعض المؤرخين فضل أكتشافه للشخصية الفردية من جديد بعد أن كانت مفاهيم العصور الوسطى قد طمستها. كما أن مساهماته الفلسفية في مشكلة «الكليات» قد تعتبر نقلة هامة في فلسفة العصور الوسطى انظر: كانتور، التاريخ الوسيط ؛ جـ 2، ص 445-447.

(47) أنظر نص الغفران الذي منحه مجمع كليرمون للصليبيين:

Louis and Jonathan Riley-Smith, (eds.), The Crusades, pp.37- 38.

(48) Mayer, The Crusades, pp.35- 36.

(49) تولى هذا البابا الكرسي البابوي فترة قصيرة لا تزيد على ثمانية أسابيع في سنة 1187م حاول أثناءها أن يصلح من شأن الكنيسة ولكنه فشل، راجع:

Geoffrey Barraclough, The Medieval Papacy, (London, 1968), p.110.

(50) Mayer, The Crusades, p.37.

(51) عن تفاصيل هذه الأحداث انظر:

Virginia G. Berry, "The Second Crusade", in Setton (ed.), A Hist. of the Crusades, I, pp.463- 511.

وعن برنار رئيس دير كليرفو ودوره في الحياة السياسية والدينية في أوروبا القرن الثاني عشر الميلادي أنظر: نورمان كانتور، التاريخ الوسيط، ص 456-461.

(52) Mayer, The Crusades, p.37.

(53) Virginia G. Berry, "The Second Crusades," pp.466- 467.

(54) Mayer, The Crusades, p.37- 38.

(55) القصيدة عنوانها:

أنتم يا من تجون حبا حقيقيا (Vous qui aime de vraie amour) في الفرنسية الكلاسيكية-انظر:

Bedier et Aubry, Les Chansons des Croisades, pp 20- 22.

انظر ترجمة كاملة لهذه القصيدة. قاسم، الخلفية الأيدلوجية، ص 227- 228.

(56) Mayer, The Crusades, p.38.

(57) Riley-Smith What were the Crusades?, p.14.

(58) Riley-Smith, What were the Crusades?, p.14.

(59) Ronald C. Finucane, Soldiers of the Faith—Crusades and Moslems at War, (New York, 1983), pp.47- 48.

(60) Riley-Smith, op. cit., pp.14- 15.

(61) ورد على لسان المسيح عليه السلام (متى 26: 52) «... لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون، كما ورد على لسانه أيضا (متى 5: 38- 39) «سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر، بل س لطمك على خدك الأيمن، فحول له الآخر أيضاً». وقد ورد على لسان بولس الرسول ««لا تجازوا أحدا عن شر بشر، معتنين بأمور حسنة قدام جميع الناس. لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء، بل أعطوا مكانا للغضب... لا يغلبنك الشر، بل اغلب الشر بالخير.» (رسائل بولس الرسول إلى أهل رومية (17:12-21).

(62) كان من رأي القديس «باسل القبادوقي»، أعظم مشرعي الكنيسة البيزنطية، أن الشهيد هو فقط من يموت متسلحا بالإيمان وليس من يقتل في الحرب ضد الأعداء، بل إن باسيل يوصي الجندي الذي قتل عدوه في الحرب أن يكفر عن ذنبه بالابتعاد ثلاث سنوات عن الجماعة المسيحية. وفي رأي البعض أن البيزنطيين كانوا باستمرار يفضلون الدبلوماسية على الحرب انظر:

J.J. Sauders, Aspects of the Crusades (university of Canterbury, 1962), pp;17-18; Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. I, 83.

انظر أيضا: قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص 15- 16.

(63) Robert S. Hoyt and Stanley Chodorow, Europe in the Middle Ages, (3rd ed., U.S.A. 1976), pp.55-83.

(64) تتجسد قيم الجرمان العسكرية في هذه الفترة الباكرة في ملحمة بيوفولف (Beowulf) وهي ملحمة أنجلو-سكسونية دونها كاتب مسيحي سكسوني في القرن الثامن الميلادي، ويبدو أنها كانت متداولة بالرواية الشفوية قبل ذلك بعدة قرون وقد تأكد الوجود التاريخي لاثنين أو ثلاثة من شخصيات هذه الملحمة. وتصور هذه الملحمة قيم الشجاعة العسكرية والسيادة الحربية، وعصبة الحرب انظر:

Beowulf, (transl. C. B. Tinker, New York, 1902), pp.120- 137. ;Vernon J. Bourk (ed.), The Essential Augustine, (USA, 1964), passim ; E. K. Rand, Founders of the Middle Ages, (Dover, New York,1957), pp. 251- 284; Norman F. Cantor (ed.), The Medieval World 300-1300, (USA, 1968), pp.44- 46.

(65) Frederick H. Russell, The Just War in the Middle Ages, (Cambridge University Press, 1973), pp.21- 22.

Brundage Medieval Canon Law, p.19.

(66) Mayer, The Crusades, pp.15- 16.

(67) Russell, The Just War, p.2.

(68) Runciman, A Hist. of the Crusades, I, p. 84; Mayer, The Crusades, p.16; Brundage, "Holy War", p. 104; Baraclough, Med. Papacy, pp.58- 60.

(69) Mayer, op. cit., pp.16- 17.

(70) Brundage, Med. Canon Law, pp. 23- 24; Riley-Smith, What were the Crusades, pp.21- 28.

(71) كان القديس بولس يقصد بهذه العبارة الحرب المعنوية ضد الشر المعنوي، ويتسلح لها المسيحي بإنجيل السلام، وجنودها الرهبان والشهداء، وهو على النقيض تماما من الحرب الخاطئة التي تستخدم فيها أسلحة مادية في حرب دنيوية. انظر:

Cawdrey, "The Genesis of the Crusades", p. 19; Brundage, op. cit., p. 104.

(72)Archives de l'Orient Latin, (Publiecs sous la Patronange de la societe de l'Orient Latin, Paris 1881), I, pp.56- 68.

وقد ناقشها الكونت ريان (Comte Riant) مناقشة واسعة، انظر:

Rian, "Inventaire critique des letters historiques des Croisades", en AOL,I,pp.1- 195.

(73) انظر الفصل الثاني من هذه الدراسة.

(74) Brundage, Med. Canon Law, p.28.

(75) في رواية فوشيه الشارتري عن خطبة البابا أنه قال: «لست أنا ولكن الرب هو الذي يحثكم، باعتباركم قساوسة المسيح، أن تحضوا الناس من شتى الطبقات، بأن يسارعوا لاستئصال شأفة هذا الجنس الشرير من أرضنا، وأن تساعدوا السكان المسيحيين، قبل الأوان...» (Fulcher de Chartres, p.63). وفي رواية جيوبرت النوجنتي نسب إلى البابا قوله: «يجب أن تقوموا بأكبر جهد لتؤكدوا أن قداسة المدينة ومجد ضريحه سوف تحرر من نير الأميين...» (Guibert de Nogent, pp.137- 8). انظر الترجمة الكاملة لنصوص خطبة البالا في: قاسم، الحروب الصليبية، ص 83-89.

(76) كانت دعوة أجينيوس بمناسبة سقوط الرها سنة 1144م في أيدي قوات عماد الدين زنكي. وقد نقل الحجاج والمسافرون القادمون من الشرق الأخبار إلى غرب أوربا، كما جاء عدد من الأساقفة الأرمن للتشاور مع البابا حول اتحاد الكنيسة الرومانية الكنيسة الأرمينية، وقد وجه البابا خطابه هذا إلى «ابنه العزيز لويس (السابع ملك فرنسا)، وأبنائه الأمراء الأعزاء، وكل المؤمنين المخلصين في أنحاء بلاد الفال، انظر:

Virginia G. Berry, "The Second Crusades", pp.467- 8 Riley-Smith What were the Crusades?, p.25.

(77) عن فتح القدس، انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية-سيرة صلاح الدين، العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي. انظر أيضا:

Runciman, A Hist., II, pp.464-6.

انظر الفصل الثالث لمزيد من التفاصيل.

(78) Mayer, The Crusades, p. 16; Riley-Smith, What were the Crusades?, pp.25- 26.

(79) انظر نص هذه الوثيقة في:

Brian Tierney (ed.), The Middle Ages, vol. I: Sources of Medieval History, (3rd ed. New York,

1978),p.136.

انظر نص الترجمة العربية لهذه الوثيقة في: قاسم، الحروب الصليبية-نصوص ووثائق، ص 66.

(80) Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. I, p.85.

(81) Brien Tierney (ed.), op. cit., vol. I, pp.136- 136.

انظر أيضا، قاسم، المصدر السابق، ص 67- 68.

(82) Norman F. Cantor (ed.) Med World., pp.183- 186.

(83) Mayer, The Crusades, p. 17; The Just War, p. 34; Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. I. pp 85- 86.

انظر أيضا: قاسم، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ص 51- 52.

(84) عن حركة الإصلاح البابوية، انظر:

Geoffrey Barraclough, The Medieval Papcy, pp. 63- R. W Southern, The Making of the 117, Middle Ages, (London, 1973), pp.130- 148.

نورمان كانتور، التاريخ الوسيط، جـ 2، ص 335-342.

(85) Mayer, op. cit p 19 Brundage, Med. Canon Law, 22-2; Barraclough, op. cit., pp.73- 4.

(86) يقول نص الغفران الذي منحه أربان: «إن من يذهب إلى أورشليم، بدافع من الإخلاص فقط، وليس طلبا للشرف أو المال، لتحرير كنيسة الرب، يمكن أن يجعل هذه الرحلة بديلا من أي عمل يكفر به عن خطاياه:

R. Somerville, The Councils of Urban II, Decreta Cleromontensia Amesterdam 1972), p. 74; Riley-Smith. (ed.) The Crusades, p37.

(87) Mayer, The Crusades, p.19.

(88) عن غزو النورمان لصقلية انظر:

Robert S. Lopaz, :The Norman Conquest of Sicily: in Setton (ed.), A History of the Crusades, I, pp.54-67.

(89) كان جيش المسيحيين في هذه المعركة خليطا من الأوروبيين، إذ جمع بين الكتلان والأرغونيين، والنورمان، والأقطانيين، والبرجنديين وقد شن هذا الجيش هجوما ناجحا ضد المعقل الإسلامي الحصين في بربشتر، ونهبوا المدينة عن آخرها، ولكن المسلمين استردوها في العام التالي 1065م- انظر:

W. Wheeler, “The Reconquest of Spain before,. 39- 38 in Setton, 1095” I, pp38-39

(90) Mayer, The Crusades, pp.20- 21.

(91) Riley-Smith (eds.), The Crusades-Idea and Reality, p.40.

انظر الترجمة العربية الكاملة للنص: قاسم، الحروب الصليبية-نصوص ووثائق، ص 89-90.

(92) Riley-Smith, What were the Crusades?. P.17.

(93) انظر الفصل الثالث من هذه الدراسة.

(94) Mayer, The Crusades, p.20.

2 الظروف التاريخية والدوافع

أحوال أوروبا القرن الحادي عشر الميلادي (الأحوال الاقتصادية والاجتماعية-الأحوال السياسية)-دوافع الفرسان-دوافع الكنيسة-أوضاع بيزنطة العسكرية والسياسية (مانزكرت وما بعدها-الاتصالات البيزنطية مع أوروبا الغربية)-الأوضاع السياسية والعسكرية في المنطقة العربية عشية الحروب الصليبية.

كانت الحركة الصليبية انعطافا خطيرا في تاريخ الغرب الأوروبي. إذ كانت الحملات الصليبية التي دارت على نطاق واسع ؛ سواء من حيث مجالها الجغرافي، أو إطارها الزمني، أو أعداد الذين شاركوا فيها، أول حرب يخوضها الأوروبيون تحت راية أيديولوجية بعينها. وعلى الرغم من الإفلاس الأيديولوجي الذي تجلى منذ البداية في خضم أحداث الحملة الصليبية الأولى إلا أن القوى الاجتماعية في الغرب الأوروبي قد اعتنقت هذه الأيديولوجية الصليبية وفق تفسيرها الخاص الذي يناسب مصالحها.

ولما كانت الحركة الصليبية، في التحليل الأخير، إفرازا للتفاعل بين الكنيسة والإقطاع فإنها كانت تسعى بالضرورة إلى تحقيق الأهداف الكنسية التي

كانت البابوية قد بلورتها من خلال نزاعها مع الإمبراطورية ؛ وهي أهداف كانت تتركز أساسا حول السيادة المطلقة للبابا على العالم المسيحي. كما أن الحركة الصليبية كانت، من ناحية أخرى، محاولة لتحقيق أهداف الناس العلمانيين الذين خضعوا للتنظيم الإقطاعي، سواء كانوا من النبلاء وفرسانهم، أو من الفلاحين. لقد كان الفرسان يتوقون إلى توسيع سلطانهم، وأملاكهم. ولم يكن هذا ممكنا دون الصدام مع الملكية. وبينما كانت البابوية تحارب ضد الملكية من أجل السيادة والسمو، كان النبلاء الإقطاعيون يتطلعون إلى بناء سلطتهم الإقليمية على حساب الملكية، ولعل هذا هو ما جعل البابا أربان الثاني يوجه خطابه إلى الفرسان الفرنسيين بالذات، لأن فرنسا كانت لا تزال الدولة الإقطاعية الوحيدة آنذاك.

أما البورجوازية الناشئة، ممثلة في القوى التجارية الإيطالية على وجه الخصوص، فقد رأت في المشروع الصليبي فرصة هائلة للسيطرة على تجارة البحر المتوسط وتجارة العالم. ولهذا سارعت بالانضمام للمشروع بعد أن صار حقيقة واقعة.

بيد أن هذه الدوافع التي حركت مختلف القوى الأوروبية لشن حملتها الصليبية التي كانت «مشروع العصر» بالنسبة للكثيرين، كانت محكومة بالأحوال والظروف التاريخية السائدة في الغرب الأوروبي من ناحية، وفي الإمبراطورية البيزنطية والعالم العربي من ناحية أخرى. وربما يكون مفيدا أن نلقي نظرة شاملة على أحوال أوروبا الغربية عشية الحروب الصليبية، قبل مناقشة دوافع المجتمع الغربي لشن الحرب تحت راية الصليب.

كانت أوروبا حتى القرن الحادي عشر الميلادي لا تزال مجرد منطقة جغرافية لم تتشكل بعد على المستوى السياسي، كما أنها كانت مجرد منطقة ريفية متخلفة بالقياس إلى كل من العالم البيزنطي والعالم العربي الإسلامي. فقد وصلت كل من الحضارة البيزنطية والحضارة العربية الإسلامية إلى قمتها، وبدأت بيزنطة منذ القرن الحادي عشر الميلادي تعاني مظاهر التآكل البطيء والضعف الناجم عن الصراع الداخلي، والهزيمة الخارجية الفادحة على يد المسلمين في مانزكرت (أو ملاذكرد) سنة ١٠٧١ م. أما العالم العربي الإسلامي فكان يعاني التشرذم والضعف السياسي، على الرغم من أنه كان لا يزال يحتفظ بإمكاناته العسكرية والبشرية، وثرواته

الأسطورية، وعلى الرغم من أن الزمان كان لا يزال يحتفظ له ببعض من أعظم إنجازاته العسكرية والفكرية.

وقد كان القرن الحادي عشر الميلادي بالنسبة للغرب الأوروبي بداية فترة امتدت ثلاثة قرون تمثل مرحلة الإبداع في تاريخ العصور الوسطى. وخلال تلك الفترة كانت المؤسسات السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية، التي أخذت تتشكل منذ القرن السادس الميلادي، قد رسخت بحيث كانت الأساس الذي قامت عليه الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى. ولعل هذا ما جعل المؤرخين الأوروبيين المتخصصين في دراسة تاريخ العصور الوسطى يطلقون على تلك الفترة اسم «العصور الوسطى الناضجة» أو العالية The High Middle Ages.[1]

لقد شهد القرن الحادي عشر الميلادي من وجهة نظر الغرب قادة كبارا وزعماء بارزين، مثل وليم الفاتح ملك إنجلترا، والإمبراطور هنري الثالث وابنه هنري الرابع، وروجر الأول النورماني حاكم صقلية، وروبرت جويسكارد الذي كان ابنه بوهيموند من أبرز زعماء الحملة الصليبية الأولى، وألفونسو السادس ملك قشتاله. وقد كان أولئك جميعا من الحكام الجنود الذين كانوا يبحثون عن السلطة والنظام والكفاءة يمثلون الغدر والطموح والتعصب من وجهة النظر الشرقية. كما عاشت في القرن الحادي عشر الميلادي معظم البابوات الإصلاحيين، وأبرزهم جريجوري السابع (الشيطان المقدس) الذي رغب في تحقيق السمو البابوي، وكان خليفته أربان الثاني صاحب الدعوة إلى الحملة الصليبية. وكانت الكنيسة قد مرت بأهم عملية إصلاحية تحت زعامة أولئك الذين تربوا في الأديرة الكلونية. أما الفلاحون المتعبون الذين كانوا يزيلون الغابات، ويزرعون أرضها بالمحاصيل التي تحتاجها أوروبا، وبحارة جنوه وبيزا الذين طردوا المسلمين من شواطئ أوروبا، فلابد من أنهم كانوا مدفوعين بروح الحيوية الدافقة والحماسة الجسورة التي ميزت حركة التاريخ الأوروبي في القرن الحادي عشر الميلادي.

ومن ناحية أخرى كانت ثمة تغيرات اجتماعية وتكنولوجية تجرى في تلك الفترة. ولا شئ يكشف عن تأثير هذه التغيرات في غرب أوروبا أفضل من أن نلاحظ أن الناس كانوا يبحثون لأنفسهم عن حياة أفضل. فقد أخذ الناس يسافرون إلى مناطق الحدود، وما وراء البحار بحثا عن فرص أحسن،

وأملا في تحقيق طموحاتهم.[2] وباختصار كان التوسع والتنظيم أهم سمات القرن الحادي عشر الميلادي.[3] لقد أخذت أوروبا توقن بأن طاقتها الحضارية النامية أكبر من أن تستوعبها أراضيها الضيقة، فأخذت تسعى لإيجاد منافذ خارجية لها. وقد كان هذا هو أهم أسباب التوسع الذي شمل جبهات عديدة، كما بدأت أوروبا تفيد من عقول أبنائها في التنظيم، وكان لا يزال بدائيا. وقد كانت الحملات الصليبية جزءا من التوسع الأوروبي، ولم يكن ممكنا القيام بهذه الحملات دون وجود المقدرة على تنظيمها.

كان الطابع الريفي هو الغالب على أوروبا القرن الحادي عشر الميلادي، وقد توزع سكان أوروبا بين نموذجين رئيسين للاستقرار: «البلدة Hamlet» التي كانت عبارة عن عدد قليل من أكواخ الفلاحين وبيوتهم المكدسة قرب مساحة الأرض التي يتولون زراعتها، وقد خلت هذه البلدة من أي كنيسة. وفي اسكتلندة، وويلز، وأيرلندة، وبريتاني، وأقاليم فرنسا الجبلية كان نمط البلدة هو السائد.[4] أما بقية مناطق أوروبا فقد كانت القرية تمثل النمط السائد فيها لمراكز الاستقرار السكاني. وفي القرية عادة ما كانت توجد كنيسة، وبيت صاحب الإقطاع، أو قلعته، ثم بيوت الفلاحين التي بنيت من الطين وأغصان الأشجار. وحول القرية زمامها من الأرض الزراعية والمراعي، ثم منطقة البراري والغابات. وعلى حواف الحقول، التي تمثل زمام القرية من الأرض الزراعية، كان الفلاحون يحرقون الأعشاب من آن لآخر لكي يزرعوا محصولا أو أثنين في الأرض التي خصبها الرماد الناتج عن الحرق.

وعلى الرغم من أننا نعرف بعض المعلومات عن تحسن الزراعة وأساليبها في القرن الحادي عشر الميلادي إلا أننا لا نعرف إلى أي مدى تحسنت وسائل الزراعة على وجه الدقة. لقد كان اختراع الطواحين الهوائية من أسباب تسهيل زراعة الغلال، كما أن عمليات إزالة الغابات واستصلاح الأرض كانت تجري في كل مكان في غرب أوروبا. وكانت الأخشاب الناتجة من قطع الأشجار تستخدم في بناء المساكن والقلاع والكنائس في مناطق الريف والحضر على حد سواء، كما أن الفلاحين غيروا من نظام الزراعة في شريطين أو ثلاثة بسبب الابتكار الذي غير شكل المحراث الجرماني القديم الذي كان يفرض أن يكون حرث الحقول بشكل مستقيم على هيئة شريطين أو ثلاثة، فتحسن الإنتاج.[5]

لقد أدت محاولات استصلاح الأرض على حساب الغابات والمستنقعات إلى زيادة الإنتاج الزراعي، وعلى الرغم من ضآلة معلوماتنا عن اقتصاديات الزراعة في غرب أوروبا آنذاك إلا أنه يبدو أن القرية كانت قادرة، مع قلة إمكاناتها، على أن تعول الناس الذين عانوا من قسوة الطبيعة والقانون الإقطاعي على السواء[6] ولا ينبغي أن نبالغ في قيمة عمليات النمو الزراعية ؛ لأن التحسن النسبي الذي طرأ على مجال الزراعة في أوروبا القرن الحادي عشر الميلادي لم يؤد إلى تحسين أحوال الفلاحين المعيشية، وإنما أدى إلى زيادة موارد السادة الإقطاعيين المادية والبشرية.[7]

كان الناس في أوروبا العصور الوسطى تحت رحمة الطبيعة إلى حد بعيد، إذ كانت الأرض المزروعة في القرن الحادي عشر الميلادي لا تزال ضئيلة المساحة بالقياس إلى مناطق البراري والغابات والأرض البور، وكانت كل هذه المساحات مرتعا حرا للدببة والذئاب وغيرها. ولم يكن غريبا أن تدخل هذه الحيوانات إلى القرى، أو تجوس في الحقول المزروعة. وفي كوخ حقير كان يعيش القروي حياة أدق من حيوان الحقل الذي يهتم به. أما طعامه فكان فقيرا وبسيطا من إنتاج حقله، وملابسه مصنوعة من جلود حيواناته، أومن صوف أغنامه.[8] وكان يومه شاقا مضنيا يقضيه في أعمال كثيرة متنوعة بحيث يأوي إلى فراشه الحقير في المساء وقد هده التعب.[9]

ولم يكن الفلاح الأوروبي يأكل اللحم الطازج سوى مرة واحدة في أعياد الميلاد، ثم يحتفظ بالباقي مقددا ومملحا ليأكل منه طوال العام. ولكنه في كل الأحوال لم يكن ليأمن على نفسه من غائلة المجاعة. فبسبب التكلفة الباهظة لوسائل النقل في ذلك الزمان كان تدهور المحصول المحلي في أي إقليم مؤشرا على حدوث المجاعة[10]

وكانت السنوات العشر التي سبقت الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى سنة 1095م سنوات صعبة بالفعل على سكان أوروبا ولا سيما في شمال فرنسا وغرب ألمانيا. إذ شهدت تلك السنوات سلسلة تكاد تكون متصلة من الفيضانات والمجاعة. ومنذ سنة 1089م كان الرعب يتملك السكان في تلك المناطق من ذلك الوباء الغامض الذي كان يضرب فجأة إحدى القرى، أو المدن، فلا يتركها إلا وقد حصد أغلبية سكانها بمنجل الموت والعذاب البطيء. ومن الطبيعي أن يكون رد فعل الناس في إطار رد الفعل الجماهيري

المعتاد، أي التعلق بأهداب الدين، أو محاولة التكفير عن الذنوب، والتجمع حول الزاهدين والنساك بحثا عن الخلاص. ولذا راقت الدعوة التي وجهها البابا لشن حملة صليبية ضد المسلمين في عيون الفلاحين الفقراء، ورأوا فيها نبوءة Prophetae تعدهم بالخلاص.[11]

وبالنسبة لمعظم سكان الغرب الأوروبي في القرن الحادي عشر الميلادي كانت القرية هي الوحدة الأساسية، اقتصاديا، وسياسيا، واجتماعيا، وعلى المستوى الديني أيضا، إذ إن التقسيم الإقطاعي فرض نوعا من الاقتصاد الطبيعي جعل الفلاحين في كل قرية يحاولون تحقيق الاكتفاء الذاتي في حدود ما تنتجه القرية. وفي أعياد القديسين الذين يبجلهم أهل القرية (وهم تعبير عن عبادة قوى الطبيعة على نحو أو آخر، ولم تعترف الكنيسة بأولئك القديسين الريفيين أبدا) كان القروي يجد المتعة والتسلية. وكان قساوسة الأبرشيات الريفية يقدمون للسكان الفلاحين معلوماتهم المشوشة عن المسيحية، وأفكارهم الضيقة عن العالم. ولما كان القسيس الأبرشي أميا في أغلب الأحوال فإن لنا أن نتصور طبيعة ما كان يقدمه من خدمات للفلاحين المساكين، وما ينتج من هذه الخدمات الجاهلة المقدمة من قسيس جاهل من تعصب وتزمت مقيت. لقد كان القرويون يجمعون بين التدين العاطفي والإيمان بالخرافات والمعجزات. وكان سكان كل قرية يعتقدون بأن الينابيع والمجاري المائية والأشجار التي تحيط بقريتهم تضم بعض الأرواح التي يمكنها إتيان المعجزات.[12]

وقد اختلف الوضع القانوني للفلاحين، والجزء الذي يمكنهم الاحتفاظ به من محصول الأرض الزراعية، اختلافا بينا من قرية لأخرى. ففي الربع الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي كان كل رجل يعمل في أرض زراعية، في إنجلترا وفرنسا وغرب ألمانيا، مقيدا بالتزامات إقطاعية تجاه أحد السادة الإقطاعيين ؛ إما إيجارا وإما خدمة.[13] وفي بعض المناطق الريفية، مثل شرق ألمانيا وبعض أقاليم فرنسا، كان يوجد فلاحون أحرار، ولكن أولئك كانوا في سبيلهم لأن يتحولوا إلى أقنان. ولم يتم هذا التحول على أي حال سوى بعد القرن الحادي عشر الميلادي. ولدينا وثيقة هامة يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الحادي الميلادي عشر تصف لنا عملية تحول فلاح حر إلى قن من عبيد الأرض. والوثيقة التي حفظها رهبان دير

«مورموتييه «Marmoutier في ضواحي «تور Tours» نموذج لكثير من الوثائق التي تكشف عن تحول أعداد متزايدة إلى أقنان خاضعين للأديرة والكاتدرائيات، فضلا عن السادة العلمانيين. يقول نص الوثيقة:[14] «...ليكن معلوما، لكل من يجيئون بعدنا، أن رجلا في خدمتنا يدعى وليم، شقيق رينالد، الذي ولد لأبوين من الأحرار، قد تحرك مدفوعا بحب الرب صوب غاية سوف يحسبها له الرب حسنة. إذ وهب نفسه قنا للقديس مارتن في «مورموتييه»، ولم يكتف بأن يهب نفسه فقط ؛ بل وهب جميع ذريته من بعده لكي يظلوا إلى الأبد في خدمة رئيس الدير والرهبان في هذا المكان بشروط واضحة. ولكي يتم التأكيد على هذه الهبة وتوضيحها وضع حول رقبته حبلا، كما وضع أربع قطع من النقود على مذبح القديس مارتن اعترافا بالقنانة، وكرس نفسه للرب العظيم. وقد رأى ما حدث، وشهد عليه أولئك الآتية أسماؤهم...».

لقد كان تحول الفلاح الحر إلى قن عملية تجرى بمعدلات متصاعدة في كافة أنحاء أوروبا، ولم تقف الكنيسة ضدها بل أفادت منها بصفتها أكبر ملاك الأرض الزراعية في الغرب الأوروبي حتى ذلك الحين. فقد كانت الهبات التي أغدقها الحكام والنبلاء على الكنائس والأديرة قد جعلتها تمتلك مساحات زراعية شاسعة ؛ ومن ثم كان لابد من أن توفر لها من يزرعونها، وقد كانت عملية تحويل الفلاحين إلى أقنان، تحت ذريعة حب الرب، أكثر الوسائل فعالية لضمان قوة العمل اللازمة لزراعة أملاك الكنائس والأديرة.

لقد كان الأقنان يشكلون قطاعا هاما من سكان الريف الأوروبي عشية الحملة الأولى. وكان أولئك الأقنان يحتلون مكانة في البناء الاجتماعي بين الفلاحين الأحرار من ناحية، وعبيد الأرض من الأرقاء من ناحية أخرى. ولم تكن أعدادهم، أو نسبتهم متساوية في كل أنحاء أوروبا ؛ ففي إنجلترا كان عدد الأقنان كبيرا، على حين كان عدد عبيد الأرض كبيرا في جنوب فرنسا وإسبانيا[15] وفي بقية مناطق فرنسا وفي الألزاس واللورين كانت الأغلبية من الفلاحين أقنانا دون أن تكون لهم حقوق تجاه سادتهم الإقطاعيين. وفي ظل تلك الظروف نجد أن الكثيرين ممن ولدوا في الشطر الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي قد وقعوا في أغلال القنانة، لأن

واحدا من أسلافهم المجهولين قد أجبر على التخلي عن حريته.

وكانت العلاقة بين السيد الإقطاعي تشبه علاقة كل منهما بالطبيعة في تلك العصور. فالسيد بالنسبة للقن يمكن أن يكون صديقا كما يحتمل أن يكون عدوا، لكن القن يراه ضروريا لاستمرار حياته في كل الأحوال. لقد كان كل أمر من أمور الحياة اليومية للأقنان مرتبطا بأسيادهم الإقطاعيين ومعتمدا على سلوكهم. وكان القن مربوطا إلى الأرض لا يمكنه الرحيل عنها، كما لا يستطيع أن يستبدل سادته، إلا بارتكاب جريمة، أو المغامرة بالهروب، أو بشراء حريته بالمال (إذا قبل سيده بيعها). أما في شرق إنجلترا وشمالها فربما كان أكثر من نصف الفلاحين أحرارا.[16] بيد أن أحوال الفلاحين عموما، سواء كانوا من الأحرار، أو الأقنان، أو الأرقاء، كانت عابسة كئيبة مثل الليالي الموحشة التي كانت تلف قراهم بالبرد والظلام.

لقد كان النظام الإقطاعي مجموعة من المؤسسات يسرت للطبقة الإقطاعية، بجناحيها من الفرسان والقساوسة، أن تعيش من ناتج عمل الفلاحات. ففي معظم المناطق الريفية كان الفلاحون الأقنان يجنون المحصول لكي يضعوه في مخازن السيد الإقطاعي، إذ كان صاحب الإقطاع يعتبر نفسه مالكا للموارد العامة للقرية، وأن من حقه أن يعهد للفلاحين باستخدامها فقط، دون حيازتها. فقد كان على الفلاح أن يقدم عددا من الخنازير لسيده الإقطاعي إذا أراد أن ترعى خنازيره في الغابة الملاصقة للقرية، كما كان عليه أن يقدم الزبد مقابل أن يترك أبقاره في المراعي المحيطة بالحقول، وإذا صاد القروي بعض الأسماك من المجاري المائية، أو البحيرات الواقعة داخل نطاق الإقطاع يكون للسيد الإقطاعي حق الحصول على نصيب من حصيلة الصيد. وباختصار، كان السيد الإقطاعي يعتمد على ما ينتجه الفلاحون في طعامه، كما كان يعتمد على قوة سواعدهم في بناء بيته، أو قلعته، وفي ملابسه أيضا.[17] وفي المقابل كان الأقنان الخاضعون للسيد الإقطاعي لا يتمتعون بأي حقوق مدنية تجاهه.

وفضلا عن هذه الواجبات والخدمات التي ألزم بها الفلاحون تجاه السيد الإقطاعي، كانت له، أيضا، حقوق سياسية عليهم. ذلك أنه نتيجة تدهور سلطة الدولة المركزية بسبب ضعف الحكام الكارولنجيين الأواخر، وعدم قدرتهم على السيطرة على الدوقات والكونتات، اغتصب هؤلاء السلطة

الملكية في دوقياتهم وكونتاتهم وحولوها إلى قطاعات وراثية. وتضمنت السيادة على الضياع الإقطاعية السيطرة السياسية والقضائية على الفلاحين في تلك الإقطاعيات. فقد تمكنوا منذ القرن التاسع الميلادي، في فرنسا، من انتزاع حق جمع الضرائب، وعقد المحاكمات في القضايا الهامة.[18] وعلى الرغم من أن الأمراء الإقطاعيين ظلوا يمارسون هذه الصلاحيات باعتبارهم ممثلين للملك إلا أن الطبيعة الوراثية للإقطاع الأوروبي جعلت النبلاء الأوروبيين يعتقدون، بعد مرور الزمن، أن هذه الصلاحيات السياسية لهم دون سواهم.[19] وقد اختلف مدى السلطة السياسية للسادة الإقطاعيين على فلاحيهم أن مكان لآخر داخل أوروبا. ففي إنجلترا كانت قبضة الملك لا تزال قوية في القرن الحادي عشر الميلادي، وكان له حق الفصل في الجرائم الكبرى، ولم يكن للنبلاء غير سلطات تشبه سلطات أقسام الشرطة حاليا، وكذلك كان الحال في نورماندي[20] ولكن في معظم أنحاء فرنسا وغرب ألمانيا كان السيد الإقطاعي يتمتع بسلطات قوية في منطقته، وكانت تلك السلطات مصدر ربح وفير له، إذ كان بوسعه أن يعقد الأسواق الموسمية في قريته، ويفرض الضرائب عليها، كما يفرض رسوم عبور الجسر أو الإيجار في المجرى المائي داخل منطقته.[21]

وهكذا كان الفلاحون فريسة للخوف الدائم، والاضطراب المستمر، والافتقار للأمن. لقد كانت أيامهم تمضي كئيبة في انتظار مستقبل لا يجئ، وقد وقعوا تحت وطأة الطبيعة التي كانت تقذفهم بنقص المحاصيل والمجاعات والأوبئة بين الحين والآخر، كما وقعوا تحت وطأة سادتهم الإقطاعيين الذين ساموهم سوء العذاب، كما جعلوهم وقودا لحروبهم الإقطاعية. ومن ناحية أخرى، كان الفلاحون الذين لبوا نداء أربان الثاني في كليرمون قد تشبعوا منذ زمن طويل بأفكار الوعاظ الجوالين.[22] وفهموا دعوة البابا على أنها فرصة للخلاص الدنيوي والأخروي أيضا. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يتجسد فيها التعصب الديني للطبقات الدنيا في المجتمع الغربي الكاثوليكي، وكان ذلك التعصب موجها ضد أصحاب الديانات الأخرى، كما كان ثورة ضد الأوضاع الاجتماعية المحبطة في الوقت نفسه.

وهكذا كانت الأوضاع الاجتماعية المحبطة، والجو الفكري المشبع بالخرافات والتدين العاطفي والتعصب من أهم الدوافع التي حركت المقهورين

من أبناء الغرب الأوروبي في القرن الحادي عشر الميلادي إلى المشاركة في الحملة الصليبية. وكانت هذه الحملة تعني بالنسبة للفلاحين وعامة سكان المدن الذين ساهموا فيها شيئا يختلف عما قصده البابا. ذلك أن الفقراء (pauperes)، كما تسميهم المصادر التاريخية لتلك الفترة، كانوا يرون فيها أملا لتحسين أحوالهم وخلاص أرواحهم.[23] لقد كان البابا يوجه خطابه إلى الفرسان من أبناء الطبقة الإقطاعية، ولم يخطر بباله أن تسارع جماهير المحرومين إلى الخروج في الحملة التي أرادها البابا أداة لتحقيق أهدافه السياسية في الداخل والخارج، وأدرك البابا خطورة خروج العامة فأعلن أنهم يمكن أن يكونوا عقبة، وبذل بعض الجهد لمنعهم، ولدينا وثيقتان عبارة عن خطابين من البابا: أحدهما بتاريخ 15 سبتمبر 1096م موجه إلى أتباعه في بولوني يذكر فيه: «ولكننا لا نسمح للرهبان أو القساوسة بالذهاب دون إذن... كذلك يجب على الأساقفة أن يحرصوا على عدم السماح لرعايا أبرشياتهم بالذهاب دون نصيحة وبغير علم القساوسة المسبق، كما ينبغي عدم ترك الشباب المتزوجين حديثا يذهبون في رحلة طويلة على هذا النحو دون موافقة زوجاتهم...».[24] وفي الخطاب الثاني (7 أكتوبر 1096 م) يقرر أن العامة الراغبين في الذهاب إلى القدس «... أشخاص غير مناسبين، لأننا كنا نستفز أذهان الفرسان للذهاب في هذه الحملة، لأنهم قد يستطيعون كبح وحشية المسلمين، ويعيدون للمسيحيين حريتهم...»[25] لقد كان أربان يريد استبعاد غير المحاربين من مشروعه الكبير.

ولكن دوافع الفقراء للذهاب في هذه الحملة كانت أعنف من أن تكبحها مثل هذه الإجراءات البابوية.[26] ويخبرنا كتاب المؤرخات الصليبية المعاصرة كيف أن أخبار طريق الخلاص الجديد، الذي تصوروا أن خطبة أربان تفتحه أمامهم، انتشرت في كل مكان بسرعة على الرغم من فقر وسائل الاتصال والمواصلات في ذلك الزمان. ورأى الفقراء في هذه الدعوة فرصة رائعة للخلاص من الفقر والإحباط والسادة الإقطاعيين فضلا عن أنها فرصة لخلاص أرواحهم المثقلة بالذنوب والآثام.

ولما كانت حركة الفقراء ضد سياسة الكنيسة التي خطبت ود الفرسان فإن هذه الحركة كانت بالضرورة خروجا مضادا على أهداف الكنيسة كما يقول جروسيه.[27] ولعل هذا يفسر لنا سبب الإدانة التي عامل بها مؤرخو

الحملة الأولى أحداث الحملة الشعبية لا سيما إذا عرفنا أنهم جميعا-باستثناء المؤرخ المجهول-كانوا من رجال الكنيسة.

لقد كان الجوع الذي عض بأنيابه معظم أنحاء الغرب الأوروبي في سنة 1595م نفسه وراء خروج الأعداد الغفيرة من الفلاحين والمعدمين خلف قادة العصابات التي شكلت ما عرف باسم «الحملة الشعبية»، أو «حملة الفلاحين»[28]، لقد اكتشف الفقراء في عبارات البابا، التي وصلتهم محملة بكثير من المبالغة بسبب وسائل الاتصال التي اعتمدت على النقل الشفاهي آنذاك، نغمة أخروية. فقد ربطوا أحوالهم المتردية باعتقادهم بقرب نهاية العالم التي ستنقلهم إلى أورشليم السماء. ولم يكن في وسعهم أن يفرقوا بين أورشليم الحقيقة في فلسطين، وأورشليم التي تخيلوها في السماء في أبهى الصور وأحلاها.[29] ولأن المقهورين في الغرب الأوروبي عشية الحروب الصليبية عاشوا في إحباط وبؤس فإنهم رأوا في الدعوة الصليبية فرصة هائلة اختلط فيها الطمع الدنيوي بالرغبة في الخلاص.

ومن الطبيعي أن تروق الدعوة التي وجهها البابا أربان الثاني في كليرمون 1095م، لشن حملة مقدسة تحت راية الصليب، في عيون فرسان الغرب الإقطاعي على نحو خاص. وعلى الرغم من كل ما قيل عن الحج والحرب المقدسة[30] إلا أن من المستحيل تفسير الدور الكبير الذي لعبه الفرسان الإقطاعيون في الحركة الصليبية في ضوء الدين، والنفسية الجماعية، والاعتزاز بالمهنة التي نشأوا عليها، لأن العوامل الاقتصادية والاجتماعية الجافة كانت لها أهميتها. وربما كانت أهم منها في عالم اليوم. ويستدعي هذا بالضرورة أن نتعرف على أحوال الفرسان لنعرف حقيقة دوافعهم.

لقد كان من أهم خصائص القرن الحادي عشر الميلادي في أوروبا الغربية بلورة النظام الإقطاعي الذي كانت مؤسساته آخذة في التطور والنمو منذ القرن الثامن الميلادي. وقد قام هذا النظام، بشكله التقليدي الذي عرفته فرنسا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، على أساس من ثلاثة عناصر هي: أولا: عنصر شخصي يربط السيد الإقطاعي (Lord) بتابعه (vassal)، ويتمثل هذا العنصر في رابطة الولاء الشخصي الذي يدين به التابع لسيده. وقد اصطلح على تسمية السيادة والتبعية (Lordliness and vassalage). ثانيا: عنصر فعلي: وهو حيازة الإقطاع (fief)

«في مقابل تقديم الخدمة العسكرية المناسبة في جيش السيد الإقطاعي. ثالثا: لا مركزية القضاء: وقد أتاح هذا العنصر حقوقا قضائية للسادة الإقطاعيين على حساب سلطة الملك المركزية كما أوضحنا في الصفحات السابقة. وفضلا عن ذلك صار الإقطاع يشكل نظاما قيميا وأخلاقيا واجتماعيا في فرنسا القرن أحادي عشر الميلادي.[31] وكان الفرسان الإقطاعيون نتاجا لهذا النظام بطبيعة الحال.

وتكشف لنا ملحمة راؤول دي كامبري[32] عن مجموعة القيم والمثل التي تحرك الطبقة الحاكمة في المجتمع الإقطاعي في أوروبا في العصور الوسطى. وتكشف هذه الملحمة عن أن القيم والمثل الحاكمة في المجتمع الإقطاعي كانت ثلاثا. 1- البطولة والبسالة العسكرية اللتان كانتا تعتبران من الحسنات الاجتماعية ؛ لأن الرجل القوي فقط كان هو الذي يستطيع توفير الأمن والحماية في ذلك العصر الذي مزقته الحروب الإقطاعية. 2- كان الولاء الشخصي هو عصب النظام الاجتماعي الإقطاعي، كما كانت العلاقات الشخصية بين الأفراد هي الوسيلة الوحيدة لإقرار الالتزامات السياسية والقانونية. 3- كان ثمة نظام تصاعدي من روابط الولاء الشخصي يبدأ من القاعدة عند الفارس البسيط الذي يمتلك أرضا بالكاد تكفي لإعالته وتسليحه، حتى الهرم الإقطاعي عند القمة التي كان يفترض أن يكون الملك متربعا عليها.

وكانت فرنسا في القرن الحادي عشر الميلادي نموذجا للمجتمع الإقطاعي، ولعل هذا من بين الأسباب الرئيسة التي دعت أربان الثاني لأن يوجه دعوته إلى أمرائها وفرسانها بعيدا عن السلطة الملكية القوية في كل من ألمانيا وإنجلترا. على أي حال كان الوضع الاجتماعي/السياسي في فرنسا آنذاك تجسيدا للفكرة الإقطاعية القائلة: «لا أرض من دون سيد إقطاعي». وقد أدى هذا إلى دخول أعضاء المؤسسة الإقطاعية في فرنسا، منذ نهاية القرن العاشر الميلادي، في نظام تصاعدي كون الهرم الإقطاعي الذي كان الملك من «أسرة كابيه»[33] على قمته، وله السلطة الاسمية على كبار السادة الإقطاعيين. وقد كان يليه في السلم الإقطاعي مباشرة عدد من «الأمراء الإقطاعيات» هم: كونت الفلاندرز، ودوق نورماندي، وكونت شامبني، ودوق أقطانيا، وكونت تولوز، ثم دوق برجنديا. وكان لكل واحد من

هؤلاء أفصاله. كما كان لكل فصل منهم أفصال تابعون له،[34] وهكذا حتى نصل إلى الفارس العادي الذي يملك أرضا بالكاد تعوله وتكفيه.[35] وكان لكل عضو في الهرم الإقطاعي التزاماته وواجباته تجاه سيده وتجاه أتباعه من الأفصال حسبما يحددها العرف الإقطاعي. ولدينا عدة وثائق تحدد هذه الواجبات والالتزامات: منها وثيقة ترجع إلى سنة ١١١٥م، تنقل لنا عملية الولاء الإقطاعي من فيكونت كاركاسون إلى مقدم دير سانت ماري في جراس[36] بفرنسا. وتبدأ الوثيقة على لسان النبيل الإقطاعي «باسم الرب، أنا برنار أتون، فيكونت كاركاسون في حضور« ... بما أن السيد ليو، رئيس الدير المذكور، قد طلب مني في حضور جميع المذكورين أعلاه أن أعترف له بالولاء والتبعية مقابل القلاع والضياع، والأماكن التي حازها أسلافي وأجدادي من أسلافه في رئاسة الدير المذكور إقطاعا لهم، والتي ينبغي أن أحوزها كما حازوها، فإنني اعترفت بالتبعية والولاء للسيد رئيس الدير ليو كما ينبغي».

ثم تمضي الوثيقة لتحدد مفردات الإقطاع الذي حازه الفيكونت من رئيس الدير، كما يعترف بأنه وأسلافه يجب أن يأتوا إلى الدير كلما عين رئيس جديد للرهبان لكي يجددوا التبعية والولاء. ثم يحدد بقية التزاماته الإقطاعية.

وقد حدد أسقف شارتر فلبرت الحقوق والالتزامات المتبادلة بيت السيد الإقطاعي وتابعه في نص يعود إلى سنة 1020م.[37] وبغروب شمس القرن العاشر الميلادي كانت حقوق وواجبات كل من السيد الإقطاعي والتابع (الفصل) قد تحددت واستقرت تماما. ولما كان الهدف الأساسي من التنظيم الإقطاعي هو التعاون في الحرب، فقد قام العرف الإقطاعي على هذا الأساس. وكان الفصل ملزما بتقديم الخدمة العسكرية لسيده، بحيث لا تتجاوز مدتها أربعين يوما فضلا عن عدة التزامات أخرى. وفي المقابل كان على السيد الإقطاعي أن يحافظ على تابعه، ولم يكن من حقه أن يحط من شأنه بالإهانة، أو بأي طريقة أخرى، وإذا لم يف الفصل بقسم الولاء، الذي قطعه لسيده، كان يتعرض لأن ينتزع منه إقطاعه بعد محاكمته في بلاط سيده. أما إذا كان تصرف السيد الإقطاعي تجاه فصله غير لائق فيكون للفصل حق التحلل من الرابطة الإقطاعية التي عرفت باسم (diffidatio).

وعادة ما كانت تبدأ بتكسير السنبلة الرمزية، أو السكين الرمزي الذي يعني انتقال الإقطاع إليه.[38] وكان هذا يعني الحرب. بيد أن الحرب كانت حقيقة يومية في المجتمع الإقطاعي.

لقد كانت الحرب هي الحرفة الأساسية للفارس الإقطاعي. وكان يتم تدريبه منذ صباه على حمل سلاح الفارس ودرعه، واستخدام ذلك كله بمهارة. لقد كانت الحرب مهنة الرجل الراقي، إذ كان تعليمه منذ نعومة أظفاره يهدف إلى تكريس الخشونة جسديا وروحيا. فقد كانت مدرسته حجرة حارس في مركز أو موقع عسكري، والقلعة هي منزله، كما أنه متأهب دائما لوقوع أي هجوم. ولذلك كان يقضي الشطر الأكبر من حياته متدربا على القتال، أو مشتبكا في معركة حقيقية.[39] لقد كانت الحرب مصدر فرح ومتعة للفارس الإقطاعي.

أما أوقات السلم المملة فكان يقضيها بين الجدران الصماء في القلاع الكئيبة، إذ لم تكن وسائل للتسلية، ولم يكن هناك بديل من الصيد. ولذلك كانت المعركة هي قمة حياة الفارس، وفي كثير من الأحيان كانت هي النهاية لحياته أيضا. وعلى العموم كان الفارس الإقطاعي في غرب أوروبا القرن الحادي عشر الميلادي متوحشا همجيا، مولعا باللذات الحسية. ولكنه كان في الوقت نفسه متدينا على طريقته. فقد كان يتقبل تعاليم الكنيسة بلا مناقشة. وكان كثير من الفرسان يؤدون الطقوس والشعائر الكاثوليكية، ولكنهم جمعوا بين هذا النمط من التدين الشكلي والوحشية التي ميزت سلوكهم العام.[40] وكان من عادة فرسان الغرب الأوروبي منح الهبات السخية للأديرة التي أسستها العائلة، أو تأسيس أديرة جديدة باعتبار ذلك وسيلة للتكفير عن الخطايا. ولذلك كانت الدعوة إلى الحملة الصليبية، وما يصحبها من غفران، مصدر إغراء لأبناء هذه الطبقة.

ولم يكن الفارس يعيش في مستوى معيشي أفضل كثيرا من مستوى الفلاحين في أرضه، إذ كان يأكل النوعية نفسها من الطعام، وإنما بكميات أكبر، ويلبس الملابس نفسها التي صنعتها الفلاحات، ولكنه كان يمتلك عددا من الثياب أكثر من الفلاح الذي لم يكن يملك سوى ثوب واحد في أغلب الأحوال. وكان يعيش مع زوجته في بيت خشبي يحيط به خندق، صحيح أنه أكبر من بيوت أهل القرية ولكنه لم يكن أكثر راحة من بيوت

الفلاحين الأحرار الموسرين. أما قلاع النبلاء فكان شكلها وحجمها وطريقة بنائها تعتمد على موارد السيد الإقطاعي، وما توفره له الأرض من ميزات. وربما كان هناك عدد قليل من الإقطاعيين يملكون داخل قلاعهم بعض المباني الحجرية، مثل البوابة وبعض الأبراج. وقد كانت القلعة عنصرا هاما في السياسة الإقطاعية ؛ لأن قلعة بها حامية قوية، وتتوفر فيها المواد التموينية، كانت تستطيع الصمود فترة طويلة بوجه أي هجوم، أو حصار ضدها، بالوسائل المعروفة آنذاك.[41]

ولم يكن الفلاحون، فقط، يعانون من الزيادة السكانية في أوروبا القرن الحادي عشر الميلادي بالنسبة لموارد بلادهم المحدودة، إذ كانت الحقول الشحيحة لا تزال عاجزة عن أن تعول سكانها، وفيهم الفرسان بطبيعة الحال. ونتيجة ربط التبعية الإقطاعية بالأرض التي تمنح في المقابل كانت الإقطاعيات أقل من عدد الفرسان الطامحين إلى الحصول على الأرض. وقد عرفت هذه الظاهرة باسم الجوع إلى الأرض، وقد تسببت في كثير من الحروب الإقطاعية التي مزقت أوروبا تماما. وعند نهاية القرن العاشر الميلادي كان تقسيم الإقطاع إلى إقطاعيات صغرى قد صار أمرا شائعا، وبذلت الكنيسة كل ما في وسعها لحصر نطاق الحرب في المجتمع الإقطاعي في القرن الحادي عشر الميلادي عن طريق الترويج لحركة «سلام الرب».[42] ولكن هذه الحركة لم تحرز نجاحا يذكر.

كان ملك فرنسا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين سيدا على كبار الأمراء الإقطاعيين كما أوضحنا، بيد أنه أ يكن يتمتع بأي سلطان حقيقي على أفصاله من كبار الدوقات والكونتات. وطالما كان الملك القابع في باريس عاجزا عن أن يهزم دوق نورماندي، أو كونت تولوز، فلم تكن له أي سيطرة حقيقية عليهما أو على غيرهما. ومن الناحية العملية، فإن ملك فرنسا-سواء كان من الكارولنجيين أو من أسرة كابيه بعد سنة 987 م-لم يكن أكثر من مجرد دوق باريس.[43] لقد كانت فرنسا في حقيقة أمرها تحالفا بين الإمارات الإقطاعية التي استقرت حدودها في نوع من التوازن السياسي البدائي في القرن الحادي عشر الميلادي، ولم يكن للملك سوى ظل من سلطة باهته. ولذلك اختار البابا فرنسا لتكون المكان الذي يطلق فيه دعوته إلى الحملة الصليبية.

أما في ألمانيا فقد كان هنري الثالث (1039-1056م) وابنه هنري الرابع (1056-1106م) يحاولان إرساء ملكية قوية ومركزية، على الرغم من أن تمرد الأمراء المحليات جعل ألمانيا تعاني بعض الارتباك في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي، وعلى الرغم من أن النزاع مع البابوية حول ترسيم الأساقفة (النزاع حول التقليد العلماني) قد أدى في النهاية إلى بروز سلطة الأمراء المحليين.[44] وقبيل الحروب الصليبية كانت الإمبراطورية مشغولة بصراعاتها في الداخل والخارج. أما في إنجلترا فكان الملك يفرض سلاما قويا على توليفة غير مستقرة من السكان الذين تألفوا من الأنجلو-سكسون، والنورمان ذوي الأصول الدانمركية.[45] وفي إسبانيا كانت ممالك الشمال المسيحية تأخذ زمام المبادرة في الهجوم ضد مسلمي الأندلس. ولأن كل الموارد والإمكانات الإسبانية كانت مطلوبة في الحرب ضد المسلمين[46] فإن الأسبان لم يتمكنوا من المشاركة في الأحداث التي شهدتها أوروبا عامة، ومن المساهمة في الحملة الصليبية على نحو خاص.

هذا هو الموقف السياسي في أوروبا الغربية عشية الحروب الصليبية ؛ وهو موقف يكشف الدوافع التي حدت بأبناء الطبقة الإقطاعية من الفرسان إلى أخذ شارة الصليب.

لقد كانت الرغبة في المغامرة وحب النهب من دوافع الأفراد حقا، ولكننا نعرف المشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي واجهت طبقة الفرسان كلها، وهي مشكلات جعلتهم يرون في الحملة الصليبية منفذا للخروج من هذه المشكلات، إذ كانت هناك أزمة في الاقتصاد الزراعي بجنوب فرنسا وإيطاليا منذ سنة 850 م، أخذت تتفاقم حتى بلغت ذروتها سنة 1000 ميلادية. وقد وصف لنا رالف جلابير الوباء المخيف الذي عرف باسم «نار القديس أنطونيو» الذي كان يأكل أطراف البشر، كما حدثنا عن المجاعات الرهيبة التي طحنت أقاليم أوروبا آنذاك.[47] وكان هذا كله ناتجا من نقص الإنتاج وعجز الأرض عن إطعام أعداد السكان المتزايدة. وقد ذكر أربان الثاني لمستمعيه من الفرسان ما نصه: «... هذه الأرض التي تعيشون عليها محاطة بالبحر من كل جانب، تحوطها سلاسل الجبال، وتضيق بأعدادكم الكبيرة، وهي لا تفيض بالثروات الكبيرة، وإنما تكاد تعجز عن توفير الطعام لمن يقومون بزراعتها. وهذا هو السبب في أنكم تثنون الحرب ضد بعضكم

بعض، وتقتلون بعضكم بعضا ...».[48]

لقد كانت الكلمات التي نسبها روبير راهب ريمس على لسان البابا تشير إلى حقيقة مؤداها أن الزيادة السكانية في غرب أوروبا القرن الحادي عشر الميلادي من أهم الأسباب التي حفزت أبناء الغرب الأوروبي على البحث عن أرض جديدة وموارد جديدة خارج أوروبا. وإذ كانت جبهات التوسع الأوروبية عاجزة عن تحقيق هذه الطموحات، جاءت الدعوة إلى التوسع في الشرق العربي، وبمباركة الكنيسة بمثابة الحل السعيد للمشكلات الناجمة عن حرص العائلات الإقطاعية على عدم تقسيم الأرض الزراعية.

لقد دأبت طبقة الفرسان على اتباع عدة وسائل للحفاظ على إقطاع العائلة دون تفتيت. ففي شمال فرنسا كان حق الإرث قاصرا على الابن الأكبر، أما الأبناء الذين يصغرونه فكان عليهم أن يبحثوا عن منفذ إما بالانضمام للكنيسة، وإما بالبحث عن وريثة إقطاعية (وهو أمر نادر على أي حال)، وإما بالبحث عن مستقبل عسكري مع البارونات اللصوص، وإما ضمن أتباع أحد السادة الإقطاعيين الكبار. ومن الواضح أن الحملة الصليبية جاءت متنفسا وصمام أمن لطبقة الفرسان التي كان عددها ينمو باستمرار.[49] لقد كان الحفاظ على مستوى معيشة العائلة ومركزها الاجتماعي يستوجب التضحية من جانب بعض الأفراد. وفي إيطاليا وفرنسا جنوب نهر اللوار تم تجنب تقسيم الأرض بعدة أشكال من الملكية الجماعية. كما أن المصادر التاريخية تحدثنا عن الملكيات الحرة التي لم تكن مرتبطة بأي التزامات إقطاعية. وقد عرف هذا الشكل باسم ملكية الأخوة (fraternitia) الذي تم ابتكاره لمنع تفتيت ملكية الأرض، إذ كانت الأرض ملكية مشاعة بيت الأخوة. وفي بعض الأحيان كان الأعمام، وأبناء الأخوة يشاركون في الملكية. وإذا كان هناك عدد كبير من الورثة كان لابد لبعضهم من أن يلحق بالأديرة أو الكاتدرائيات.[50] وكان هذا يعني الفرار من قيود العائلة إلى الكنيسة بقيودها. وفي القرن الحادي عشر الميلادي، وفي القرن الثاني عشر الميلادي أيضا، كان الانضمام إلى الحملة الصليبية فرصة حقيقية للهرب من نظام ملكية الأخوة، كما كانت فرصة حقيقية أمام المرء لكي يحقق استقلاله.

على أي حال، كانت ثمة أهداف ومطامع دنيوية عديدة وراء مشاركة

أبناء هذه الطبقة في الاشتراك في الحملات الصليبية تبلورت كلها حول الرغبة في التوسع وملكية الأرض، وفي طياتها تأتي أسباب فرعية عديدة.[51] وعلى الرغم من أن غرب أوروبا في القرن الحادي عشر الميلادي كان منطقة ريفية الطابع كما أسلفنا القول إلا أن هناك بعض الدلائل على بدايات متواضعة للصناعة اليدوية والتجارة. كذلك كانت المدن قد بدأت تظهر على استحياء في بعض مناطق أوروبا، ولا سيما في إيطاليا حيث لم تكن المدن قد اندثرت تماما. فقد استمرت عدة مدن إيطالية في الحفاظ على علاقتها التجارية بالقسطنطينية طوال العصور الوسطى الباكرة[52]، إذ استمرت سفن التجارة تروح وتغدو بين العاصمة الإمبراطورية، وآمالفي، والبندقية تحت حماية الأسطول البيزنطي.

وحول منتصف القرن الحادي عشر الميلادي كانت البندقية قد بنت أسطولها القوي. وفي الفترة نفسها تقريبا كانت جنوا وبيزا قد بدأتا التجارة على طول شواطئ البحر المتوسط مع مارسيليا، وناربون، وبرشلونة. وقد أخذت جنوا وبيزا زمام المبادرة في الهجوم على أساطيل المسلمين التي كانت قد دأبت على مهاجمة موانيهما والاستيلاء على سفنهما. وقد ابتكرت مدن الشمال الإيطالي الكوميونات التي عرفها أحد الباحثين بأنها «رابطة تجمع كل سكان المدينة، وليس التجار فقط، يرتبطون بقسم يتعهدون فيه بالحفاظ على السلام، والدفاع عن الحريات العامة وطاعة الحكام،[53] ولم يلبث كوميون جنوا وكوميون بيزا، وجمهورية البندقية التجارية أن فرضت نفسها على تجارة البحر المتوسط. ثم لم تلبث هذه المدن التجارية أن تحولت إلى جمهوريات مستقلة غير خاضعة لسلطة الكنيسة. وقد لعبت اثنتان من هذه الجمهوريات، هما جنوا وبيزا، دورا هاما في الحملة الأولى في مقابل السيطرة على موانئ شرق المتوسط، ولم تلبث البندقية أن لحقت بهما في هذا المضمار. ومثلما كان الفقراء من فلاحي الغرب الأوروبي يبحثون عن فرصة لحياة أفضل تحت سماء الشرق، ومثلما كان فرسان أوروبا يحاولون التوسع لحل مشكلاتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الناجمة عن عجز الموارد الزراعية، كانت الجمهوريات التجارية الإيطالية الطموح تحاول أن تفوز بالثروة الطائلة التي نعم بها العالم الإسلامي، وأن ترث دور المسلمين في تجارة البحر المتوسط وتجارة العالم. وجاءت الحروب

الصليبية فرصة للتوسع الأوروبي على شتى المستويات.

وبينما كان الفلاحون يزيلون الغابات لكي يستزرعوا أرضها، والفرسان يحاولون بلورة مؤسساتهم الإقطاعية طوال القرن الحادي عشر الميلادي، كان رجال الكنيسة أيضا يحاولون تطوير مؤسساتهم وإحكام سيطرتهم على الغرب الأوروبي. ومن المثير أن هذه كلها كانت خيوطا في شبكة واحدة للتوسع والنمو وجدت ضالتها في مشروع الحملة الصليبية الذي طرحه أربان الثاني.

فخلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين كانت الكنيسة الكاثوليكية قد تورطت في الشؤون العلمانية إلى حد بعيد، إذ كانت الأراضي الزراعية الشاسعة التي امتلكتها الأديرة والأسقفيات بمثابة إقطاعيات تستوجب الخدمة العسكرية. وبالفعل قاد بعض رجال الكنيسة قواتهم الإقطاعية وهم يصرون على أن ذلك لا يمثل انتهاكا للقانون الكنسي، ولكن معظم الأساقفة ومقدمي الأديرة عهدوا إلى وكلاء علمانيين بأداء الخدمة العسكرية الإقطاعية بدلا منهم. وكان السادة العلمانيون هم الذين يعينون الأساقفة ومقدمي الأديرة داخل إقطاعياتهم وإماراتهم. وقد خدم رجال الكنيسة في بلاط السادة العلمانيين مستشارين ورجال إدارة. وقد أضر هذا الوضع بالوظيفة الروحية للكنيسة إلى حد بعيد.(54) وانعكس هذا على حال الكنيسة الكاثوليكية عموما بين بابوية يوحنا الثامن (872-882م) ويوحنا الثاني عشر (955-964م) على وجه الخصوص. وكان يوحنا الثاني عشر «ذلك الولد الفاسد» في الثامنة عشرة من عمره عندما اعتلى العرش البابوي، وقد قال لويد براند أسقف كريمونا(55) إنه مات بسبب إفراطه الجنسي أثناء نومه مع إحدى عشيقاته،(56) مثالا واضحا على فساد البابوية والكنيسة الكاثوليكية عامة. وفي القرن الذي أعقب وفاة يوحنا الثامن مات معظم البابوات في حوادث قتل واغتيال ولم يمت على سريره في سلام سوى عدد قليل منهم. فقد اغتيل يوحنا الثامن، وزج بستيفن السادس (896-897م) في السجن حتى لقي حتفه، أما بندكت السادس (973-974م) فقد خنق، على حين قتل يوحنا الرابع عشر (983-984م) في كنيسة سانت أنجيلو.

وكان هذا كله تعبيرا عن مدى هوان البابوية من ناحية، وعن أن البابوات كانوا من أبناء الأسر النبيلة التي رفعت كلا منهم إلى عرش القديس بطرس

لأسباب تتعلق بمصالح الأسرة وسياستها من ناحية أخرى. وكانت المنافسة بين العائلات الأرستقراطية لجعل الكرسي البابوي عرشا وراثيا هي العامل الفعال في جعل البابوية تخسر هيبتها وسيطرتها على العالم المسيحي الكاثوليكي.

ومن ناحية أخرى، فإن دخول الكنيسة في النسيج الإقطاعي لمجتمع غرب أوروبا أدى في النهاية إلى أن صارت الوظائف الكنسية تباع وتشتري. وكانت النتيجة أن أغلبية رجال الكنيسة كانوا جهلة فاسدين. وعلى العموم كانت أحوال الكنيسة تبعث على الرثاء.[57]

وفي سنة 911 م تأسس دير كلوني على يد الدوق وليم أمير أقطانيا أملا في إصلاح الأوضاع الديرية المتردية.[58] وكان ذلك أول رد فعل واضح ومؤثر في مواجهة الفساد الذي عانت منه الكنيسة الكاثوليكية. وفي مقابل العلاقات الإقطاعية التي كانت الكنيسة قد تورطت فيها، حتى ذلك الحين، حرم دستور كلوني قبول أي أرض إذا كانت مشروطة بالخدمة العسكرية. وسرعان ما انتشر دستور رهبان دير كلوني في كل مكان، وفي شتي بقاع أوروبا وجدت الأديرة الكلونية التي صار لها نفوذ ضخم. وبفضل مساعدة الإمبراطور الألماني هنري الثالث تم إصلاح الكثير من الأديرة الألمانية. وصارت الأديرة الكلونية مقصد كل المتحمسين والمخلصين من رجال الكنيسة.

بيد أن أولئك المتحمسين من رجال الكنيسة لم يكونوا على استعداد لأن يقصروا حدود إصلاحاتهم على الأديرة، إذ كانت الممارسات السيئة والفاسدة لرجال الكنيسة تثير قلقهم. وأدرك الإصلاحيون أن هناك وسيلة واحدة لتحقيق أهدافهم هي تنظيم الكنيسة على أسس قوية، وبحكومة مركزية فعالة. ولذلك تحولوا صوب البابوية التي تتبلور حولها الكنيسة الكاثوليكية. وكان البابا ليو التاسع أول البابوات الإصلاحيين. فبعد أن ارتقى العرش البالوي (1049-1054 م) عقد عدة مجامع دينية، وأصدر عدة قرارات ضد السيمونية(*)، وزواج رجال الدين، والعنف والتحلل الأخلاقي. وبهذه الطريقة صارت السلطة البابوية سلطة حقيقية وواضحة للعيان. وكانت النتيجة أن

(*) السيمونية: تعني المتاجرة بالأشياء المقدسة، وهي نسبة إلى سيمون الساحر وهو شخص سامري الأصل، ماهر في فن السحر. تنصر وأراد أن يشتري من بطرس الرسول سلطان وضع الأيدي وصنع المعجزات، فخذل (المحرر)

البابوية-التي كانت حتى ذلك الحين مصدر عار وفضيحة بالنسبة للجادين من رجال الكنيسة-كسبت تأييد الحركة الإصلاحية. ولأن البابا كان يتم اختياره بواسطة القساوسة وشعب روما، وهو ما كان يعني أن النبلاء الإيطاليين كانوا يتدخلون في اختيار البابا بالشكل الذي يوافق مصالح عائلاتهم، فإن الإصلاحيين انتهزوا فرصة مواتية بعد وفاة الإمبراطور هنري الثالث، وتم إصدار مرسوم الانتخاب البابوي الشهير سنة 1059 م.[60] وقد أنهت هذه الوثيقة التي أصدرها البابا نيقولا الثاني (1059-1061 م) تدخل العلمانيين في انتخاب البابا وقصر هذا الحق على مجلس الكرادلة. وتقول الوثيقة: «.. نحن (البابا نيقولا الثاني رسمنا وقررنا[3] أنه عندما يموت بابا كنيسة روما العالمية فإن الأساقفة الكرادلة ينبغي أن يجتمعوا ويتدبروا الأمر مليا، ثم يلحق بهم القساوسة الكاردناليون، ثم يوافق بقية رجال الكنيسة والشعب على الانتخاب الجديد..» والوثيقة تمنع صراحة تدخل أي سلطة علمانية في هذه المسألة.

وقد تمكن الإصلاحيون من زيادة سلطة البابا على الكنيسة الكاثوليكية بأسرها من خلال عدة وسائل أهمها «المندوبون البابويون» الذين كان البابا يرسلهم في مهمات متعددة في شتي أنحاء العالم الكاثوليكي لتأكيد سلطته. وعند هذه النقطة بدأ الصراع على السلطة بين الكنيسة والدولة. وقد تفجر الصراع علنا عندما تولى هيلدبراند عرش القديس بطرس تحت اسم جريجوري السابع سنة 1073 م. وقد ارتبطت هذه الفترة كلها باسمه فعرفت باسم «الثورة الجريجورية»، أو «الإصلاح الجريجوري»[61] وقد اهتم جريجوري السابع بتدعيم سلطة البابوية إلى أبعد الحدود. وقد نسب إليه مرسوم يحدد أبعاد السلطة البابوية يتكون من ست وعشرين نقطة تدور كلها حول مفهوم سمو البابوية على الدولة. وقد عرفت هذه الوثيقة «بالإملاء البابوي» (dictatus papae).[62].

وحين اعتلى جريجوري عرش البابوية وجد أن الجالس. على عرش الإمبراطورية هو الإمبراطور هنري الرابع الذي كان قد بلغ السن القانونية لتوه، ولكنه كان أقوى حاكم في أوروبا. ومع هذا فإن «الشيطان المقدس» جريجوري السابع الذي كان قد أنطلق في سبيل تدعيم السلطة البابوية لم يتورع من أن يطلب من الملك الألماني أن يوقف فورا نظام التقليد العلماني

الذي كان يتيح له التحكم في تعيين كبار رجال الكنيسة، وهدد بتوقيع الحرمان على الإمبراطور إذا لم يمتثل للمرسوم الذي أصدره. وقرر هنري أن يتصدى بقوة لطموح البابا، وعقب مجمع ديني أيده فيه القساوسة الألمان الذين أزعجتهم سياسة جريجوري السابع، أرسل المجتمعون في وورمس إلى البابا سنة 1076 م رسالة حادة الكلمات تقول: «... قررنا بالإجماع... أنه لن يكون بمقدورك أن تتولى رئاسة الكرسي الرسولي بعد الآن...». وتمضي الوثيقة لتصف البابا بالغطرسة والشر، وبأنه راهب مزيف، يعاشر امرأة في الحرام، وأن «... ارتفعت الشكوى في كل مكان بأن كافة الأحكام والقرارات الصادرة عم الكرسي الرسولي، وأن الكنيسة كلها تحكمها هذه المرأة...».[63]

وكان الرد الفوري من البابا العدواني خلع الإمبراطور.[64] ووقع عليه قرار الحرمان الذي أعطى الذريعة للأمراء في الأقاليم لإشعال نار التمرد من جديد ضد الإمبراطور، مع التهديد بانتخاب غيره إذا لم يحصل على الغفران البابوي. ثم حدث أن استعد البابا للرحيل إلى ألمانيا لحضور انتخاب النبلاء الألمان لإمبراطور جديد، وفي الوقت نفسه استطاع رجال الكنيسة الألمان في بلاط هنري أن يقنعوه بأن الحل الوحيد هو أن يطلب الغفران البابوي حتى ينقذ عرشه. وبالفعل سافر الإمبراطور إلى إيطاليا. وفوق قمة جبلية على مسافة قريبة من بارنا، كانت هناك قلعة كانوسا التي تملكها ماتيلدا صديقة البابا، ولا تزال أطلال هذه القلعة العابسة باقية حتى اليوم توحي بالعداء مثلما كان حالها يوم قصدها هنري الرابع تحت ثلوج يناير. وعندما قابله البابا تحول استسلام الإمبراطور إلى نصر سياسي. وسرعان ما عاد إلى ألمانيا ليخمد تمرد النبلاء الذين لم يتلقوا من البابا سوى خطاب يصف فيه خضوع هنري الرابع[65] وسرعان ما أدت تطورات الأحداث إلى تعيين بابا مضاد. وعندما طلب البابا مساعدة روبرت جويسكارد زعيم النورمان في جنوب إيطاليا جاءت جيوش الملك النورماني، ونهبت روما، واسترقت الآلاف من رجالها ونسائها بيعوا في أسواق النخاسة. ولم يستطع جريجوري أن يبقى في المدينة المنهوبة، فغادرها مع جيش النورمان ليموت في منفاه داخل الحذاء الإيطالي بعد وقت قصير.[66] وعلى الرغم من موت جريجوري السابع سنة 1085 م إلا أن النزاع العلماني،

أي الصراع على السمو والسيادة بين الدولة والكنيسة ظل قائلا لفترة طويلة بعد ذلك. وقد كان لهذا الصراع أثره في شكل الحملة الصليبية الأولى، إلا إن مساهمة الألمان فيها لم تكن مساوية لمساهمة الفرنسيين الذين وجه البابا إليهم خطابه.[67] كذلك كان النزاع العلماني من أهم دوافع البابوية في الدعوة إلى الحملة الصليبية.

لقد كانت البابوية راغبة في توظيف الميول الحربية لفرسان الغرب في خدمة أهدافها بحيث يتحقق السمو البابوي على الإمبراطورية، ويؤكد هذا كلام المؤرخ القسيس فوشيه دي شارتر على أن البابا أربان الثاني كان حريصا على أن يسمو بالكنيسة.[68] ومما يسترعي الانتباه أن البابا وجه دعوته إلى الأمراء الإقطاعيين دون الملوك الذين كان في خصومة مع كل منهم من ناحية، ولكي يكون النبلاء وسيلة البابوية في التصدي لأولئك الملوك من ناحية أخرى. وقد أشار وليم الصوري إلى هذه الحقيقة أيضا.[69]

وهكذا كان اعتناق القوى الاجتماعية المختلفة لفكرة الحملة الصليبية تعبيرا عن صراع هذه القوى ضد بعضها بعض، كما كان-في الوقت نفسه- تعبيرا عن التفاعلات الناجمة عن هذا الصراع. لقد كانت الحملة الصليبية إفرازا للتفاعل بين الكنيسة والإقطاع، كما سبق القول، ومن ثم فإنها سعت لتحقيق أهدافهما. وكانت الدوافع التي حركت الجميع تتجه نحو بؤرة واحدة: هي التوسع في الخارج، وإيجاد مجال حيوي للنمو الحضاري الذي كانت أوروبا الغربية تعاني إرهاصاته في ذلك الحين.

ولا شك في أن الظروف السائدة في الشرق قد شجعت البابوية على طرح مشروعها الكبير. وإذا كان البابا جريجوري السابع، والبابا أربان الثاني من بعده، قد استغلا أزمة الإمبراطورية البيزنطية لصالح الكنيسة الكاثوليكية، بحيث يتم توحيد الكنيستين تحت زعامة بابا روما، فإن تطورات الأحداث لم تلبث أن غيرت هدف الحملة من القسطنطينية إلى بيت المقدس. والحقيقة أن الفترة التي شهدت نضج الفكرة الصليبية في الغرب الأوروبي كانت هي نفسها فترة التراجع والتدهور في أحوال بيزنطة على النحو الذي جعلها تلجأ للغرب اللاتيني-عدوها التقليدي-في طلب المساعدة.

عندما مات باسيل الثاني سنة 1025م، كان موته بمثابة الخاتمة لفترة باهرة متألقة في التاريخ البيزنطي.[70] فقد ترك باسيل الثاني لخلفائه

إمبراطورية امتد سلطانها إلى مدى لم تصله منذ حملات هرقل المظفرة ضد الفرس في القرن السابع الميلادي. بيد أن خلفاء باسيل الثاني لم يحصنوا رجال دولة أو قادة عسكريين، في الوقت الذي أحاط الأعداء بالإمبراطورية من كل جانب. فقد كان المسلمون على الحدود الشرقية وفي البحر المتوسط مصدر إزعاج وتهديد، ولكن جيوش الإمبراطورية كانت لا تزال قادرة على التصدي لهم. وفي البلقان أخذ السلاف يثيرون المتاعب، وحاصر البلغار تسالونيكا كما نهبت جيوشهم بلاد اليونان، ولكن الجيش البيزنطي تمكن من قمعهم في النهاية. وفي سنة 1043 م هاجم الروس العاصمة بسبب امتيازاتهم التجارية تحت قيادة فلاديمير أمير نوفجورود، ولكنهم ردوا على أعقابهم وتحطم أسطولهم.[71] أما في إيطاليا فقد كانت أوضاع البيزنطيين لا تزال جيدة على الرغم من فشل حملتهم ضد مسلمي صقلية سنة 1038م. وهكذا كان موقف الإمبراطورية جيدا على الصعيد العسكري في السنوات العشرين التي أعقبت وفاة الإمبراطور باسيل الثاني.

وإذا كانت بيزنطة تمكنت من كبح جماح أعدائها القدامى فإن الساحة لم تلبث أن شهدت أعداء جددا، أكثر حيوية وجرأة، وأشد تصميما على تدمير الإمبراطورية، وقد كان ظهورهم في وقت غير مناسب تماما للإمبراطورية التعسة التي كان يعتلي عرشها أفراد أقل كثيرا من أن يملئوا الفراغ السياسي والعسكري. وكان أهم أولئك الأعداء الجدد ؛ البشناق، والنورمان، والأتراك السلاجقة.

والبشناق قبائل بدوية من أصل تركي، عرفهم البيزنطيون قبل القرن الحادي عشر الميلادي. ومنذ تولى الإمبراطور قسطنطين الثامن (1025-1028م) عرش بيزنطة حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي استمرت هجمات البشناق على جبهة البلقان. وفي عصر الإمبراطور قسطنطين التاسع مونو ماخوس (1042-1067 م) شنت هذه القبائل واحدة من أكثر هجماتهم تدميرا، ودمروا الجيش الإمبراطوري سنة 1053 م، ولكنهم لزموا السكون خلال حكم الإمبراطورة تيودورا (1055-1056 م)، وحكم الإمبراطور ميخائيل السادس (1056-1057م). وهي فترة قصيرة على أي حال. ثم انضموا في هجوم كبير مع المجريين ضد الإمبراطورية سنة 1059م. وبعد خلع الإمبراطور ميخائيل السابع (1071-1078م) اندلعت الحرب الأهلية داخل

الإمبراطورية، مما أتاح الفرصة أمام البشناق وحلفائهم من قبائل الأوز (Uzes) لنهب الأراضي البيزنطية في البلقان.[72] وكان هذا هو الحال عندما تولى أليكسيوس كومينينوس العرش.[73]

أما الجبهة الإيطالية فقد بدأت المشاكل فيها بالغزو النورماني لصقلية وجنوب إيطاليا.[74] . وعلى الرغم من أن المد النورماني في جنوب إيطاليا قد انتهى بالاستيلاء على ميناء باري (Bari) على البحر الأدرياتي، والذي كان يمثل آخر المعاقل البيزنطية في إيطاليا، إلا أن كلا من الإمبراطور رومانوس ديوجينيس وخليفته ميخائيل السابع كانا يأملان في أن يفيدا من النورمان لكسر شوكة الأتراك السلاجقة من جهة، ويحاولان اتقاء أي هجمات أخرى يشنها روبرت جويسكارد، حاكم النورمان الطموح، ضد الأراضي البيزنطية نفسها بعد إن بات سيد الجنوب الإيطالي بلا منازع.[75] وقد وافق روبرت جويسكارد على مهادنة الإمبراطورية البيزنطية في وقت كانت فيه علاقته مع البابوية في أسوأ أحوالها، وربما كان يقصد أن يحول دون قيام تحالف بين الإمبراطور البيزنطي والبابا الكاثوليكي ضده. وعندما أطاحت واحدة من مؤامرات القصر الشهيرة في التاريخ البيزنطي بالإمبراطور ميخائيل السابع سنة 1078 م وجد روبرت جويسكارد فيها فرصة سانحة للهجوم على الإمبراطورية. ومن ناحية أخرى، كان البابا جريجوري السابع حانقا على البيزنطيين بعد فشل المفاوضات معهم، ولذلك سارع إلى مباركة حملة جويسكارد على بيزنطة. وبينما كان القائد النورماني يحشد جيوشه استعدادا لعبور البحر الأدرياتي ومهاجمة الأراضي البيزنطية كان النزاع على السلطة قد حسم لصالح أليكسيوس كومنينوس.[76] وكان حكمه الذي دام سبعا وثلاثين سنة نقطة تحول هامة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية.

وبينما كان البشناق يعيثون فسادا في ولايات البلقان البيزنطية، وبينما كان النورمان يهددون وجود الإمبراطورية ذاته، كان الموقف في آسيا الصغرى قد تدهور إلى درجة خطيرة، بحيث لم تعد الحدود بين ما تبقى بأيدي البيزنطيين وما استولى عليه السلاجقة، الذين غزوا هذه المناطق، واضحة.

كان الأتراك السلاجقة الذين ظهروا في القرن الخامس الهجري[77]/ الحادي عشر الميلادي علامة على بداية مرحلة جديدة في تاريخ العالم

الإسلامي وفي تاريخ الإمبراطورية البيزنطية أيضا. لقد كان السلاجقة من الأتراك الغز، وهم قبائل بدوية مثل بقية القبائل تركية الأصل.[78] وقد اعتنقوا الإسلام على المذهب السني في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، ثم تأقلموا مع المعطيات الحضارية في العالم الإسلامي. وبدأ دورهم العسكري والسياسي النشط في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وقد توجه طغرل بك بدخول بغداد بناء على دعوة من الخليفة العباسي سنة 447 هـ/1055 م لكي يخلصه من مؤامرة حاكها أبو الحارث البساسيري لكي يبسط سلطة الخلافة الفاطمية الشيعية على بغداد عاصمة الخلافة العباسية السنية. وقد أخمد طغرل بك المؤامرة وقتل البساسيري. ودخل السلاجقة بغداد ليحلوا محل البويهيين في الهيمنة على الخلافة العباسية الضعيفة.[79]

وقد كان السلاجقة قد تمكنوا في ذلك الحين من بسط نفوذهم على المنطقة الواقعة بين خراسان وبغداد، وبات توسعهم، إلى الشمال والغرب، على حساب الأرمن والبيزنطيين والفاطميين جميعا، أمرا حتميا. وقد أدت توسعاتهم إلى التوسع في آسيا الصغرى طوال القرن الحادي عشر الميلادي، بيد أن توسعهم ظل على حساب الأرمن حتى عهد الإمبراطور قسطنطين التاسع (1042-1055م).[80] ففي سنة 1048م شن إبراهيم بن أينال، أحد القادة السلاجقة، هجوما على الأراضي البيزنطية، ثم قام طغرل بك بقيادة هجوم بنفسه في سنة 1054م. وكان هذان الهجومان فاتحة غارات كثيرة متكررة شنها الأتراك السلاجقة ضد الإمبراطورية.[81]

وفي سنة 1059م نهبت قوات السلاجقة سيواس. ولكن وفاة طغرل بك سنة 1063م غيرت من اتجاه الأحداث. ذلك أن خليفته وابن أخيه ألب أرسلان كان منزعجا من احتمال حدوث تحالف بين البيزنطيين والفاطميين، ومن ثم هاجم العاصمة الأرمنية القديمة «ماني Mani» واستولى عليها، ثم هاجم قيصرية في إقليم قبادوقيا ودمرها سنة 1067 م، ولم يكن بوسع الأباطرة البيزنطيين الضعاف أن يفعلوا شيئا لصد هذه الهجمات.[82]

وفي شهر يناير سنة 1068م اعتلى العرش الإمبراطوري في القسطنطينية الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجينيس (1068-1071 م). وقد كان جنديا محترفا، شجاعا، وصفه ميخائيل بسللوس (الذي كان من خصومه

السياسيين) بالرعونة والتهور.[83] وبعد عدة شهور كان الإمبراطور على رأس جيشه لمنازلة السلاجقة على الرغم من نقص التنظيم والتدريب في جيشه، وأحرز بعض النجاح بيد أنه لم يحقق نصرا حاسما. وفي سنة 1069م تصدى للسلاجقة الذين نهبوا قونية وهم عائدون بغنائمهم وأجبرهم على تركها والفرار. ثم عاد إلى القسطنطينية ليمضي سنة 1070م كلها.

في ذلك الوقت كان السلطان السلجوقي ألب أرسلان يعد حملة ضد الخلفاء الفاطميين في مصر، وآثر أن يعقد معاهدة أو هدنة مع البيزنطيين، وربما يكون الطرفان قد توصلا إلى اتفاق، ولكن غارات بعض أمراء السلاجقة المغامرين كانت تتم دون علم السلطان أحيانا، وضد إرادته أحيانا أخرى. وكانت نتيجة هذه الأحداث أن وصلت محاولة إرساء السلام بين الجانبين إلى طريق مسدود. ويقول ابن الأثير: إن رد الإمبراطور البيزنطي على السلطان السلجوقي بالسلام كان قاسيا، إذ قال: «لا هدنة إلا بالري».[84] وهو ما يعني أن الإمبراطور كان قد عقد العزم على دخول عاصمة ألب أرسلان.

وهكذا وصلت الأمور إلى نقطة الالتهاب. وفي شهر رجب سنة 463 هـ (أغسطس 1071م) التقى الجيشان في ساحة المعركة، وانقشع غبار القتال عن هزيمة فادحة للقوات البيزنطية، ووقع رومانوس ديوجنيس أسيرا، وكان بذلك أول إمبراطور بيزنطي يقع أسيرا بأيدي المسلمين.[85] وعلى الرغم من اللوم الذي وجهه بسللوس لرومانيوس بسبب هذه الهزيمة إلا أنه اعترف بأن الإمبراطور قاتل بشجاعة، وقتل عددا من جنود الأتراك بسيفه.[86] وبعد هذه المعركة التي عرفت في تاريخ المنطقة باسم «معركة مانزكرت» أو «ملاذكرد» أو «منازجرد» (كما يسميها ابن القلانسي وابن العبري والفارقي) لم تكن ثمة قوات بيزنطية يمكنها صد الأتراك السلاجقة الذين جاءوا إلى هذه المنطقة بقصد الاستقرار الدائم.[87]

لقد كانت هزيمة البيزنطيين في مانزكرت تعبيرا عن تردي الأوضاع الداخلية في الإمبراطورية أكثر من كونها سببا في هذا الانهيار، إذ إن السنوات التي انقضت ما بين وفاة باسيل الثاني سنة 1025م وارتقاء أليكسيوس كومنينوس العرش الإمبراطوري سنة 1081 م شهدت تعاقب ثلاثة عشر إمبراطورا على العرش بينهم امرأتان. وكان معظمهم رجالا

عاجزين غير قادرين على مواجهة الظروف العصيبة التي عصفت بالإمبراطورية. لقد كانت الأحوال الداخلية متردية تماما، فالمنازعات الداخلية والتمرد كانا من سمات الحياة السياسية، كما أن المرتزقة من الروس، والأتراك، والآلان، والإنجليز، والنورمان، والألمان، والبشناق، والبلغار، وغيرهم كانوا عماد الجيش البيزنطي، ولم يكن هذا مما يمكن أن يكون جيشا قويا. وفضلا عن تأثير المرتزقة السلبي في الجيش كانت لهم تأثيراتهم السلبية أيضا في البنية الاجتماعية في الإمبراطورية.[88] وكان الاقتصاد الداخلي منهارا، والخزانة خاوية لدرجة «... أن أبوابها لم تكن تغلق...»، كما تقول آنا كومنينا التي أرخت لعهد أبيها الإمبراطور أليكسيوس كومنينوس.[89] وكانت الحروب الداخلية تمزق الإمبراطورية عقب مانزكرت، وانتهت بصعود أليكيسوس إلى العرش سنة 1081 م.

يقول المؤرخ ستيفان رنسيمان: إن أحوال الإمبراطورية البيزنطية سنة 1081م كانت غاية في السوء، بحيث لا يقبل مسؤولية حكمها سوى رجل غاية في الشجاعة، أو رجل على قدر كبير من البلاهة.[90] ولكن السنوات السبع والثلاثين التي تولى فيها أليكسيوس حكم الإمبراطورية وسط أمواج السياسة والحرب الهادرة في شرق المتوسط أثبتت أن الرجل لم يكن شجاعا فقط، وإنما كان غاية في الكفاءة والقدرة السياسية.

كانت مواجهته الأولى مع النورمان، فعندما اعتلى العرش كان روبرت جورد كارد دوق أوبوليا قد عبر الأدرياتي بجيشه وبصحبته راهب زعم أنه الإمبراطور المخلوع ميخائيل دوكاس، وأنه جاء ليعيده إلى عرشه. وتقول آنا كومنينا:[91] إن جيش روبرت المكون من أعداد كبيرة من الفرسان والمشاة كانوا قد ضربوا خيامهم بالفعل في أراضي الإمبراطورية في شهر يونيو من سنة 1081م. وإزاء هذا الموقف الصعب كان على أليكسيوس أن يفاوض البنادقة لكي يساعدوه بأسطولهم القوي لقاء حصولهم على الامتيازات التجارية في القسطنطينية، كما طلب مساعدة الإمبراطور الألماني هنري الرابع، فأرسل له وفدا بقيادة أحد رجاله ويدعى مثيمس (Methymes) يطلب فيه غزو لمبارديا لكي يشغل روبرت جويسكارد عن غزو الإمبراطورية البيزنطية. وعلى الرغم من أن أليكسيوس كومينوس قد اضطر للهرب في معركتين ضد النورمان إلا أن مساعدات البنادقة، وهجوم الإمبراطور هنري

الرابع على إيطاليا للانتقام من البابا جريجوري السابع جعلت الخطر النورماني يتلكأ كثيرا. ولكن موت روبرت جويسكارد المفاجئ سنة 1085م أنهى هذه المواجهة المضنية التي استمرت بشكل دائم منذ اعتلاء أليكسيوس العرش سنة 1081م. وهكذا انزاح خطر النورمان مؤقتا عن الإمبراطورية البيزنطية.[92] وفي هذه الحروب برز بوهيموند ابن جويسكارد الذي كان واحدا من أبرز زعماء الحملة الصليبية الأولى.

كانت هذه فرصة بالنسبة لأليكسيوس كومنينوس لمواجهة البشناق والكومان في الجبهة الشمالية. وقد فشل الإمبراطور في مواجهتهم بالقوة العسكرية لأنهم هزموا جيشه، ومن ثم لجأ إلى السلاح البيزنطي التقليدي وهو دبلوماسية الدس والوقيعة والرشوة. فقد جعل الكومان يحملون السلاح ضد حلفائهم البشناق، وفي سنة 1091م جرت بينهما مواجهة حاسمة، وتمزق البشناق شر ممزق، واختفوا من مسرح تاريخ المنطقة بعدها.[93]

أما السلاجقة فكانوا قد بدءوا يتوغلون في آسيا الصغرى منذ سنة 1073 م. وأخذ سليمان بن قتلمش[94] يتوسع على حساب البيزنطيين حتى استولى على معظم أنحاء آسيا الصغرى، منتهزا فرصة التخلخل السكاني وتدهور أحوال بيزنطة الداخلية، وفي العاشر من شعبان سنة 477 هـ/ 1085م استولى سليمان على مدينة إنطاكية.[95] وفي الوقت نفسه كان هناك أمراء من الأتراك أقل شأنا من سليمان بن قتلمش «مثل: «الدانشمند»، و «شاكا»، أو «منجوشك» يحاولون الاستيلاء على مدينة أو قلعة يحكمونها أيا كان عدد سكانها. ومن ورائهم كان التركمان الرحالة، بأسلحتهم الخفيفة وخيامهم وعائلاتهم، يطاردون البيزنطيين ويحلون محلهم في آسيا الصغرى.[96]

ولما رأى أليكسيوس أن من المستحيل طرد السلاجقة من آسيا الصغرى قرر مهادنتهم. وعلى الرغم من أن الأحوال ساءت بين البيزنطيين والسلاجقة بعد موت سليمان بن قتلمش سنة 479 هـ/ 86 10م[97] إلا أن الأمور ظلت مضطربة بين الجانبين حتى استولى على نيقية قلج أرسلان بن سليمان في سنة 1092 ,[98]

كانت هذه هي الحال على كافة الجبهات البيزنطية، وهكذا كان أليكسيوس كومنينوس عاكفا على تنظيم إمبراطوريته، وإعادة بناء جيشه

لتأمين حدوده. وكانت إعادة بناء الجيش البيزنطي تستوجب الاعتماد على المرتزقة الذين صاروا عماد قوة الجيش البيزنطي منذ تلاشت المزارع الصغيرة التي كان أصحابها المصدر الأساسي لجنود الجيش. وكان أحد أسباب دخول الإمبراطور مع البابا أربان الثاني في مفاوضات أن الأول يريد مساعدة البابا في تجنيد المرتزقة من غرب أوروبا، والثاني يريد انتهاز الفرصة لكي يعيد توحيد كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما تحت الزعامة البابوية.

والحقيقة أن أربان الثاني كان يواصل نفس سياسة سلفه البابا جريجوري السابع في هذا الشأن. فالواقع أن البابا جريجوري السابع حاول أن يحول ورطة بيزنطة بعد معركة مانزكرت إلى ميزة ومصدر نفع للبابوية. فقد أراد إعادة توحيد الكنيستين تحت زعامته بعد الانشقاق الذي حدث سنة 1054م.[99] وخلال سنة 1074م كان جريجوري السابع قد أعد خطة لحملة تتجه لإنقاذ القسطنطينية تحت قيادته.[100] ولكن نزاعه مع الإمبراطور هنري الرابع من ناحية، وفشل مشروع التحالف النورماني البيزنطي الذي تبناه نتيجة انقلاب أطاح بالإمبراطور ميخائيل السابع من ناحية أخرى، جعل الشيطان المقدس (جريجوري السابع) يتخلى عن هذه السياسة.

وجاء خليفته أربان الثاني ليواصل السياسة نفسها، فسارع بتحسين علاقته بالإمبراطور أليكسيوس كومنينوس. ففي سنة 1089 م تلقى أليكسيوس رسالة من أربان الثاني يحثه فيها على إرساء السلام والانسجام بين الكنيستين، ويشكو من أن اسم بابا روما قد رفع من مراسيم بطريركية القسطنطينية دونما سند من القانون الكنسي، ويطلب إعادة الاسم. وبعد مشاورات واجتماعات ومناقشات بين أليكسيوس ورجال الكنيسة البيزنطية اقترح الكنسيون حلا وسطا. وعلى الرغم من أن كل هذه المحاولات لم تسفر عن أي نتائج حاسمة إلا أن العلاقات تحسنت نسبيا بين البابوية والإمبراطورية البيزنطية.[101]

وعندما قابل الإمبراطور البيزنطي الكونت روبرت أمير الفلاندرز أثناء قيامه برحلة حج إلى فلسطين طلب منه أن يرسل بعض الفرسان للعمل في الجيش الإمبراطوري لدفع خطر السلاجقة. ويثور الجدل بين المؤرخين حول صحة خطاب يقال إن أليكسيوس أرسله إلى الكونت روبرت بعد

رجوعه إلى بلاده يذكره بوعده بإرسال الفرسان.[102] ولدينا وثيقة أخرى عبارة عن خطاب أوردته المصادر التاريخية اللاتينية في تلك الفترة زعمت أن تاريخه في الفترة ما بين أغسطس سنة 1094 م و يناير سنة 1095 م، وهو خطاب منسوب إلى أليكسيوس كومنينوس موجه إلى البابا أربان الثاني «وكل المؤمنين في الغرب» يطلب منهم النجدة لمواجهة المسلمين الذين يهددون الإمبراطورية البيزنطية. ولكن الشك يحوط بحقيقة هذا الخطاب، وربما كان من بين الوثائق المزورة التي استخدمتها الكنيسة في الدعاية للحملة الصليبية، إذ إن الأوضاع البيزنطية كانت قد استقرت في ذلك الحين، ولم يعد الخطر السلجوقي محدقا بالإمبراطورية مثلما كان الحال قبل عشر سنوات. كما أن الإمبراطور أليكسيوس كان يطلب من الغرب شيئا أصبح مألوفا في الجيش البيزنطي منذ فترة طويلة، وهو المرتزقة الغربيون الذين باتوا يشكلون قسما هاما من هذا الجيش، أما الحملة الصليبية فكانت آخر ما يخطر على بال هذا الإمبراطور الذكي، على نحو ما ستؤكده تصرفاته حيال قادة الحملة الصليبية الأولى فيما بعد.[103]

وفي مارس 1095 م عقد البابا أربان الثاني مجمعا في بياكنزا بإيطاليا، ودعا إليه الأساقفة من إيطاليا، وبورجندي، وفرنسا، وألمانيا، وبافاريا، وغيرها من البلاد، لمناقشة بعض أمور تتعلق بالكنيسة وإدانة البابا المضاد الذي عينه الإمبراطور هنري الرابع. وقد حضر هذا المجمع عدد من كبار الزعماء العلمانيين مما يكشف عن مدى نجاح أربان الثاني في توطيد مركزه. وقد مثلت سفارة من القسطنطينية أمام هذا المجمع ومعهم طلب من الإمبراطور البيزنطي إلى البابا لكي يحث المحاربين الغربيين على مساعدة الإمبراطورية الشرقية. وبالفعل خطب البابا في الجماهير المحتشدة في الحقول المفتوحة، والتي لم يكن ممكنا أن تستوعبهم أي كنيسة، وطلب من الموجودين أن يقدموا للإمبراطورية الشرقية كل مساعدة ممكنة.[104]

ولم يكن هناك سوى مصدر واحد عن مجمع بياكنزا هو المؤرخ برنولد الكونستاسي (Bernold of Constance)[105]، ولكن هذه الرواية التي يتقبلها المؤرخون باعتبارها رواية صادقة تأكدت من خلال مصدر آخر وهو عبارة عن حولية بيزنطية من القرن الثالث عشر الميلادي، تم اكتشافها منذ نصف قرن مضى تقريبا. وقد أكدت هذه الحولية رواية برنولد، كما أوضحت أن

الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس كومنينوس قد طلب النجدة من مجمع بياكنزا، كما ركز أيضا على طلب النجدة لمدينة بيت المقدس، لأنه كان يرى أن استخدام اسم القدس سيكون له وقع حسن من حيث الدعاية في أوروبا الغربية. بيد أن الإمبراطور كان يحلم باستعادة الأناضول من الأتراك السلاجقة، ولم يكن يفكر في شن حملة صليبية. لقد كان الإمبراطور يريد بعض المرتزقة في أعداد قليلة تنضم إلى جيشه بحيث يمكن السيطرة عليها، ولكنه لم يكن يتوقع تلك الجيوش الضخمة التي كونت الحملة الصليبية الأولى.[106] على أي حال تقول الرواية: إن البابا جعل الحاضرين يقسمون على الذهاب لمساعدة الإمبراطور البيزنطي بكل ما في وسعهم من قوة.

ولابد من أن فكرة الدعوة إلى حملة صليبية، على النحو الذي تم في كليرمون بعد عدة أشهر قليلة، قد اختمرت في وجدان البابا وعقله خلال الرحلة من إيطاليا إلى فرنسا. وهكذا كان الموقف عشية الحملة الصليبية، إذ وجدت البابوية ذريعتها النهائية في هذه السفارة البيزنطية إلى بياكنزا، وكانت القوى الاجتماعية في الغرب الأوروبي جاهزة لكي تنفذ دعوة البابا.

ترى ماذا كانت أحوال الشرق العربي الإسلامي آنذاك؟

عشية الحروب الصليبية كان التمزق السياسي والتناحر العسكري مخيما على العالم العربي. وفي ظل هذه الظروف نجح الصليبيون في زرع إمارتهم ومملكتهم. لقد انتصرت الحملة الصليبية الأولى بفضل هذا التمزق وحاز الفرنج انتصاراتهم الأولى، وتم محو الإمارات العربية والإسلامية الصغيرة في بلاد الشام، واحدة تلو الأخرى في طيات الموجة الصليبية. وكانت إمارة سلاجقة الروم، وعاصمتها نيقية، أوال ضحايا التشرذم السياسي من جهة، والهجوم الصليبي من جهة أخرى، ثم تلتها بقية الإمارات. ولنعرض لهذا بشيء من التفصيل.

ففي النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كان المسلمون في المنطقة العربية موزعين في ولائهم السياسي بين الخلافة العباسية السنية في بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة. وبالإضافة إلى النزاع والتخاصم بين الخلافات فإن أحوالهما الداخلية كانت مرتبكة بالقدر الذي جعل بلاد الشام-وهي المجال الحيوي الذي تنازعت الخلافتان السيادة عليه-موقعا بين عدة إمارات صغيرة. فقبيل الحملة

الصليبية الأولى كانت كل مدينة كبيرة في بلاد الشام تقريبا إمارة مستقلة تحت حكم حاكم عربي، أو من الأتراك السلاجقة. وكانت مشاعر الحقد والشك المتبادلة بين هذه الكيانات السياسية الصغيرة سببا في العداء السياسي والعسكري الذي سبب تنافر هذه القوى وعدم توحدها في مواجهة الغزو الصليبي.

كانت الأحوال السياسية الداخلية في الخلافة العباسية قد جعلت الخلافة رهينة لدى البويهيين الشيعة. وفي سنة 447 هـ (1055 م) نجح السلاجقة، بزعامة طغرل بك، في القضاء على النفوذ الشيعي في بغداد بعد قتل البساسيري الذي أراد أن يحدث انقلابا سياسيا لصالح الخلافة الفاطمية من داخل عاصمة الخلافة العباسية.[107] حقيقة أن هذه الواقعة كانت بمثابة الدفعة التي أنعشت الخلافة العباسية بفضل الحيوية العسكرية للأتراك السلاجقة، ولكن الفاتحين الذين جاءوا منقذين سرعان ما بدءوا يتصرفون باعتبارهم غزاة، مثلما يحدث غالبا.

لقد صارت المنطقة بين خراسان وبلاد الشام وحدة سياسية واحدة تتبع الخليفة العباسي اسميا، ولكنها تدين بالخضوع الفعلي لسلطة سلاطين السلاجقة العظام (طغرل بك، ألب أرسلان، وملكشاه). ومنذ وقت مبكر اتجه السلاجقة نحو الشمال والغرب على حساب الأرمن والبيزنطيين والفاطميين. وفي الوقت الذي كانت قوات ألب أرسلان تضرب فلول الجيش البيزنطي بعد أسر الإمبراطور المهزوم رومانوس ديوجينيس في ملاذكرد سنة 1071 م، كانت قوات أحد القادة التركمان قد استولت على بيت المقدس من الفاطميين، وهو «أتسز بن أوق».[108]

وفي سنة 470 هـ/1077م عين ملكشاه أخاه تاج الدين تتش واليا على الأجزاء التي استولى عليها السلاجقة في بلاد الشام،[109] وفوض إليه مهمة الغزو مستقبلا في هذه المناطق، كما عين سليمان بن قتلمش واليا على بلاد الروم (أي آسيا الصغرى). وقد أدى هذا الاتجاه إلى استمرار التوسع السلجوقي في بلاد الشام على حساب الفاطميين والقوى المحلية، وفي آسيا الصغرى على حساب البيزنطيين.

وبعد حصار فاشل ضد حلب قاده جيش تتش مع حليفه أمير الموصل «شرف الدولة مسلم العقيلي» استطاع هذا الأخير أن يقتنص المدينة لنفسه

من آخر أمرائها أبو الفضائل سابق بن محمود آخر الأمراء المرداسيين الذين ظلوا يحكمون حلب حوالي نصف قرن من الزمان.[110] وهكذا قامت في حلب إمارة قصيرة العمر سنة 1079 م. وقد أورد ابن القلانسي هذا الخبر بصورة مقتضبة للغاية، إذ قال في حوادث سنة 472 هـ « .. فيها تسلم شرف الدولة مسلم بن قريش حلب».[111]

من ناحية أخرى كان الأمير التركماني أتسز قد استولى من الفاطميين على معظم أنحاء فلسطين. وفي سنة (468 هـ/ 1076 م) كانت دمشق تعاني من تدهور اقتصادي وغلاء فاحش في الأسعار، ونقص في الأقوات اقترب من حافة المجاعة، مما اضطر أهلها إلى تسليم المدينة إلى أتسز بالأمان.[112] وقد أغرى هذا النصر أتسز بالسير إلى مصر لمحاولة الاستيلاء عليها والقضاء على الخلافة الفاطمية، ولكن أمير الجيوش بدر الجمالي ألحق به هزيمة منكرة. «وأفلت هزيما بنفسه في نفر يسير من أصحابه». ثم وصل دمشق.. وبعدها جاءت أخبار وصول تتش إلى بلاد الشام، وبذلك صارت دمشق إمارة سلجوقية.[113]

ودار الصراع بين سلاجقة الشام، بقيادة تتش، وسلاجقة الروم، بقيادة سليمان بن قتلمش حول السيادة على حلب. وانتهى القتال سنة 479 هـ/ 1086 م بمصرع سليمان وتحول حلب إلى إمارة سلجوقية. وكان من النتائج السلبية لمصرع سليمان بن قتلمش ازدياد حدة التفكك والتشرذم السياسي بين السلاجقة.

ولسنا نقصد أن نتتبع تفاصيل الأحداث السياسية والعسكرية الكثيرة والمتشابكة المتلاحمة في الفترة السابقة على الحملة الصليبية الأولى، لأن هذه الدراسة لا تهتم بهذه الأحداث في حد ذاتها، وإنما تهتم بإبراز الحقيقة القائلة إن المنطقة العربية في أخريات القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي كانت نهبا للمعارك بين الحكام الكثيرين الذين اقتسموا حكم مدنها وأقاليمها بصورة فسيفسائية مربكة.

فالخلافة الفاطمية كانت قد دخلت مرحلة التدهور السياسي الداخلي بعد أن سيطر الوزراء العظام على الخلفاء، وحولوهم إلى دمى يحركونها كيفما شاءوا. وعلى الرغم من محاولاتهم العسكرية المتكررة إلا أن الفاطميين فشلوا في استرداد نفوذهم الضائع في بلاد الشام. وكانت الخلافات

السياسية والمعارك العسكرية تشتعل بينهم وبين الأتراك السلاجقة حماة الخلافة العباسية الطامحين إلى ضم الشام ومصر تحت رايتها، كما كانت هناك منازعات بين السلاجقة والسلاجقة، وبين السلاجقة وحكام الإمارات العربية... وهكذا.

فعندما وصل الصليبيون إلى المنطقة كانت هناك إمارة في حلب يحكمها رضوان (1095- 1113 م) الموالي للفاطميين، وكان العداء مستحكما بينه وبين إمارة دمشق التي يحكمها دقاق الموالي للخلافة العباسية السنية (1095-1104م)، أما إمارة شيزر على نهر العاصي قرب حماة فكانت تحت حكم بني منقذ، الذين برز منهم الفارس المؤرخ الشاعر «أسامة بن منقذ»، على حين كانت طرابلس تحت حكم بني عمار الشيعة، أما بيت المقدس فقد ظلت بأيدي السلاجقة حتى استعادها الفاطميون في سنة 1098 م أثناء وجود الصليبيين في إنطاكية، ولكنهم لم يلبثوا أن فقدوها بعد مذبحة مروعة ارتكبها الصليبيون الأوائل بعد أن استولوا على القدس التي كانت هدف رحلتهم ذات الألف ومائتي ميل. أما مدن الشمال في آسيا الصغرى وأعالي بلاد الشام، والتي أخذت تنتقل من حكم البيزنطيين إلى حكم المسلمين، ثم العكس، بطريقة تبادلية وإيقاع سريع، فكانت ضحية التخريب والتدهور السكاني.

لقد كانت هذه الكيانات السياسية المتصارعة كلها متورطة تماما في الحروب والمنازعات على مدى قرن كامل قبل قدوم الصليبيين. وعندما قدموا لم يكن لدى الحكام سوى ميراث طويل من الشك والمرارة تجاه كل منهم للآخر. ومن ثم مضت قوات الصليبيين كما تمضي السكين في الزبد. وفي طيات الموجة الصليبية الأولى غرقت هذه الإمارة الصغيرة واحدة تلو الأخرى. وكان سقوط مدينة نيقية في أيدي قوات الحصار المشتركة من الصليبيين والبيزنطيين صدمة ونذير خطر لجميع القوى الإسلامية، ولكن الأنانية وضيق النظر جعل تلك الصدمة، وذلك النذير بلا فائدة.

المراجع

(1) يرى البعض أن العصور الوسطى العالية (High Middle Ages) هي العصور الوسطى الحقيقية ؛ لأنها الفترة التي تكشف عن الخصائص والأخلاقيات والمثل التي تنطبق بحق على مفهوم العصور الوسطى. أنظر: نورمان كانتور، التاريخ الوسيط، جـ 2، ص 321- 328.
انظر أيضا

Morris Bishop, The Pelican Book of the Middle Ages, (Great Britain 1978), pp. 45- 84; Philippe Wolf, the Awakening of Europe (transl. by Anna Carter, Penguin, 1968), p. 208; Hoyt and Chodorow, Europe in the Middle Ages, pp.304- 310.

(2) كانتور، التاريخ الوسيط، جـ 1، ص 312-318.

(3) Sidney Painter, "Western Europe on the eve of the Crusades", in Setton (ed.), A Hist. of the Crusades, I, pp. 3- 5; Hilmar C. Krueger, "The Crusades and European Expansion", in: James A. Brudge (ed.), The Crusades-Motives and Achievements, (Boston, 1964), pp.59.

(4) Painter, "Western Europe", p.3.

(5) كانتور، التاريخ الوسيط، جـ 1، ص 313 ؛ جـ 2، ص 329.

(6) R.W. Southern, The Making of the Middle Ages, (London,1973),pp74-75

(7) Wolff, The Awakening of Europe, pp. 198- 202; Painter "Western Europe", pp.8- 9.

(8) Painter, "Western Europe", pp. 5- 6; Colton, The Medieval Scene,pp.33- 34.

(9) لدينا نص عبارة عن حوارات أحد السادة الإقطاعيين وواحد من الأقنان العاملين في أرضه، يتحدث عن عدة حرف في القرية الأوروبية آنذاك، منها: الفلاحة، ورعي الأغنام، وتربية البقر والثيران، فضلا عن صيد السمك، وبعض الحرف الصغيرة المطلوبة في القرية-انظر:

Wright, Thomas, Anglo-Saxon and Old English Vocabulary (London,1984), vol. I,p.88.

انظر الترجمة العربية الكاملة للنص: قاسم، الحروب الصليبية-نصوص ووثائق، ص 68- 70.

(10) Painter "Western Europe", p. 5: Norman Cohn, The Appeal of the Crusades for the poor", in Brundage
(ed.), The Crusades, pp.35- 36.

(11) Maurice Keen, The Pelican History of the Middle Ages, (Penguin 1971), p. 123: The Mayer, The Crusades, p. 22: Marc Bloch, Feudal Society (Chicago, 1961), pp. 72- 73: Cohn "The Appeal of the Crusades", p.36.

(12) Wolff, The Awakening of Europe, p.202: Colton, The Medieval Scene, pp.33- 34.

(13) Saidney Painter, "Western Europe", p.6.

(14Southern, The Making of the Middle Ages, pp.96- 97.

(15) Colton, Medieval Scene, pp.23- 26.

(16) Painter, "Western Europe", p.6: Colton, Medieval Scene, pp22-23. Keen, The Pelican Book, p.58.

انظر أيضا: قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص 94- 95.

(17) Painter, op. cit., p.7.

(18) كانتور، التاريخ الوسيط، ج ا، ص 272- 279

(19) Painter, op. cit., p.8.

(20) Ibid, pp.8- 9.

(21) Bishop, The Pelican Book of the Middle Ages, pp.254- 55.

(22) Marc Bloch, Feudal Society, pp. 81: Wolff, The Awakening of Europe pp. 116-118: Rene Grousset, Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, (Paris, 1934), I, p.11.

(23) Boase, Kingdoms and Strongholds of the Crusaders, (London,1971), pp. 16-17: Bishop, op. cit., p.105.

قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص 122-126.

(24) خطاب أربان الثاني إلى أتباعه في برلوني (15 سبتمبر 1096م)، الترجمة العربية، انظر: قاسم، الحروب الصليبية-نصوص ووثائق، ص 91.

(25) خطاب أربان الثاني إلى رهبان دير فالومبروسا (7 أكتوبر 1097 م) الترجمة العربية، قاسم، المرجع السابق، ص 92.

(26) Frederic Duncalf "The First Crusade: Clermont to Constantinople", in Setton, I,254- 55.

(27) Grousset, Histoire des Croisades, I, pp.11- 12.

(28) وصف سيجبير (Sigebert de Geembloux) سنة 1095م بأنها «سنة مصائب، انتشرت المجاعة في كل مكان، وأخذ الفقراء يهاجمون الأغنياء لسرقتهم وأشعلوا النيران في ممتلكاتهم». انظر:

Boase, Kingdoms and Strongholds, pp. 16- 17; Bradford. The Sword and the Scimitar-The Saga of the Crusades, (London, 1974), pp.30- 31.

(29) Mayer, The Crusades, pp. 12- 13: Runciman, A Hist. of the Crusades, I, p.115.

(30) انظر ما سبق في الفصل الأول من هذه الدراسة.

(31) كانتور، التاريخ الوسيط، جـ١، ص 275- 283.

(32) الملحمة الفرنجية الكبرى «راؤول دي كامبري» (Raoul de Cambrai) كتبت في صورتها المعروفة حاليا في مطلع القرن الثاني عشر الميلادي، بيد أنها بنيت على أساس من الأحداث التاريخية، وعلى الرغم من أنها قطعة من الأدب الشعبي الفرنسي الباكر إلا أن المؤرخ يمكن أن يجد فيها إشارات حقيقية عن سلوك النبلاء الأوروبيين وقيم أبناء هذه الطبقة ومواقفهم. انظر:

Raoul de Cambrai, (transl. by J. Grossland, London,1926).

انظر الترجمة العربية لبعض أجزاء الملحمة قاسم، الحروب الصليبية، ص 57-65.

(33) عن حكم أسرة كابيه في فرنسا، انظر: كانتور، التاريخ الوسيط، جـ2، ص 542- 549.

(34) اشتق اصطلاح فصل (Vassal) من كلمة كلتية معناها «ولد» أو«صبي». وهذا يعني أن أفصال القرنين السادس والسابع الميلاديين كانوا مجموعة من «الأولاد» أو «الصبيان»، أي جماعات البلطجية الدين يقاتلون رجالا من ذوي الشأن والمكانة لحساب رحل آخر من منطقة مجاورة. فقد كانوا أبعد ما يكونون عن الفرسان ذوي الشهامة الذين يصورهم الأدب الرومانسي.

(35) Painter, "Western Europe", pp.11-12.

(36) J. H. Robinson, Reading in European History, (Boston,1904), vol, I, pp.180-182.

(37) Fulbert of Charteson, The Duties of Lord and Vassal, in: Cantor (ed.), Med. World, pp.176- 177.

(38) كانتور، التاريخ الوسيط جـ ١، ص 279- 280.

(39) Bishop, The Pelican Book of the Middle Age, pp. Painter, "Western Europe", pp. 15- 16: A History of the Middle Ages-284- 1500 (New. 118. York, 1954), p.118.

(40) Charles, T. Wood, The Ages of Chivalry-Manners and Morals 1000(London,1970), pp. 100-101; Painter, "Western Europe", pp.15- 16; Bishop op. cit., p.85.

(41) Hoyt and Chodorow, Europe in the Middle Ages, pp.237- 238.

(42) انظر الفصل السابق.

(43) كانتور، التاريخ الوسيط، جـ ١، ص 281- 282؛

Bishop, op. cit., p. 45: Painter, "Western Europe", p.17.

(44) عن النزاع بين البابوية والإمبراطورية حول التقليد العلماني، انظر:

Hoyt and Chodorow, Europe in the Middle Ages, pp.292- 302; Barracloough, The Medieval Papacy, pp.77- 93.

وعن تأثير هذا النزاع على السلطة الملكية في ألمانيا وتحول البلاد إلى النظام الإقطاعي، انظر: كانتور، التاريخ الوسيط، جـ 2، ص 371- 374.

(45) كانتور، المرجع السابق، جـ 2، ص 375- 389.

(46) Benjamin W. Wheeler, "The Reconquest of Spain", pp.31- 40.

(47) Ralph Glaber, "Historiarum" in Bryce (eds.) The High Middle Ages, pp.35- 36.

(48) من المهم أن نشير إلى أن البابا استغل هذه النقطة وهو يخاطب الفرسان الفرنسيين في كليرمون-انظر رواية روبير الراهب الذي كان من بين حضور مجمع كليرمون:

Robert Rheims, "Historia Iherosolimitana", RHC, Occ., III, pp.727- 30.

انظر الترجمة العربية: قاسم، الحروب الصليبية، ص 77- 80.

(49) Painter, "Western Europe", p.23.

(50) Ibid, p.24.

(51) انظر الدراسة التفصيلية لدوافع الفرسان ؛ قاسم، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ص 119-122.

(52) Painter, op. cit., p.9.

(53) Bishop, op. cit., p.46.

(54), Painter, "Western Europe", p. 23: Bryce, The High Middle Ages,pp.15- 16.

انظر أيضا: كانتور: التاريخ الوسيط، جـ ١، ص 221- 222.

(55) عن لويد براند أسقف كريمونا (Luidprand of Cremond) الذي قام بسفارة إلى القسطنطينية لكي يخطب إحدى الأميرات البيزنطيات لابن سيده الإمبراطور الألماني أوتو الأول الكبير (936- 973 م)، انظر:

The Works of Luidprand of Gremona,(transl. by F. A. Wright, London,1930).

(56) Barraclough, The Med. Papacy, p.63.

(57) كانتور، التاريخ الوسيط، جـ ١، ص 303- 308.

Barraclough, The Med. Papacy, pp. 63- 66: Hoyt, Europe in the Middle Ages, pp. 279- 292: Bryce,

The Middle Ages, pp.15- 18.

(58) كانتور، التاريخ الوسيط، جـ ١، ص 303- 308.

(59) كان هنري الثالث صديقاً حميما لأوديلو (Odilo) مقدم دير كلوني. وقد كان عهد هذا الإمبراطور نقطة انطلاق بالنسبة لحركة الإصلاح الكلونية. عن تفاصيل التطورات التاريخية لحركة الإصلاح راجع: كانتور، التاريخ الوسيط، جـ ١، ص 305 وما بعدها.

(60) انظر نص المرسوم:

Henry Bettenson, Documents of the Christian Church, (London,1950) pp. 140- 141: (ed.), The High Middle Ages, pp.88- 9.

(61) كانتور، التاريخ الوسيط، جـ 2، ص 335- 374 ؛

Barraclough, The Med. Papacy, pp. 77- 93: Hoyt, Europe in the Middle Ages, pp. 292- 296: Southern, The Making of the Middle Ages, pp.134- 145; Painter, “Western Europe”, pp.25- 28.

(62) E. F. Henderson, Selected Historical Documents of the Middle Age,(London, 1896), pp. 366- 367: Cantor Medieval World, pp.195- 196)

الترجمة العربية لهذه الوثيقة: قاسم، الحروب الصليبية، ص 50- 52.

(63) Henry Betterson, Documents of the Christian Church, pp. 53- ff Bryce, The high Middle Ages, pp.90-92.

انظر الترجمة العربية: قاسم، الحروب الصليبية، ص 52- 54.

(64) لدينا وثيقة بتاريخ فبراير 1076 م تتضمن قرار البابا جريجوري السابع بخلع الإمبراطور هنري الرابع عن عرشه.

Bettenson, op. cit., pp.144- 143.

(65) انظر نص الوثيقة في:

Ephraim Emerton, The correspondence of Pope Gregory VII, selected letters from The Registrum (New York, 1932), pp.111.

(66) Bishop, The Pelican Book, pp. 53- 64; Southern, Making of the Middle Ages, p. 136; Barraclough, op. cit.87- 90.

(67) عن مدى مساهمة الألمان في الحملة الصليبية الأولى، انظر:

Henry Hagenmeyer, “Etudes sur la Chronique de Zimmern” Archives, de I‘Orient Latin, Tom. II, (Paris 1884), pp. 17- 25; Fulcher de Chartres p.62.

(68) Fulcher de Chartres, p.62.

(69) William of Tyre, A History of the Deeds done beyond the sea, (transl and annonated by Emily Atwater Babcock and A. C. Krey, Colombia University Press, 1943), vol. I, pp.85.

(70) عن عصر باسيل الثاني (Basil II) (976- 1025م) الذي عرف باسم سفاح البلغار (Bulgaroctonus)، انظر:

Michael Psellus, Fourteen Byzantine Rulers—The Chronographia of Michael Psellus, (translated with an introduction by E. R. A. Sweter Penguin (,Books, 1984),pp.27- 49.

انظر أيضا: وسام عبد العزيز فرج، دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية (الإسكندرية 1983)، ص 302- 328.

(71) Peter Charanis “The Byzantine Empire in the Eleventh Century”, in Setton, vol. I, pp.180-81.

(72) Psellus, Chronographia, pasoim

(73) Charanis, op. cit., pp.182- 187.

(74) عن الغزو النورماني لصقلية وجنوب ايطاليا، انظر:

Robert S. Lopez, “The Norman Conquest of Sicily”, in Setton, vol. I.pp.54- 67.

(75) Charanis, op. cit., p.188.

(76) Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. I, pp.. 67- 68;Charanis, op. cit., pp.188- 189.

(77) يذكر ابن القلانسي (ذيل تاريخ دمشق، ص 83) في حوادث سنة 436 هـ أن الأخبار وردت بظهور راية السلطان طغرل بك محمد بن ميكائيل بن سلجوق. «... وقوة شوكة الأتراك، وابتداء دولتهم، واستيلائهم على الأعمال وضعف أركان الدولة البويهية..».

وهذه أول إشارة عند ابن القلانسي إلى الأتراك السلاجقة.

(78) انظر ما يلي عند الحديث عن أحوال المسلمين، أيضا:

Claude Cahen, “The Turkish Invasion: The in Selchukids”, Setton, vol I, pp.135- 144.

(79) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 10، ص 65- 68 ؛ ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق، ص 87-89، ويذكر أنه يسمى البساسيري «الفساسيري». وينسب إليه انه كتب إلى الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، «.. يذكر له كونه في طاعته وإخلاصه في موالاته وعزمه على إقامة الدعوة له بالعراق..».

(80) عن عهد هذا الإمبراطور، أنظر: Psellus, op. cot., pp 162- 259.

(81) Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. I, pp. 60- 61; Charanis, “The Byzantine Empire”, pp.188-189.

(82) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 1، حوادث 456 هـ ؛

Runciman, op. cit., vol. I, pp. 62- 63; Charanis, op. cit., pp.190-191.

(83) Psellus, Chronographia, pp.350- 366.

(84) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 10، ص 65- 67.

(85) يقول ابن القلانسي: (.. وقتل من عسكر الروم الخلق الكثير بحيث امتلأ واد هناك عند التقاء الصفين 00) 0 انظر: ذيل تاريخ دمشق، ص 99 ؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 185 ؛ أومان، الإمبراطورية البيزنطية (تعريف مصطفى طه بدر، القاهرة 1953)، ص 195- 199.

(86) Psellus, op. cit. pp.355- 356.

(87) Charanis, “The Byzantine Empire”, 192- 193; Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. I, pp. 62-63;Chroniques de Michel le Syrien (editee et traduite Par J. B. Chabot) III, p.

(88) Charanis, op. cit., pp. 200-206; Runciman, op. cit., vol. I, p.65.

(89) Anna Comnena, The Alexiad, (translated from the Greek by E. R. A Sewter, Penguin Books, 1969), p.157.

(90) Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. I, p.71.

(91) Anna Comnena, The Alexiad, pp.135- 137.

(92) عن حروب أليكسيوس ضد النورمان، انظر:

Anna comnena, The Alexiad, pp. 135- 215; Runciman, A History of the Crusades, pp. 73- 75; Charanis,

"the Byzantine Empire", p.215.

(93) Charanis, op. cit., p.215.

(94) يعتبر سليمان بن قتلمش المؤسس الحقيقي لدولة سلاجقة الروم التي استمرت موجودة حتى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وقد عينه ملكشاه واليا عليها. انظر: احمد كمال الدين حلمي، السلاجقة في التاريخ والحضارة (الكويت 1986)، ص 39- 40.

(95) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 117.

(96) Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. I, p.74.

(97) أبن القلانسي، المصدر السابق، ص 118- 119 ؛ أحمد كمال الدين حلمي، السلاجقة، ص 40- 41.

(98) Charanis, "The Byzantine Empire", p.215- 216.

(99) عن هذا الموضوع، انظر: إسحق عبيد، روما وبيزنطة-من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني قسطنطين 869- 1204- (القاهرة، 1970م)، ص 25- 39.

(100) انظر الوثائق إلى تتضمن مراسلات جريجوري السابع بهذا الشأن وهي ست وثائق:

Archives de I'Orient Latin, tom I, pp.56- 61.

(101) Charanis, "The Byzantine Empire", pp. 217- 218; Mayer, The Crusades, p. 8; Frederic Duncalf, "The Councils of Piacen and Clermont," in Setton, I, p.266.

قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص 114- 115.

(102) انظر الترجمة العربية لهذا الخطاب في:

جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، (دار المعارف، الطبعة الثانية، 1967)، ص 307- 309.

انظر أيضا، ص 52- 54 من الكتاب نفسه

انظر أيضا النص الأصلي:

Hagemmeyer (ed.), Epistolae et Chartae ad Historiarum Belle Sacri Spectantes (Heidelburg, 1901), pp.129- 136.

AOL, tom. II,pp. 101-105.

(103) انظر نص الخطاب في:

وأيضا: قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص 115- 116، وعن حقيقة المساعدة العسكرية التي طلبها أليكسيوس من البابا انظر: Duncalf, "The Councils", pp. 227-28

(104) Mayer,The Crusades, p. 8; H. Hagenmeyer, "Etudes sur la Chronique de Zimmern", en AOL, tom. II, pp. 66- 67; Dunca "The Councils of Piocenza and Clermont", pp. 228- 229; Runciman, A History of the Crusades, I, pp.103- 105.

(105) Bernold of St. Blaise, Chronicom (Monementae Germany Historiarum, SS., V)

وقد مات بونولد هذا سنة 1100م.

(106) عن هذا الموضوع انظر المناقشة التفصيلية لدانا مونرو:

D.C. Munro "Did the Emperor Alexius I ask for Aid at the Council of Pia Cenza?" American Historical Review, XXVII, (1922), pp.731- 733 of Mayer, The Crusades, p. 8; Duncalf, op.cit.,pp229-230

(107) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 87- 89.

(108) المصدر نفسه، ص 98- 99 ؛

Claude Cahen, “The Turkish Invasion”, p.144.

(109) أحمد كمال الدين حلمي، السلاجقة، ص 38- 39.

(110) سعيد عاشور، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت، 1972، ص 58- 59.

(111) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 113.

(112) المصدر نفسه، ص 108- 109.

(113) المصدر نفسه، ص 109- 112.

(114) المصدر نفسه، ص 118- 119.

3 الحملات الصليبية: عرض تاريخي

أحداث الحملة الصليبية الأولى-الكيان الصليبي-رد الفعل العربي الإسلامي-عماد الدين زنكي وتحرير الرها-الحملة الثانية-نور الدين محمود وتوحيد الجبهة العربية الإسلامية-حطين وتحرير القدس-الحملة الصليبية الثالثة-خلفاء صلاح الدين والتشرذم السياسي-الحملة الرابعة-الحملة الخامسة-فردريك الثاني والكامل الأيوبي-الحملة السابعة وقيام دولة سلاطين المماليك-نهاية الوجود الصليبي في فلسطين.

كليرمون في السابع والعشرين من نوفمبر سنة 1095 م

هذه المدينة الصغيرة في الجنوب الفرنسي أصبحت رمزاً إلى بداية أكبر حركة في تاريخ الغرب الأوروبي في العصور الوسطى، كما أن هذا اليوم من شهر نوفمبر كان يمكن أن تطويه سجلات النسيان التي تطوي أياما كثيرة متشابهة، بيد أنه صار نقطة البداية لهذه الحركة التي مثلت ظاهرة تاريخية فذة لا تزال تغري المؤرخين والباحثين بدراستها.

كان البابا أربان الثاني قد أعد خطبة احتفالية بمناسبة انتهاء الأعمال التي ناقشها مجمع كليرمون على مدى الأيام التي مضت منذ بداية انعقاده في اليوم الثامن عشر من شهر نوفمبر. ويبدو أن البابا الذي أعد نفسه للدعوة إلى حملة مقدسة تحت راية الصليب قد استعد لهذا اليوم الاستعداد الذي يضمن له النجاح إذ إنه طلب من الأساقفة ومقدمي الأديرة الفرنسيين أن يدعوا كبار الأمراء الإقطاعيين في مناطقهم لسماع البابا. وقد حفظ الزمن عدة وثائق تتضمن مراسلات البابا بهذا الشأن.[1] ويبدو أن الاستجابة كانت مرضية إلى حد بعيد؛ فقد حضر عدد من الفرسان والنبلاء الإقطاعيين، كان أبرزهم ريمون الرابع، كونت تولوز، الذي اشتهر عادة باسم ريمون السانجيلي (Raymond de Saint-Gille) الذي حرص على أن يرسل للبابا من يخبره مسبقا بأنه سوف يحضر لكي يستمع إلى خطبته.[2] ومن المفهوم أن هناك عددا كبيرا من الحضور قد جذبتهم فكرة أن البابا وكبار كرادلته سوف يتواجدون في هذا الحفل الخطابي، وهو أمر كان نادر الحدوث في تلك العصور على أي حال.

وفي حقل فسيح بين تلال أوفريني (Auvergne) خارج مدينة كليرمون احتشد جمع غفير من الناس، كنسيين وعلمانيين، لسماع البابا. ولم يخيب البابا ظنون الحاضرين أو توقعاتهم ؛ فإن كلماته الحماسية داعبت أوتارا حساسة لدى جميع الحاضرين.

ولسنا نملك نصا موثقا لخطبة البابا في كليرمون. وعلى الرغم من أن ثلاثة مؤرخين عاصروا أحداث الحملة الصليبية الأولى، هم المؤرخ المجهول الذي كتب «أعمال الفرنجة-Gesta Francorum»، وفوشيه الشارتري، وريمون الأجويلري إلا أن فوشيه هو الوحيد من بينهم الذي سجل ما حدث في كليرمون.[3] وكان هناك ثلاثة مؤرخين آخرين، حضروا كليرمون، لكنهم لم يكتبوا عن المجمع إلا بعد نهاية القرن، وبعد نجاح الحملة الصليبية الأولى ؛ وهم بلدريك الدوللي، وروبير الراهب، وجيوبرت النوجنتي[4]، ومن ثم فإن الكلمات التي وضعها أولئك المؤرخون اللاتين على لسان البابا أربان الثاني في كليرمون تعكس ما وقع من أحداث تاريخية بالفعل بعد الحملة الأولى ونجاحها أكثر مما تنقل لنا كلمات البابا.

بيد أن هذه الروايات تتفق في عدة أمور تجعلنا نرجح أن البابا أربان

الثاني قد ضمنها خطبته بالفعل.[5] ويمكن أن نرجح من قراءة نصوص الروايات التي أوردها المؤرخون حول خطبة البابا في كليرمون أولا أنه كان يدعو إلى حملة مقدسة هدفها فلسطين، اعتمادا على نصوص وردت في الأناجيل المسيحية، وأهمها نص من إنجيل لوقا يقول: «ومن لا يحمل صليبه ويأتي ورائي فلا يقدر أن يكون لي تلميذا».[6] وثانيا، أنه كان يدعو إلى هذه الحملة المسلحة المقدسة باسم الرب بوصفه نائبا عنه في الأرض،[7] فقد ذكر فوشيه أن البابا خاطب المستمعين قائلا: «.. ومن ثم فإنني، لست أنا، ولكن الرب هو الذي يحثكم باعتباركم وزراء المسيح أن تحضوا الناس من شتى الطبقات..». كما ذكر روبير الراهب، وبلدريك الدوللي، ووليم الصوري كلاما مشابها.[8]

لقد تحدث أربان بهذه الصفة ليحث الفرسان على شن الحرب في سبيل المسيح، وبرر هذه الحرب بأن هدفها أن تحرر الكنيسة الشرقية من ربقة المسلمين، وأن تخلص الأرض المقدسة من سيطرتهم، هذه الأرض التي وصفها الكتاب المقدس بأنها الأرض التي ستفيض باللبن والعسل، ووصفها أربان الثاني بأنها ميراث المسيح.[9] وثالثا: امتدح البابا شجاعة الفرنج كما امتدح قدراتهم القتالية، وذكرهم بأسلاف أمجادهم، ولكنه أدان حروبهم بعضهم ضد بعض، واقتتالهم المستمر، وحثهم على نبذ المنازعات وعدم إراقة الدماء المسيحية مقارنا بين الفارس الجديد الذي يحب المسيح ويحمل صليبه، ويحب جاره ويناضل من أجل تحريره، والفارس القديم الذي كان يسعى وراء طموحاته الخاصة وأطماعه الشخصية ؛ فيصب العنف على إخوانه المسيحيين.[10] ورابعا: أشار أربان الثاني إلى منح غفران جزئي لكل من سيشارك في هذه الحملة، سواء مات في الطريق إلى الأرض المقدسة، أو قتل في الحرب ضد المسلمين.

والواقع أن خطبة البابا العاطفية الحماسية، بما تخللها من تلويح بالمكاسب الدنيوية وترغيب في المكاسب الدينية، لقيت استجابة فورية وهائلة من الحاضرين. ولم تكن الاستجابة ناتجة من فصاحة البابا وقوة بيانه، بقدر ما كانت تعبيرا عن أن البابا طرح أمام أبناء الغرب الكاثوليكي مشروعا طال انتظارهم إياه. فقد كانت الدعوة إلى القيام بالحملة الصليبية دعوة تناسب العصر تماما ؛ إذ كان المجتمع الإقطاعي بغطرسته وكبريائه، وتعصبه

ضد غير الكاثوليك، على أتم الاستعداد لتلبية مثل هذا النداء الذي يحل مشكلته في الدنيا، ويضمن له المغامرة والكسب، مثلما يضمن له خلاص الروح.

وتجسدت الحماسة العاطفية التي أيقظتها كلمات البابا في صيحة رددها جمهور الحاضرين في ذلك الحقل الفسيح Deus lo volt[11] (أي الرب يريدها). ومنذ ذلك الحين باتت تلك هي صرخة الحرب التي رددها الصليبيون في كل معاركهم ضد المسلمين. وسارع الكثيرون إلى البابا يقسمون أمامه على القيام بالرحلة، كما أخذ كثيرون يخيطون صلبانا من القماش على ستراتهم رمزاً لأخذهم شارة الصليب على نحو ما يحكي فوشيه.[12] وقد تم الاعتراف بجميع الفرسان الذين أقسموا على الذهاب جنودا في جيش الرب في احتفال رمزي. وصار الصليب شارة لكل فارس في كل حملة صليبية. وباعتباره رمزا فقد كان له مغزى مزدوج: أولا: كان علامة على الحماية الإلهية، أي علامة تدل على أن حاملها ينتمي إلى جماعة خاصة: جماعة من الحجاج الذين تمتعوا بامتياز حمل السلاح. وثانيا: كان الصليب إشارة قانونية، تدل على الامتيازات الدنيوية، لأن الكنيسة أصدرت مراسيم غاية في الأهمية لصالح الصليبيين. فأثناء فترة غيابه تعفي أملاك الصليبي من الضرائب. وعادة ما كان يمنح تسهيلات في الديون التي يدين بها، لا سيما أن تكاليف الرحلة قد اضطرت كثيرين إلى الاستدانة إما من أقاربه ومعارفه، وأما من الكنيسة.[13]

ومن ناحية أخرى، كان توزيع الصلبان القماش على الفرسان عملية قصد بها البابا ورجال الكنيسة استبعاد العناصر غير المحاربة من الانضمام للحملة الصليبية. ويبدو أن البابا قد انزعج من الاستجابة الحماسية والسريعة من جانب الفئات غير المحاربة في المجتمع الأوروبي آنذاك. وقد بذل عدة محاولات لمنع أولئك من الذهاب.[14] بيد أن حماسة الفقراء (paupers) للسير على طريق الخلاص الجديد الذي بناه الرب كانت أكبر من كل محاولات البابا[15]. وترسم لنا المصادر التاريخية المعاصرة كيف أن الغرب الأوروبي بدأ في ذلك الوقت يتحرك كله استعدادا للخروج»... كافة ممالك الأرض كانت تتحرك... كما يقول فوشيه، و « ... جميع مناطق الغرب لم يكن هناك منزل خال...» لأن الكل كل يستعد للرحيل، كما يقول وليم

الصوري.

وقد تركت هذه الحركة العامة الهائلة أصداءها في الأدب الشعبي الأوروبي، بحيث وجدنا الملاحم الشعرية، وأغاني الحروب الصليبية، تتحدث فيما بعد عن مدى استجابة الناس في أوروبا الكاثوليكية لدعوة أربان الثاني.[16] ومن المهم أن نشير هنا إلى أن الحملة الصليبية قد جاءت في زمن ازدهر فيه الشعر الشعبي في فرنسا، وكانت قصص التاريخ التي تروى شعرا وغناء بمثابة البديل من الكتاب في زمن ندر فيه عدد من يعرفون القراءة، كما كانت وسائل النشر محدودة للغاية.

على أي حال تم تحديد الخامس عشر من شهر أغسطس في العام التالي (1096 م) موعدا لرحيل الحملة، حين تكون المحاصيل قد جمعت من الحقول، أما مكان اللقاء فكان هناك قي مدينة قسطنطين الحصينة على ضفاف البوسفور. ثم عين الأسقف أديمار دي مونتي (Addemar de Monteil) أسقف لوبوي Le Puy قائدا للحملة، أو مندوبا عن البابا الذي أراد أن يوضح أن الحملة يجب أن تكون تحت السيطرة البابوية.

وعلى مدى ثمانية شهور بعد كليرمون أخذ البابا أربان الثاني يتنقل بين أنحاء الغرب والجنوب الفرنسي، داعيا إلى حملته الصليبية في محاولة لأن يجند لها أكبر عدد من الفرسان والأمراء البارزين بعد أن رأى أن عدد الحاضرين من كبار الأمراء الإقطاعيين في كليرمون كان قليلا. وقد رأى رنسيمان في ذلك أن خطط أربان لم تنجح تماما.[17] وربما كان ذلك سببا من أسباب بقاء أربان في فرنسا طوال هذه الشهور الثمانية، وربما كان ذلك أيضا حافزا على مواصلة الدعوة إلى الحملة الصليبية بوسائل تعددت بين المجامع الدينية، والخطابات التي يوجهها هنا وهناك، ثم تكليف رجال الكنيسة والرهبان الكلونيين (الذين كان هو نفسه واحدا منهم) بالدعوة إلى هذه الحملة[18] وقد أشار المؤرخ فوشيه الشارتري، الذي كان واحدا من شهود كليرمون، صراحة إلى أن البابا قد كلف القساوسة بالترويج لهذه الدعوة.[19]

وفي هذه الأثناء كان الفرسان عاكفين على تدبير الموارد اللازمة لرحيلهم في الموعد الذي تحدد في كليرمون، ومن قلاع السادة الإقطاعيين تسربت الأنباء إلى الفلاحين الذين أهاجهم ما نقلى إليهم من كلام البابا محملا

بالمبالغات المعهودة، والتفسيرات العاطفية التي صادفت رغبة الفلاحين في التخلص من ربقة الإحباط والجزع، ومن نير القنانة وسيطرة سادتهم الإقطاعيين. وسرعان ما سرت أخبار المشروع البابوي بشن حملة مقدسة، تحت راية الصليب ضد المسلمين في الشرق العربي، لتخليص القدس وتحرير المسيحيين الشرقيين مسرح النار في الهشيم. وكانت الاستجابة الشعبية أكبر من كل التوقعات. ففي أنحاء فرنسا، وفي الأراضي الواطئة، وألمانيا، وغرب إيطاليا ترددت أصداء الخطبة التي ألقاها أربان الثاني في كليرمون في السابع والعشرين من نوفمبر 1095 م.

وإذا كانت استجابة النبلاء والفرسان الإقطاعيين متوقعة إلى حد ما[20] فإن ما ظهر من استجابة جماهير العامة فاق كل التوقعات. إذا كان الجو الفكري والنفسي، والظروف الاجتماعية البائسة وراء هذه الاستجابة الشعبية المذهلة.[21] لقد فهم الناس في غرب أوروبا آنذاك دعوة أربان على أنها فرصة لمستقبل جديد وحياة أفضل في الشرق المقدس، وفرصة لضمان الخلاص في يوم الدينونة إذا مات الإنسان وهو على الطريق صوب هذا الشرق المقدس. وربما يكون الفقراء (Pauperes) قد وقعوا في شباك الطمع الدنيوي، وراودتهم الأحلام بامتلاك الضياع في فلسطين الأرض «التي تفيض باللبن والعسل».

لقد كان العامة من الفلاحين وفقراء أهل المدن يظنون أنفسهم أصفياء الرب لأنهم الفقراء. وكان هذا المظهر الديني العاطفي هو الذي ميز حركة الفقراء في غرب أوروبا وموقفهم تجاه دعوة البابا، بيد أن هذا التدين العاطفي نفسه كان سببا من أسباب ارتكابهم لأحط ضروب الجرائم، كما كشف عن أبشع الشرور الدنيوية والأطماع المادية حتى بمقاييس تلك العصور التي اتسمت بالقسوة والغلظة. ذلك أن الفقراء في الغرب الكاثوليكي كانوا يخلطون بين التدين العاطفي المتعصب وحقائق حياتهم التعسة في ظل المجتمع الإقطاعي.

لقد كانت استجابة الناس من أنحاء الطبقة الدنيا في غرب أوروبا سريعة وحماسية، وسرعان ما تكونت حركة شعبية ارتبطت باسم بطرس الناسك. لقد طلب البابا من الأساقفة أن يواصلوا الدعوة إلى الحملة الصليبية، ولكن تأثيرهم كان ضئيلا إذا قيس بتأثير المبشرين والدعاة

الفقراء الذين تشبهوا بالحواريين في فقرهم. وكان هناك عدد من هؤلاء الدعاة الحفاة أبرزهم روبرت الأربريسيلي (Robert d'Arbrissel) وبطرس الناسك.

كان بطرس الناسك[22] هذا راهبا في أميان، وهجر الدير بتكليف من البابا لكي يقوم بالدعوة إلى الحملة الصليبية. وفي شمال شرق فرنسا واللورين أمضى شتاء سنة 1095/1096 م يتجول من مكان لآخر داعيا إلى حملة البابا. وفي كل مكان كان يذهب إليه يسحر ألباب الفقراء بفصاحته التي تناقض هيئته المزرية، إذ كان رث الثياب، بينه وبين حماره شبه عجيب. وحيثما حل كان الفقراء المأخوذون ببطرس الناسك يتسابقون لنزع شعرات من جسد الحمار المسكين وذيله، طلبا للبركة. لقد أخذ بطرس الناسك يقوم بدور الواعظ الجوال مثل كثيرين غيره في ذلك الوقت الذي ميزه التدين الشعبي العاطفي. وقد كان الرجل محور أسطورة أعتبرها المؤرخون حقيقة تاريخية، كما ألهمت الفنانين والأدباء على مدى عدة أجيال. وقد نسبت الأسطورة إلى بطرس فضل إثارة الغرب الأوروبي لشن حربه الصليبية ضد الشرق العربي الإسلامي.[23]

وإذا كانت الدراسات التاريخية منذ منتصف القرن التاسع عشر قد كشفت زيف أسطورة بطرس الناسك بفضل بحوث هنريخ فون سيبل سنة 1841م)[24] فإن بطرس الناسك لا يزال يحظى باهتمام المؤرخين باعتباره تجسيدا للحماسة الدينية الشعبية من ناحية، وبسبب تناقض تصرفاته مع المثال الذي بشر به ودعا إليه. إذ إن بطرس، الذي يعتبره بعض المؤرخين الفرنسيين نبي الحركة الصليبية، قد هرب أثناء معاناة الصليبيين في حصار إنطاكية سنة 1098 م، وقبض عليه وأعيد إلى المعسكر الصليبي بصورة مهينة.[25]

وعلى أي حال، فإن الفلاحين لم يصبروا حتى يرحلوا في الموعد الذي حدده البابا رحيل الفرسان، فمع تباشير ربيع سنة 1096 م كانوا قد جمعوا محاصيلهم، ولكنهم لم يخزنوها تحسبا لشتاء قد يجوعون فيه، كما جرت عادتهم طوال سنوات وسنوات. لقد حملوا هذه المحاصيل فوق عرباتهم الثقيلة التي تجرها الثيران، ومعها الزوجات والأطفال والمتاع الهزيل. وفي النهاية تحرك موكب الفلاحين صوب الشرق... مطلع الشمس ومهبط

المسيح.

كانت جماعات العامة والفلاحين التي تجمعت حول بطرس الناسك أكبر من أن تستطيع أي مدينة أو قرية في غرب أوروبا أن تعولها ؛ ومن ثم تكونت من هذه الأعداد الغفيرة فرق وجيوش بائسة، بقيادة واحد من الفرسان المغامرين أو المشعوذين، في فوضى تبعث على الرثاء. وكانت أول فرقة من حملات الفلاحين، أو حملات العامة، هي تلك التي قادها فارس شرس نبيل المولد من بلدية بواسي (Poissy) هو والتر المفلس (Walter Sansavoir) الذي لم يكن في جيشه سوى ثمانية فرسان حسبما يذكر ألبرت الآيكسي.[26] وقد سخر الألمان من والتر المفلس وأتباعه الذين باعوا أملاكهم لكي يذهبوا في رحلة حمقاء، وقالوا إنهم بادلوا ما هو مضمون بما هو غير أكيد، وأنهم تركوا مسقط رأسهم ووطنهم في سبيل أرض ترتبط بوعد مشكوك فيه.[27] ولكن الألمان عندما رأوا جموع أتباع والتر المفلس تعبر أراضيهم في طريقها إلى حوض نهر الراين ثم البلقان، غيروا من رأيهم وكفوا عن السخرية، وأخذوا ينضمون إلى المشروع الصليبي.[28]

ولم تواجه هذه الحملة سوى متاعب قليلة في نهاية رحلتها عبر المجر، ولكن أعمال النهب والسلب، التي بدأ أتباع والتر المفلس يمارسونها في بلغاريا، جعلت البلغار يهاجمونهم ويقتلون منهم عددا كبيرا على حين لاذ الناجون بالغابات عدة أيام حتى وصلوا في النهاية تحت أسوار العاصمة البيزنطية، القسطنطينية. وهناك أمر الإمبراطور بأن يعسكروا خارج المدينة انتظارا لوصول جيش بطرس الناسك. وهكذا، انتهت رحلة الألف ومائتي ميل بالنسبة لأتباع والتر المفلس.[29]

في ذلك الوقت كان بطرس قد أعد نفسه للرحيل وتحت قيادته جيش كبير من المشاة والفرسان ترافقهم أعداد أكبر من غير المحاربين، رجالا ونساء وأطفالا. وغادر هذا الجيش الأراضي الألمانية في 20 أبريل سنة 1096 م.[30] وسمح له ملك المجر بعبور بلاده بشرط ألا يثير المتاعب. وفي المجر تولى بطرس قيادة جيش الفقراء. وكان المشهد مثيرا ... إذ كان بطرس في مقدمة الجيش يمتطي حماره الذي يشبهه، وخلفه الفرسان يعتلون صهوات جيادهم، تتبعهم العربات الثقيلة التي تجرها الثيران حاملة معها المؤن والأموال التي كان بطرس قد جمعها من أثرياء الغرب الأوروبي.

بيد أن بطرس الذي كان قادراً على تحريك مشاعر الجماهير وإثارتها لم يكن يصلح لقيادة جيش عجيب مثل جيشه الذي تألف من المقاتلين والطامعين، والذي ضم مئات من الأفاقين، والمجرمين، وبنات الهوى، والفلاحين، والفقراء من أهل المدن، فضلا عن عدد صغير من الفرسان. فعند مدينة «سملين» على حدود المجر مع الإمبراطور البيزنطية كشف «جيش الرب» عن وجهه القبيح، وجرت على سملين وأهلها مذبحة رهيبة، وأزهقت أرواح أربعة آلاف من أبناء المدينة التي تحولت إلى خرائب تصاعد منها دخان الحرائق التي أشعلها الفرنج في كل مكان لتختلط بأصوات الجرحى عنوانا على الجريمة التي ارتكبها «جنود الرب» ضد الأخوة المسيحيين الذين زعم الصليبيون أنهم جاءوا لنجدتهم. وإذ خاف بطرس من انتقام المجريين، فقد اختبأ مع جيشه داخل غابات المجر، ثم تجمع جيشه مرة أخرى عندما وصلوا الحدود البيزنطية. وخاف نيكيتاس قائد الحامية البيزنطية في مدينة نيش (Nish) الحدودية على مدينته من تصرفات هذه الجموع الخرقاء، فاتخذ بعض الاحتياطات لمواجهتهم عند الضرورة... ولم يخيب الصليبيون ظنه ؛ فقد أحرقوا مساكن القرويين مع سكانها الأحياء في داخلها، ونهبوا وسلبوا. وهاجم البيزنطيون جيش بطرس الناسك فقتلوا الكثيرين من رجاله، وأسروا عددا آخر، كما استولوا على الأموال والتبرعات التي كان ذلك الراهب قد جمعها من أغنياء غرب أوروبا. وبعد أيام ثلاثة من التشتت والاختباء عاودت شراذم جش بطرس التجمع وسارت صوب مدينة صوفيا، وهناك لقيهم مندوبون عن الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس كومنينوس وأبلغوهم باستياء الإمبراطور، وأبلغوهم بأوامره التي تقضي بألا يمكث الصليبيون في أي مدينة بيزنطية أكثر من ثلاثة أيام(31). ثم وصلت الشراذم الباقية من حملة بطرس الناسك إلى أسوار القسطنطينية في مطلع شهر أغسطس 1096م.

ودعي ذلك الناسك العجيب لمقابلة الإمبراطور البيزنطي وربما تأرجحت على شفتي الإمبراطور ابتسامة سخرية ورثاء وهو يرى ذلك الرجل أمامه على حين كان يتوقع مقابلة قائد عسكري. أدرك الإمبراطور أن هذه الجموع الهائجة الجائعة لم تصمد أمام المسلمين الذين طالما أذاقوا جيوشه المدربة المنظمة مرارة الهزيمة، ونصح الإمبراطور الصليبيين بأن ينتظروا حتى

قدوم جيوش الأمراء، بيد أن بطرس غرته كثرة أتباعه، فقبل من الإمبراطور الهدايا التي أعطاها إياه، ورفض النصائح التي أسداها إليه.

وفي الوقت نفسه أخذ الصليبيون يعيثون فسادا في مدينة القسطنطينية التي بهرتهم بجمالها، ونهبوا وأحرقوا وسرقوا، ووجد الإمبراطور نفسه مضطرا لأن ينقلهم بسرعة عبر المضايق إلى آسيا الصغرى[32]. وهناك تصرف «جنود الرب» على نحو لا يرضى عنه الرب، فارتكبوا أبشع المذابح ضد السكان المسيحيين. وبسبب الطمع والفوضى وقع الصليبيون في شباك كمين أعده الأتراك السلاجقة وأجهزوا على الحملة الشعبية، وقتل والتر المفلس، على حين تمكن بطرس الناسك من النجاة بنفسه والهرب إلى القسطنطينية.[33] وهكذا انتهت مسيرة الفقراء فوق تراب الشرق العربي الذي داعب خيالهم، وحرك فيهم مشاعر الطمع على مدى ألفي ومائتي ميل.

وفي تلك الأثناء كانت هناك مجموعات أخرى من العامة والفلاحين تتجمع في الغرب الأوروبي حول هذا القائد، أو ذاك. ولكنها اشتركت جميعا في مصير واحد هو تلك النهاية المفزعة داخل الأراضي المجرية بعدما قرر كولومان (ملك المجر) أن يتصدى بحزم لأولئك المخربين باسم الرب.[34]

هكذا كانت الحملات الشعبية بمثابة زلزال اجتماعي هائل هز أركان الغرب الأوروبي عقب الدعوة التي وجهها البابا أربان الثاني في كليرمون، وعلى الرغم من الفشل المزري الذي منيت به تلك الحالات الشعبية ؛ سواء في الشرق أو في داخل أراضي المجر، إلا أنها كانت ذات مغزى لا يخطئه الباحث في تاريخ الحروب الصليبية. لقد كانت التعبير التلقائي عن عدم الصبر الذي تملك الناس في غرب أوروبا إزاء فرصة لاحت لتغيير نمط الحياة التي يحيونها، والبحث عن مستقبل أفضل. وبينما كان الفرسان من أبناء الطبقة الإقطاعية يدركون أهمية الإعداد للحملة، فضلا عن البحث عن موارد لتمويلها، لم يستطع المحرومون صبرا على معاناة المزيد في ظل ظروفهم المتردية. ولكن أهم ما نخرج به من حوادث لحملات الشعبية أن «المثال الصليبي» قد مرغه أصحابه في طين أطماعهم ووحشيتهم.

أما البابوية والفرسان فكانوا مشغولين آنذاك بالاستعداد للخروج بالحملة

في موعدها المحدد من قبل. ولذلك أشاحوا بوجههم عن الزلزال الاجتماعي الذي أحدثته حملة الفقراء أو حملة العامة. وكانت مشكلة التمويل هي أكبر المشكلات التي واجهت الأمراء والفرسان، وكان على كل منهم أن يبحث عن حل لهذه المشكلة بطريقته الخاصة. وفي أواخر صيف سنة 1096م كانت جيوش الفرسان متأهبة للرحيل صوب فلسطين. وتكونت عدة جيوش على أساس من التقسيمات اللغوية والجنسية من ناحية، وعلى أساس من الروابط الإقطاعية من جهة ثانية.

فقد تولى جودفري ألبويوني (Godfrey de Bouillon) قيادة الجيش الذي جمعه من اللورين، شمال فرنسا، والألمان واشترك معه أخوه بلدوين.[35] وتولى روبرت دوق نورماندي (Robert Duke of Normandy)،[36] وزوج أخته ستيفن كونت بلوا (Stephen of Blois) قيادة الفرسان القادمين من غرب فرنسا ونورماندي وبعض مناطق الشمال، فضلا عن الكثير من الفرسان الإنجليز من أتباع أخيه الملك الإنجليزي وليم روفوس. أما الجيش الثالث فكان تحت قيادة ريمون الرابع كونت تولوز (Raymond IV of Toulouse)[37] الذي كان يقترب من الستين من عمره. وقد تألف جيشه من فرسان جنوب فرنسا والبروفنسال. وكان في صحبته أديمار أسقف لوبوي، والمندوب البابوي في هذه الحملة. أما أصغر الجيوش فكان جيش هيو كونت فرماندوا (Hugh Count of Vermandois) المعروف باسم «الأشغر-Le Masne»[38]، وهو شقيق فيليب الأول ملك فرنسا آنذاك.[39] وكان جيشه هو أول الجيوش الصليبية في الوصول إلى الأراضي البيزنطية. وثمة جيش خامس قاده بوهيموند النورماني،[40] ابن روبرت جويسكارد، تألف من المقاتلين النورمان الأشداء في جنوب إيطاليا.

كان هيو أول الراحلين، كما كان أول من وصل إلى الأراضي البيزنطية، وقد أرسل قبله وفدا من خمسة وعشرين فارسا يحملون رسالة تفيض غطرسة وغرورا إلى الإمبراطور أليكسيسوس كومنينوس، يحذره فيها وينبهه إلى وجوب مقابلته بما يليق بمكانته العلية.[41] وعندما وصل هذا الأمير إلى الأراضي البيزنطية كان قد بقي معه عدة شراذم من جيشه الذي أهلكته عاصفة بحرية. واستقبله القائد حنا كومنينوس ابن أخي الإمبراطور البيزنطي بعد ما انتشله ضباطه من البحر، فأكرم وفادته، وأرسله إلى

القسطنطينية في حراسة واحد من الموظفين البيزنطيين الكبار.

لقد استولت الدهشة على الإمبراطور البيزنطي من كبر حجم الجيوش الصليبية لأنه كان يتصور أن تجيئه فرق من المرتزقة الذين تعود البيزنطيون أن يجندوهم في خدمتهم، ولكنه إذ كان عاجزا عن أن يفعل شيئا فإنه قرر أن يفيد من الموقف بأقصى ما يمكن. ولم يكن لديه أدق قدر من التسامح في مسألة عدم السماح للقوات الصليبية بدخول مدينته، ومن ثم فقد سمح لهم بأن يضربوا خيامهم في ضواحي المدينة. ولم يسمح سوى للقادة وعدد قليل من مرافقيهم بالدخول إلى العاصمة الإمبراطورية، وقد حرص على أن يستعرض أمامهم عظمة البلاط البيزنطي، قاصدا أن يجعلهم يحملقون في دهشة وانبهار مشوب بالطمع في مظاهر الثراء الذي تميزت به الإمبراطورية.

لقد آثر أليكسيوس كومنينوس أن يتعامل مع قادة الصليبيين بشكل انفرادي، واتفق مع كل منهم على حدة. وتنوعت أساليبه في التفاهم معهم ما بين إغراقهم بالهدايا، أو قطع المؤن والإمدادات عنهم، أو القتال، حتى نجح في أن يحصل منهم جميعا على يمين الولاء باستثناء ريمون السانجيلي الذي أقسم بحماية شرف الإمبراطور البيزنطي وحياته.

وكان هيو أول من أقسم يمين الولاء للإمبراطور على الطريقة الإقطاعية.[42] ثم وصل جيش جودفري البويوني إلى القسطنطينية بعد أن عبر بلاد المجر دون مشاكل تذكر، بعد أن أخذ الملك المجري الكونت بلدوين وعدد آخر من كبار الفرسان يا جيش جودفري رهينة وضمانا لحسن سلوك الصليبيين. وعندما وصل جودفري كانت في انتظاره دعوة من الإمبراطور تحثه على اللقاء، وخاف الزعيم الصليبي فأخذ يراوغ ويماطل، وتوترت العلاقات بين الجانبين حتى وصلت إلى القتال... ولكن الدوق رضخ في نهاية الأمر، ورضي بأن يقسم يمين الولاء للإمبراطور.[43]

أما بوهيموند زعيم النورمان في جنوب إيطاليا، فقد بدأ رحلته بعبور البحر الأدرياتي في أواخر صيف سنة 1096م. وقي القسطنطينية لقيه الإمبراطور البيزنطي عدوه اللدود بترحاب كبير. ولم يجد الإمبراطور صعوبة تذكر في إقناع هذا الأمير النورماني الطموح بأن يقسم له يمين الولاء.[44]

أما ريمون السانجيلي، كونت تولوز المسن، فكان يقود أكبر جيوش الحملة

الصليبية الأولى، وكان يصاحبه أديمار المندوب البابوي. وعندما دخلت قواته الأراضي البيزنطية بعد رحلة مضنية في إقليم البلقان، تأرجحت العلاقات بين الكونت الصليبي المسن والإمبراطور البيزنطي الداهية، بين القتال والمفاوضات، وأخيرا نجح زعماء الصليبيين في تهدئة خاطر ريمون، فأقسم على طريقة البروفنسال أن يحمي شرف الإمبراطور وحياته، ولكنه لم يوافق أبدا على أن يقسم له يمين الولاء والتبعية مثلما فعل الأمراء الصليبيون الآخرون.(45) ثم وصل جيش روبرت دوق نورماندي وبصحبته ستيفن كونت بلوا بعد وصول جيش البروفنساليين بقيادة ريمون السانجيلي بعدة أيام.

كانت هذه هي نهاية المرحلة الأولى من حملة الفرسان، وقد آثرنا أن نعالجها بشيء من التفصيل لأنها كانت بمثابة صدام حضاري وسياسي بين البيزنطيين ورجال الحملة الصليبية الذين زعموا أنهم جاءوا لنجدتهم. لقد كان ذلك هو لقاء الصليبيين الأول مع الشرق. فقد كانت مدينة القسطنطينية الجميلة بوابة الشرق والمدخل الكبير إلى هذا الشرق الساحر الغامض.

ثم بدأت عجلة الحرب تدور بعد أن بدأت قوات الصليبيين تعبر مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى. وهناك على بعد أميال قليلة من القسطنطينية وجد الصليبيون أنفسهم في «أرض العدو» للمرة الأولى. وهناك انضم إليهم بطرس الناسك وشراذم الناجين من حملته. واعتذر الإمبراطور البيزنطي عن قبول العرض الصليبي بقيادة الحملة، ولكنه زود الجيش الصليبي بعدد من الأدلاء والمرشدين، وأرسل معهم بعض ضباطه، كما ظل يرسل إليهم المؤن والإمدادات عن طريق البر والبحر.

وفي السادس من شهر مايو سنة 1097 م وصلت جيوش الحملة الصليبية أمام مدينة نيقية في آسيا الصغرى، وكانت في ذلك الحين عاصمة دولة سلاجقة الروم التي يحكمها قلج أرسلان. وكانت المدينة تتحكم في الطريق الأساسي عبر الأناضول، فتم فرض حصار مشترك من القوات الصليبية والقوات البيزنطية حول المدينة التي كان حاكمها غائباً. وحين عاد في الواحد والعشرين من الشهر نفسه شن هجوما على قوات الحصار لكنه رد خائبا. وفي التاسع عشر من يونيو استسلمت المدينة لقوات الإمبراطور البيزنطي خوفا من وحشية الصليبيين.(46) وكان النصر الذي أحرزوه في

نيقية حافزا للصليبيين على مواصلة الزحف جنوبا صوب فلسطين.

وعوض الإمبراطور قادة الصليبيين وجنودهم بالهدايا التي أغدقها عليهم بدلا من الغنائم والأسلاب التي كانوا ينتظرون الحصول عليها عند استيلائهم على المدينة. ثم انقسم جيش الصليبيين إلى قسمين: ضم أحدهما بوهيموند، وتنكرد، وروبرت أمير نورماندي على حين ضم القسم الآخر ريمون السانجيلي، وأديمار المندوب البابوي، وهيو، وروبرت كونت الفلاندرز. وفي بداية شهر يوليو 1097 م اصطدمت قوات الصليبيين بقوات قلج أرسلان المتحالفة مع قوات غازي بن الدانشمند، وانتهى القتال بنصر حاسم لصالح الصليبيين(47). وكانت تلك معركة فاصلة حسمت مصير الحملة الصليبية الأولى إلى حد بعيد، إذ توقفت كل مقاومة إسلامية منظمة منذ ذلك الحين.

لقد بهت المسلمون بوصول هذه القوات الصليبية، ولكنهم كانوا قادرين على إبادتها. بيد أن ميراث الشك والعداوة بين حكام المنطقة، والذي غرسته وأنبتته طوال القرن السابق حروب ودسائس ومنازعات سادت المنطقة، جعل المسلمين عاجزين عن مواجهة قوات الصليبيين. ولكن الصليبيين من ناحية أخرى لم يكونوا في نزهة عسكرية، فقد كلفتهم المقاومة التي اتخذت شكلا يقترب من حرب العصابات كثيرا من الخسائر البشرية والمادية نتيجة هجمات الفرسان، السريعة من رماة السهام، والتي كانت تشيع الرعب في أوصال الصليبيين. أما المناخ فكان عدوهم الرئيس، لا سيما عندما كانوا يعانون من نقص الطعام ونفاذ المياه.(48)

وفي الطريق إلى إنطاكية انفصل بلدوين بقواته عن الجيش الصليبي، وكذلك فعل تنكرد النورماني. وراح الاثنان يبحثان عن فرص للمغامرة، ويسعيان لتحقيق مكاسب خاصة بكل منهما، وقادهما التنافس في هذا المضمار إلى القتال الوحشي أمام مدينة المصيصة في أعالي الشام،(49) ثم استطاع بلدوين أن يحصل لنفسه على إمارة الرها التي كان حاكمها الأرمني «ثوروس» قد تبناه، ورد له الأمير الصليبي الجميل.. إذ اشترك في مؤامرة راح الحاكم الأرمني المسن ضحية لها.(50) وهكذا رفرف بيت أمراء اللورين الأدنى على أول إمارة صليبية في الشرق العربي. وكانت هذه الكونتية الصليبية تسيطر على مساحة من الأرض تمتد شرق نهر الفرات وغربه،

أما سكانها فكانوا في أغلبيتهم من الأرمن. وتمثلت أهميتها في أنها لعبت دور الدولة الحاجزة في الشمال الشرقي بحيث تلقت الهجمات الأولى بدلا من الإمارات الأخرى والمملكة الصليبية التي قامت في جنوب بلاد الشام وفلسطين.. وهنا قبع بلدوين فرحا بما حققه، ولم يعد يهتم بمساعدة جيش الصليبيين الرئيس الذي كان لا يزال يحث الخطى نحو إنطاكية.

لقد أفاد الصليبيون كثيرا من التشرذم السياسي للحكام العرب والسلاجقة في المنطقة العربية ؛ سواء أثناء تقدمهم في آسيا الصغرى، أو أثناء صراعهم في بلاد الشام. وإذ لم يدرك المسلمون حقيقة الخطر المحدق بهم فإنهم لم يروا ضرورة تدعوهم لنبذ ما هم فيه من خلافات [51]. ولابد أن السلاجقة ظنوا أن الحملة الصليبية لم تكن أكثر من حملة عسكرية بيزنطية من النمط الذي تعودوا عليه. أما الفاطميون الشيعة فإنهم لم يفكروا أبدا في مساعدة السلاجقة السنة ضد الصليبيين، وإنما حاولوا التفاهم مع الصليبيين على اقتسام الأرض والنفوذ على حساب الأتراك السلاجقة، كما سنرى.

كانت هذه ظروفا سياسية مثالية للتقدم الصليبي. وبالفعل واصل الصليبيون مسيرتهم حتى مدينة إنطاكية ذات الموقع الجميل بالقرب من البحر على منحدر يؤدي إلى وادي نهر العاصي الخصيب، والتي كانت ذات مرة درة في تاج الإمبراطورية الرومانية القديمة.

وفي الحادي والعشرين من أكتوبر سنة 1097 م بدأ الصليبيون يفرضون الحصار على إنطاكية. وطال الحصار وبدأت معاناة الصليبيين، ففي عيد الميلاد في نهاية ذلك العام كانت المجاعة قد أنشبت مخالبها في معسكرهم، واتفق الزعماء على تشكيل فرق للسلب والنهب من المناطق الريفية المجاورة.

ومن ناحية أخرى، كان المسلمون من العرب والأتراك قد أخذوا ينظمون وسائل الدفاع عن أملاكهم. وهكذا بات الصليبيون في مأزق حقيقي لأن فرق السلب والنهب لم تجد ما تنهبه، كما أن المسلمين قضوا على فرق كاملة منها.[52] وفي غمرة البؤس الذي حاق برجال الجيش الصليبي حاك بوهيموند المؤامرة التي رأى فيها وسيلة لتحقيق أطماعه التي جعلته ينضم إلى الحملة الصليبية، أي بنات إمارة نورمانية في الشرق العربي. ولعب النورماني الداهية بأعصاب الفرنج، فأعلن عزمه على الرحيل إذا لم يوافقوا

على منحه حكم إنطاكية، ووافق الزعماء المذعورون على ذلك، لأن الكثيرين من أفراد جيش الرب كانوا قد بدءوا يهربون، ومنهم ستيفن كونت بلوا، وبطرس الناسك «نبي الحركة الصليبية»، وداعيتها المفوه.[53]

وكان بوهيموند قد تآمر مع أحد الأرمن على فتح البرج الذي يتولى حراسته من أبراج إنطاكية.[54] وتحت جنح الليل تم تنفيذ المؤامرة وسقطت المدينة، ولكن القلعة صمدت في مواجهة الهجوم الصليبي. وفي اليوم التالي مباشرة، أي الرابع من يونيو 1098 م شن جيش الإنقاذ الإسلامي الذي جاء من فارس بقيادة كربوقا هجوما سريعا، لكنه فشل في إنقاذ المدينة. وفي الداخل بدأت متاعب الحصار المزدوج بالنسبة للصليبيين. وبدا أن الصليبيين بحاجة إلى معجزة تفتح أمامهم سبيل النجاة... ولم يتأخر رجال الكنيسة في تلفيق هذه المعجزة، إذ خرج قسيس بروفنسالي على الصليبيين بحكاية عن رؤية مقدسة أخبرته عن مكان الحربة التي طعن بها المسيح منذ أحد عشر قرنا من الزمان، وربط بين العثور على هذه الحربة وبين النصر. وبطبيعة الحال تم العثور على هذه الحربة في سهولة.[55] وقد أدت هذه الحادثة إلى رفع معنويات الفرنج كثيرا. وعندما اصطدموا بجيش كربوقا، الذي مزقته الانقسامات، تمكنوا من هزيمته.. ولم يكن هناك جيش إسلامي آخر يمكنه سد الطريق إلى القدس.

تسلم بوهيموند قلعة إنطاكية من قائدها أحمد بن مروان، وحين توقفت الحرب تجلى الإفلاس الأيديولوجي للحركة الصليبية، وتجسد في بؤرة شريرة من الصراعات والدسائس والمؤامرات التي امتدت خيوطها بين زعماء الصليبيين. فقد تحدى ريمون السانجيلي بوهيموند النورماني، صاحب الفضل في أخذ المدينة بالخيانة والذي ادعى أن المدينة حق خالص له. وقرر الزعماء تأجيل السير إلى بيت المقدس حتى أواخر سنة 1098 م. ثم تفرقوا، وأخذ كل منهم يحاول تحقيق بعض المكاسب الشخصية. واستولى ريمون السانجيلي على أحد أبراج مدينة إنطاكية، ولكن بوهيموند طرده منه بالقوة...[57]

وهكذا قامت الإمارة الصليبية الثانية على أرض الشرق، في مطلع سنة 1099م.

وفي تلك الأثناء كانت تجري تغيرات هامة في الجانب الإسلامي، إذ

كانت الخلافة الفاطمية في مصر قد أفاقت من الصدمة التي سببتها الهجمات السلجوقية الأولى على أملاكها في بلاد الشام. ومن ناحية أخرى، ظن الفاطميون أن بوسعهم الإفادة من الهجوم الصليبي. وكان صاحب السلطة الفعلية الأفضل بن بدر الجمالي وزيرا للخليفة الفاطمي المستعلي. وقد أرسل سفارة لمفاوضة الصليبيين وهم أمام إنطاكية على اقتسام بلاد الشام، ولم تثمر هذه المحاولات شيئا.(58) وعاد سفراء الأفضل ومعهم رسل من الصليبيين إلى القاهرة، ولكنهم لم يكونوا مفوضين بأي سلطات. ولم يدرك الفاطميون حقيقة أهداف الصليبيين. ولاشك في أنهم ظنوا أن هذه الجيوش القادمة من الغرب الأوروبي مجرد مرتزقة في خدمة البيزنطيين.

وقرر الأفضل أن يفيد من الحرب الدائرة في شمال بلاد الشام بين السلاجقة والصليبيين، وبمجرد أن سمع بهزيمة قربوغا (كربوقا) في إنطاكية أدرك أن السلاجقة ليسوا في وضع يسمح لهم بمقاومة هجوم جديد. وشن هجومه على فلسطين التي كانت في حوزة سقمان وايلغازي ولدي أرتق، وكانا يدينان بالولاء لأمير دمشق دقاق. وفي سنة 492 هجرية (1099 م)، استولى على القدس.(59)

وفي شمال بلاد الشام، كانت الأسر العربية الحاكمة ترقب انهيار السلاجقة في سرور، ولم يتدخل أحد لإنقاذ إنطاكية، ويذكر ابن الأثير ما نصه:... «وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب وصاحب دمشق بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم لا نطلب سواها، مكرا منهم وخديعة حتى لا يساعدوا صاحب إنطاكية....».(60) وإذا كان رضوان ودقاق-وهما من السلاجقة-قد اتخذا هذا الموقف فإن موقف الأمراء العرب يصبح واضحا. على أي حال، كانت هذه هي الحال قبل أن يواصل الصليبيون زحفهم إلى بيت المقدس. ويبدو أنهم استطابوا العيش في بلاد الشام وإنطاكية، فركنوا إلى الدعة فترة من الوقت. وثارت بين عامة الصليبيين مشاعر الإحباط عندما رأوا الزعماء يختلقون الأعذار لتأجيل الزحف صوب القدس، هدف الرحلة النهائي. وهدد العامة بعزل ريمون السانجيلي وإحراق إنطاكية. وهنا تذكر القادة هدف رحلتهم. وبعد مرور تسعة أشهر أو يزيد تحركت جموعهم صوب مدينة القدس. وكان ذلك في شهر يناير من سنة 1599 م.(61)

وتحرك ريمون من معرة النعمان[62] على رأس قواته وهو حافي القدمين وقد ارتدى ملابس الحجاج.[63] وتحرك جيشه جنوبا بحذاء منحدرات جبل النصيرية. وتم زحفه دون مشاكل لأن الأمراء المحليين كانوا غاية في الضعف والتشرذم لدرجة أن معظمهم كانوا على استعداد لأن يقدموا الأموال والهدايا تحاشيا لهجوم الصليبيين عليهم. وبعد ما حدث في إنطاكية قرر أمراء دمشق وحلب والموصل اتخاذ موقف المراقب السلبي. وجنوب طرابلس اتخذ الصليبيون الطريق الساحلي، ثم انضم جودفري وتنكرد وبوهيموند إلى الجيش الزاحف جنوبا، ثم تركهم مرة أخرى وعاد إلى إنطاكية حاكما بلا منازع. وقد استولى الصليبيون في طريقهم على بلاد صغيرة إلى أن وصلوا إلى نهر الكلب الذي كان يمثل منطقة الحدود بالنسبة للممتلكات الفاطمية وتوغل الصليبيون في الأراضي الفاطمية، ولم يدرك الفاطميون حقيقة الخطر الصليبي إلا بعد فوات الأوان... وأخيرا صافحت القدس عيون الصليبيين.

كان الفصل الأخير في الحملة الصليبية الأولى هو الحصار الذي فرضه الصليبيون على مدينة القدس على مدى خمسة أسابيع: من 7 يونيو إلى 15 يوليو 1099م.[64] ولم يكن هناك ما يلائم هذا الموقف سوى تلفيق بعض أخبار الرؤى والأحلام المقدسة، كما أشيع عن اشتراك القديس جورج في القتال ضد المسلمين. وفي يوم الجمعة 15 يوليو 1099م (22 شعبان 492 هـ) تمكن الصليبيون من اقتحام المدينة، ولم ينج من سكانها سوى قائد الحامية الفاطمية «افتخار الدولة» وعدد من رجاله. وأعقب ذلك مذبحة فظيعة، وأبيحت المدينة للسلب والنهب والقتل عدة أيام وفاض الدم، وظلت الجثث مطروحة في شوارع القدس عدة أيام.

وفي هذا الجو الموحش الكئيب، اجتمع الصليبيون في كنيسة القيامة لأداء صلاة الشكر. وهكذا تم زرع الكيان الصليبي في الشرق العربي.

وعندما خفت شهوة القتل لدى الصليبيين كانت أولى المهمات التي واجهتهم هي مواراة الجثث التي فاحت منها الروائح النتنة في كل أنحاء المدينة، أو التخلص منها بطريقة ما.[65] ثم بدأت مناقشة مشكلة حكم المدينة المقدسة، واجتمع الزعماء الصليبيون، قساوسة وعلمانيين، لكي يقرروا ما ينبغي عمله في هذا الصدد. فقد كان واضحا أنهم حين تركوا أوروبا

سنة 1096م لم تكن لديهم فكرة واضحة عما سيفعلونه بالقدس بعد الاستيلاء عليها. كما أن البابا أربان الثاني (الذي مات قبل أن يعرف بخبر الاستيلاء على القدس) لم يحدد للصليبيين نظام الحكم في المدينة المقدسة. على أي حال، فإن المناورات السياسية بين دايمبرت أسقف بيت المقدس الجديد والطموح وريمون السانجيلي. وجودفري البويوني انتهت باختيار الأخير حاكما لبيت المقدس تحت لقب فضفاض هو «حامي الضريح المقدس Advocatus Sancti Sepulchri»،[66] وكان هذا الحل الوسط في حقيقة الأمر هروبا من تحديد العلاقة بين الكنيسة والدولة بشكل حاسم في الدولة الوليدة.

وفي 14 رمضان سنة 492 هـ (12 أغسطس 1099م) كان الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش المصرية قد جاء بجيشه لمهاجمة الصليبيين، ولكنه فضل الانتظار قرب عسقلان حتى قدوم الأسطول، ولكن القادة الصليبيين فاجئوه قرب عسقلان بعد أن اتحدت جهودهم مرة أخرى، وأخيرة. وأخذ المصريون على غرة وهزموا، ثم عاد الأفضل إلى مصر.[67] وبهذه المعركة تم تأمين الوجود الصليبي في بيت المقدس إلى حين. وهكذا أسفرت الحملة الأولى عن قيام مملكة وإمارتين صليبيتين في الرها وإنطاكية، ثم لم يلبث ريمون كونت سانجيل أن أسس إمارة أخرى في طرابلس سنة 1109م.

وهكذا، كانت نتيجة النصر الذي أحرزته الحملة الصليبية أن تأسست إمارتان ودولة صغيرة لم تلبث أن تحولت إلى مملكة. ففي الثامن عشر من يوليو عام 1100م مات جودفري البويوني أثناء محاولته مد نفوذه في السهل الساحلي بمساعدة البنادقة الذين قدموا قبل شهر واحد من موته لينافسوا أهل بيزا في الإفادة من النصر الصليبي في شرق البحر الأبيض المتوسط.[68] وتم استدعاء بلدوين من إمارته في الرها ليتولى حكم بيت المقدس. وفي الخامس والعشرين من ديسمبر تم تتويجه.[69] وهكذا قامت مملكة بيت المقدس الصليبية.

كانت المملكة في ذلك الحين تتكون من مدينة بيت المقدس نفسها إلى جانب يافا، واللد، والرملة، وبيت لحم، والخليل، كما كان لها ظهير ريفي تسكنه أغلبية من المسلمين الذين رفضوا التعاون مع الصليبيين.

وعلى الرغم من رحيل بعض كبار القادة الصليبيين إلى أوروبا مثل:

روبرت دوق الفلاندرز، وروبرت النورماني إلا أن العدد الأكبر من القادة ظلوا في المنطقة العربية حيث كان عليهم أن يقوموا بمهمات الإدارة الاستعمارية الاستيطانية، ولأنهم ظنوا أقل كثيرا في عددهم من المسلمين والعرب،[70] أصحاب البلاد، فقد حاولوا قدر الطاقة أن يشجعوا الهجرة من أوروبا إلى فلسطين لتدعيمهم. ومن ناحية أخرى كانت أخبار النجاح الذي أحرزته الحملة الصليبية الأولى قد شجعت عناصر أوروبية جديدة على القدوم إلى الشرق العربي رغبة في الحصول على نصيب من المغانم التي شاعت أخبارها في الغرب الأوروبي مع العائدين من فلسطين.

عندما صار بلدوين ملكا على بيت المقدس سنة 1100م لم يكن هناك من القوة البشرية ما يكفي لتثبت أركان المملكة، إذ كانت معظم الموانئ البحرية الهامة لا تزال بأيدي المسلمين، كما أن الأراضي التي استولى الصليبيون عليه كانت لا تزال بحاجة إلى دعم. وقد أدرك فوشيه دي شارتر، المصدر الأساسي لعمليات الاستيطان الصليبية الأولى، هذه الحقيقة إذ قال: «وفي بداية حكم بلدوين كان يمتلك مدنا قليلة ويحكم شعبا صغيراً..».[71] كما كرر القول نفسه في مكان آخر في كتابه: «.. ولهذا السبب بقيت أرض بيت المقدس فقيرة في السكان، ولم يكن هناك من الناس ما يكفي للدفاع عنها ضد المسلمين إذا فكروا في الهجوم علينا..».[72] بيد أن الدعاية لخروج حملة صليبية جديدة «لمساعدة المؤمنين في جيش الرب» كانت في ذلك الحين تحقق نجاحا ملحوظا.

وكان أربان الثاني يواصل نشاطه منذ رحيل الجيوش الصليبية من غرب أوروبا عام 1096 م حتى وافته المنية في 29 يوليو 1099 م، قبل أن يعرف خبر استيلاء الحملة الصليبية على بيت المقدس. وكان خليفته راهبا شابا اعتلى العرش البابوي في 14 أغسطس سنة 1099م تحت اسم البابا باسكال الثاني.

وقد أدار هذا البابا عملية دعائية نشطة لمساعدة الصليبيين الذين نجحوا في إقامة مملكة وإمارتين في بلاد المسلمين.

وفي سنة 1101م كانت حملة جديدة قد تجمعت في الغرب الأوروبي لمساعدة صليبيي الشرق.[73] ومن لمبارديا قاد آنسلم أسقف ميلانو جموعاً من اللمبارديين تشبه جيش بطرس الناسك وكانوا يتحرقون شوقا للرحيل،

فغادروا ميلانو في 13 سبتمبر من هذا العام، وسلكوا الطريق نفسه الذي سلكته جيوش الحملة الصليبية الأولى. وعندما وصلوا إلى القسطنطينية بدءوا في إثارة المتاعب الصليبية المعتادة، ولم يجد الإمبراطور أليكسيوس كومنينوس بدا من نقلهم إلى آسيا الصغرى، وهناك لحقت بهم الجيوش الألمانية، ثم الجيوش الفرنسية تحت إمرة ستيفن كونت بلوا الذي هرب أثناء أحداث الحملة الأولى من إنطاكية.[74]

وفي تلك الأثناء كان بوهيموند أسيرا لدي أمير سيواس الملك الغازي بن الدانشمند، وسيطرت على النورمان فكرة الزحف لتحريره. ولكن السلاجقة، الذي علمتهم أحداث الحملة الأولى درسا قياسيا، كانوا يعون الدرس جيداً هذه المرة فاتحدت جهودهم في مواجهة جيوش الحملة الصليبية الجديدة. وأطبقت جيوش قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم، ورضوان أمير حلب، والغازي أمير سيواس على الصليبيين الذين تبدد جمعهم بين قتيل وجريح وأسير، وهرب الزعماء في الوقت المناسب ليحاولوا إشاعة أن الهزيمة كانت بسبب خيانة الإمبراطور البيزنطي، وانسحب الناجون من فلول هذه الحملة إلى القدس.[75]

ومن ناحية أخرى بدأ الصليبيون يمدون نفوذهم في الأراضي والموانئ التي كانت تفصل، أو تصل، بين النقاط المتناثرة التي استولوا عليها، وفي بطء عنيد بدءوا يفرضون سلطانهم على منطقة تلو الأخرى، على حين بدت المقاومة العربية الإسلامية عاجزة عن التصدي لهم تماما. ففي سنة 494 هـ/1101م استولى الصليبيون على سروج، وحيفا، وأرسوف، ثم قيسارية، وكان الجنوبيون بأساطيلهم خير عون لهم في هذا الهجوم.[76]

وحاول الفاطميون في السنة التالية أن يشنوا هجوما مضادا على الصليبيين، ولكنه باء بالفشل على الرغم من فداحة خسائر الصليبيين.[77] ثم استولى تنكرد من البيزنطيين على اللاذقية سنة 1103م.[78]

وعبثا حاول الفاطميون أن يستردوا من الصليبيين أملاكهم، ولكن محاولاتهم لم تثمر شيئا، وأخذ الصليبيون من ناحية أخرى يتقدمون في سهولة بسبب تفرق المسلمين. وقد أشار ابن الأثير إلى هذا الوضع السلبي بقوله: « ... لما استطال الفرنج خذلهم الله تعالى بما ملكوه من بلاد الإسلام، واتفق لهم اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضا، فتفرقت

حينئذ بالمسلمين الآراء واختلفت الأهواء...»[79]. وفي سنة 1104م ملك الصليبيون عكا، ثم ملكوا طرابلس بعد حصار دام سبع سنوات مات أثناءها ريمون السانجيلي، وقد أظهرت طرابلس تحت قيادة فخر الملك بن عمار جلدا وصبرا شديدين طوال سنوات الحصار. وأخيرا سقطت المدينة سنة 1109م[80]، وبذلك قامت الإمارة الصليبية الثالثة إلى جانب الرها وإنطاكية، فضلا عن مملكة بيت المقدس.

طوال تلك الفترة وبعدها لم تتوقف المقاومة الإسلامية في الشمال من جانب السلاجقة الذين نجحوا في أسر بوهيموند فترة من الوقت، ثم أسروا بلدوين كونت الرها وجوسلين، كما نزلت بالصليبيين هزائم عديدة أهمها الكارثة التي حلت بهم في حران. كما أن الفاطميين في الجنوب استغلوا قاعدتهم في عسقلان لشن هجمات عديدة ضد الصليبيين في سنوات 1101م، 1102م، 1105 م. وقد كلفت تلك الهجمات الصليبيين الكثير من الرجال والأموال.

بيد أن بذور الشك والمرارة في القرن السابق على قدوم الحملة الصليبية منعت أي تنسيق جدي على محور القاهرة/ دمشق. وبعد سنة 1105م لم يشن المصريون أي هجوم خطير على الصليبيين. بيد أن عسقلان ظلت مصدر تهديد على الصليبيين.

في تلك الأثناء تمكن الصليبيون من فرض سيطرتهم على الساحل كله[81] باستثناء صور وعسقلان. وكان معنى هذا اختلال التوازن العسكري لصالح الصليبيين بالشكل الذي أقلق إمارة دمشق.[82] وإزاء الفشل على محور دمشق/ القاهرة بدأ أمير دمشق طغتكين (1095- 1128 م) يحاول عقد تحالف مع حاكم الموصل الجديد مودود (502-507 هـ/1108-1113 م) الذي كان يحاول تنظيم تحالف إسلامي كبير لطرد الفرنج من بلاد الشام ومن المنطقة العربية.[83] ولكن هذه المحاولات لم تؤت ثمارها لأن المنازعات بين العناصر العربية والعناصر التركية في بلاد الشام حالت دون ذلك.. كما أن السلاطين السلاجقة كانوا أكثر اهتماما بفارس منهم بالبلاد الشامية.

بيد أن العالم الإسلامي بدأ يشهد ظاهرة إيجابية جاءت هذه المرة من بين جماهير الناس العاديين، إذ تشكل رأي عام قوي وضاغط بدأ يتساءل عن سبب تخاذل الحكام، وأنانيتهم، وضيق أفقهم الذي ضيع البلاد وأذل

العباد.[84] فقد أخذ الفقهاء والعلماء يخطبون من فوق منابر المساجد في فضل القدس الشريف، وفضل الجهاد والمجاهدين، ولم تكن حلقات الدروس تخلو من حديث حول القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين، كما دبجت الكتب والرسائل التي تتناول هذا الموضوع بشكل أو بآخر. ومن ناحية أخرى أثارت أعداد اللاجئين الهاربين من مذابح الفرنج الشهيرة مشاعر الاستياء والغضب في كل مكان ذهب إليه اللاجئون. لقد أدرك المسلمون أن الصليبيين قد جاءوا إلى بلادهم بقصد البقاء، وكانت تلك صدمة نفسية مؤلمة.

وبدأت الدعوة إلى الجهاد تسري بين الناس في العالم العربي الإسلامي بسرعة كبيرة، بحيث عمت سائر المناطق. وسرعان ما تحولت إلى حركة رأي عام ضاغطة يقودها أصحاب الرأي والمفكرون. وفي رحم هذه الحركة القوية تبلورت اتجاهات المقاومة العربية الإسلامية ضد الصليبيين.

في تلك الأثناء كانت ثمة تغيرات هامة قد جرت في معسكر الصليبيين، إذ مات بوهيموند في أبوليا سنة ١١١١م، ثم تلاه خليفته تنكرد الذي جعل من إنطاكية إمارة قوية سنة 1112 م. وبذلك قوي مركز بلدوين الأول كثيرا بالشكل الذي أغراه بنقض تحالفه مع طغتكين أمير دمشق.[85]

وعلى الجانب الإسلامي كانت تجري محاولات جدية لتوحيد الجهود ضد الصليبيين، وقد انتهز مودود، أتابك الموصل، فرصة استنجاد طغتكين به، فجمع جيشا كبيرا لمهاجمة الصليبيين في فلسطين هذه المرة. ففي سنة 507 هـ/ 1113 م تقدمت جيوشه مع جيوش أمير سنجار، وطغتكين أمير دمشق، والأمير أياز بن ايلغازي صوب فلسطين. وبالقرب من طبرية تم تدمير الجيش الصليبي تماما.[86] بيد أن اغتيال مودود على يد أحد الباطنية في آخر يوم جمعة من شهر ربيع الثاني من هذه السنة/ أكتوبر 1113 م، ثم موت رضوان أمير حلب في جمادى الآخرة من السنة نفسها خفف من وطأة الهجوم الإسلامي على جبهة الشمال.[87]

ولم يكن ثمة حادث مهم في الفترة الباقية من حكم بلدوين الأول ملك بيت المقدس سوى محاولة غزو مصر سنة 512 هـ/ 1118 م، ولكن مرضا عضالا هاجمه فعاد مسرعا إلى فلسطين ليلقى حتفه.[88] وتنتهي بذلك مرحلة التوسع الصليبي التي قادها هذا الملك. وتبدأ مرحلة التوازن بين

الجبهة الإسلامية في الشمال والصليبيين، بحيث يتجه الجانبان إلى الجوانب حيث الخلافة الفاطمية الضعيفة التي يتوسع الصليبيون على حسابها.

وليس بمقدورنا أن نقدم، لا هذه الدراسة، تقريرا تفصيليا لسير الأحداث العسكرية والسياسية، ولكننا نود أن نشير إلى أن البعث الذي شهدته المنطقة العربية الإسلامية لمبدأ الجهاد قد جعل الأحداث تتصاعد في جبهة الموصل/ حلب كما زادت محاولات توحيد الجهود جدية. وفي ظل هذا البعث الأيديولوجي ظهر عماد الدين زنكي بن آقسنقر، الذي دانت له الموصل سنة 521 هـ/ 1127 م،[89] ليقود حركة الجهاد والمقاومة العربية الإسلامية التي بدأها مودود قبله على محور الموصل/ حلب. وما لبث عماد الدين زنكي أن صار أقوى حاكم مسلم في زمانه لأنه طوع قوته وموارده العسكرية في خدمة المطلب العربي الإسلامي العام ؛ أي الجهاد ضد الصليبيين. فقد كانت المدارس، والعلماء، والمفكرون قد مهدوا السبيل بخلق مناخ للرأي العام القوي المطالب بوجوب الجهاد ضد الوجود الصليبي. وفي تصورنا أن عماد الدين زنكي قد جاء استجابة تاريخية للمطلب العربي الإسلامي العام،[90] ومن ثم برزت أزبكية الموصل باعتبارها سابقة ومقدمة للدول العسكرية التي يقودها ملك/ مقاتل لكي تتولى الجهاد ضد الصليبيين حتى نجحت في طردهم نهائيا من المنطقة العربية بعد فشل الخلافة العباسية، والخلافة الفاطمية في التصدي لهم. هذه الدول هي (الزنكيون، الأيوبيون، ثم دولة سلاطين المماليك).

شيئا فشيئا تمكن عماد الدين زنكي من التغلب على النعرات الانعزالية في كل من بلاد الشام والعراق والجزيرة. وفي سنة 522 هجرية ملك مدينة حلب وقلعتها، وكان هذا أمرا غاية في الخطورة على الصليبيين في شمال بلاد الشام لأنه كان يقطع الطريق بين الرها وغيرها من المستوطنات الصليبية، وفي العام التالي استولى على حماة. ثم توالت فتوحاته وتوسعاته حتى استولى على حمص سنة 532 هـ/ 1143 م.[91] وبذلك صار الطريق ممهداً أمامه لتوجيه ضربة قوية للصليبيين.

وجاءت هذه الضربة سنة 539 هـ/ 1144 م حين استطاعت قوات عماد الدين زنكي أن تستولي على الرها بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوما فقط.[92] كانت تلك هي أول إمارة صليبية تقوم على أرض الشرق العربي

الإسلامي، وكان سقوطها صدمة نفسية مؤلمة وعنيفة على الصليبيين ترددت أصداؤها في كل مكان،[93] إذ إن المدينة كانت ترتبط بتراث المسيحية الباكر، كما أن سقوطها بعد أقل من خمسين عاما من استيلاء بلدوين البويوني عليها كان نذير شؤم بالنسبة للصليبيين.

وعلى الجانب العربي الإسلامي كان نجاح المسلمين بقيادة عماد الدين زنكي تعزيزا لجهود التوحيد العربية الإسلامية من جهة، وتدعيما له في مواجهة النعرات الانعزالية من جهة ثانية. وعلى المستوى العسكري كان سقوط الرها في يد المسلمين كسباً كبيراً لأنه جعل وادي الفرات كله منطقة إسلامية، كما ضمن للمسلمين السيطرة على طرق المواصلات التي تربط بين شمال الشام والعراق والجزيرة.

أما في الغرب الأوروبي، فعلى الرغم من الحزن الذي عم الناس هناك، إلا أن أحدا لم يحاول أن يجند حملة صليبية سريعة. وجاء وفد من فرنج الشرق إلى بلاد البابا ايجينيوس الثالث (1145-1153 م) بعد أن اعتلى العرش البابوي بوقت قصير، ثم جاء وفد من الأرمن يستنهض همم البابوية وملوك الغرب لمحاولة استرداد الرها. وفيما بين سنة 1145م وسنة 1149 م جرت أحداث هذه الحملة التي عرفت في تاريخ الحروب الصليبية باسم الحملة الصليبية الثانية.[94] وقد وصلت قوات كل من كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا (الذين أخذا شارة الصليب نتيجة سقوط الرها في أيدي قوات عماد الدين زنكي) إلى المنطقة في أواخر سنة 1147م، وبداية سنة 1148م. وكان مصيرهما هزيمة فادحة على أيدي المسلمين، ونجا الملك الفرنسي من الأسر أو القتل بأعجوبة بعد تمزق جيشه.

أما موقف الصليبيين في بلاد الشام فلم يكن أفضل. فعلى الرغم من أن عماد الدين زنكي لقي مصرعه على يد بعض خدمه غيلة في السادس من شهر ربيع الآخر سنة 541 هـ/1146م[95] إلا أن جوسلين الثاني أمير الرها فشل في هجومه على المدينة لاستردادها لأن نور الدين محمود أفشل محاولته. وانتظر المسلمون والفرنج ما يسفر عنه قدوم جنود الحملة الثانية، ولكن لويس السابع، التي شغلته إشاعات العلاقة الغرامية بين زوجته أليانور الاكويتانية وريمون أمير إنطاكية، تجاهل الرها وسار حتى انضم إلى بقايا جيش كونراد الثالث في فلسطين. وبدلا من محاولته استرداد

الرها قام الصليبيون بهجوم أخرق ضد دمشق انتهى بالفشل. وعاد كونراد إلى ألمانيا، كما عاد لويس بعد أن مكث في الأرض المقدسة حتى عيد الفصح سنة 1149 م.

وهكذا باءت الحملة الصليبية الثانية بالفشل، لكنها ألقت بمدينة دمشق بين يدي نور الدين محمود، إذ كان معين الدين أنر حاكم دمشق لا يزال يمثل عقبة كؤودا في وجه محاولات نور الدين لتوحيد الجبهة العربية الإسلامية. ففي كل مرة كان نور الدين يظهر بقواته أمام دمشق كان الصليبيون يهبون لنجدتها. وعلى الرغم من وفاة معين الدين أنر إلا أن كل ما نجح فيه نور الدين هو نوع من التحالف الهزيل مع دمشق. وفي سنة 549 هجرية/ 1154 م نجح نور الدين محمود في دخول دمشق برغبة أهلها الذين سئموا ظلم حاكمهم.[96]

وهكذا تم توحيد الجبهة الشمالية تحت قيادة نور الدين محمود. وبسبب تماسك هذه الجبهة وهجمات المسلمين المستمرة فيها ضد الصليبيين اتجهت الأنظار نحو مصر التي كانت تعاني الضعف السياسي آنذاك، إذ كانت الخلافة الفاطمية في الطور الأخير من عمرها عارية إلا من بعض ظلال قوتها السابقة ومجدها الغابر، إذ أنهكتها الكوارث الطبيعية،[97] والمنازعات الداخلية. ومنذ وزارة بدر الدين الجمالي صار الوزراء أصحاب السلطة الحقيقية، وأصبح الخلفاء ألعوبة بأيديهم، كما توالى جلوسهم على كرسي الحكم في إيقاع سريع يدق على مدى الاضطراب والتدهور.[98] وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى زيادة منحنى التدهور في قوة الدولة الفاطمية بالشكل الذي أغرى جيرانها بالطمع فيها. لقد كانت الدولة الفاطمية في ذلك الحيز أشبه بالرجل المريض الذي ينتظر الجميع نهايته حتى ينال كل منهم ما يستطيع الحصول عليه من تركته.

ولما كانت مصر بمواردها البشرية والاقتصادية الكبيرة كفيله بترجيح كفة من يستولي عليها، أو يضمها إلى جانبه في الصراع الدائر آنذاك بين نور الدين محمود والصليبيين، فإن كلا منهما آثر ألا ينتظر نهاية الدولة الفاطمية، وإنما يبادر لوضع هذه النهاية بنفسه.

كانت الأحداث السياسية في مصر تجري بسرعة نحو التدهور، فمنذ اغتيال الأفضل بن بدر الجمالي سنة 515 هـ/1121م[99] لم يكن هناك حاكم

قوي في مصر يستطيع إدارة دفة الأمور. ودخلت البلاد في دوامة لا نهاية لها من المؤامرات والدهاء، بحيث أنعشت آمال الأعداء المتربصين خارج الحدود. وقي سنة 1150م بدأ بلدوين الثالث (Baldwin III)(1143-1163م) في إصلاح تحصينات غزة، مما كشف بوضوح عن نيته في الهجوم على مصر. وكانت عسقلان لا تزال بأيدي المصريين وتمثل تهديدا محتملا ضد الوجود الصليبي في فلسطين. وفي سنة 548 هـ/ 1153م تمكن الصليبيون من الاستيلاء على مدينة عسقلان[100]. وهكذا لم يتم إخضاع الساحل الفلسطيني كله للصليبيين إلا بعد نصف قرن من الحملة الصليبية الأولى. وهكذا تمت موازنة الهزائم التي لقيها الصليبيون على الجبهة الشمالية ضد نور الدين محمود بانتصارهم في عسقلان ضد الدولة الفاطمية المتهاوية.

وحين مات بلدوين الثالث في 10 فبراير 1163 م، كان واضحاً أن سياسته الخارجية التي قامت على أساس غزو مصر لم ولن تتوقف. إذ إن سياسة خليفته أماليك الأول (عموري) (Amaloric I)(1163-1177م) كانت في حقيقة أمرها عبارة عن سلسلة متصلة من المحاولات الدؤوبة لفتح مصر. وكانت الظروف تحتم تلك السياسة. إذ إن اتحاد حلب ودمشق تحت حكم نور الدين محمود جعل من غزو مصر الحل الوحيد لنجاة الصليبيين. إذ أدرك ماليك الأول أن سقوط مصر في يد المسلمين السنة في بلاد الشام سيجعل الدويلات الصليبية بين شقي الرحى. ولكن من سوء حظ الملك الصليبي أن نور الدين أدرك أهمية التطورات السياسية الداخلية في مصر على مجريات الصراع الإسلامي الصليبي.[101] وهكذا كان نور الدين محمود وأماليك على أهبة الاستعداد لبدء السباق للفوز بجائزته الكبرى ؛ وهي مصر بمواردها الاقتصادية والبشرية الهائلة.

وأخيرا سنحت الفرصة لتدخل الجانبين ؛ فبعد موت الوزير الفاطمي الصالح بن رزيك سنة 558 هجرية/1161م أندلع الصراع على كرسي الوزارة بين ابنه العادل الذي مكث في الوزارة خمسة عشر شهرا، شاركه أثناءها شاور حاكم الصعيد الذي قتل ابن رزيك، ثم حاجبه ضرغام الذي بادر بقتل كبار الأمراء الذين كان يخشى منهم على نفسه وعلى منصبه.[102] ولم يجد شاور بدا من الهرب صوب بلاط نور الدين محمود، على حين وجد الملك

الصليبي أمالريك (عموري) في الفوضى الضاربة في مصر آنذاك فرصة جيدة للهجوم على مصر بحجة عدم دفع الجزية التي تقررت على مصر للصليبيين في عهد سلفه بلدوين الثالث. وفي سنة 1163م كانت قوات الملك الصليبي تعبر برزخ السويس، ثم حاصر مدينة بلبيس. ولكن ضرغاما الذي انفرد بكرسي الوزارة والسلطة تصدى له وقطع جسور النيل، بحيث شكلت مياه الفيضان وأوحال الدلتا عائقا رهيبا جعل الصليبيين يرجعون القهقرى إلى فلسطين،[103] ولكن إلى حين.

وفي تلك الأثناء كان الوزير المخلوع شاور يحث الخطى نحو بلاط نور الدين محمود في دمشق ليطلب حملة عسكرية يستعيد بها كرسي الوزارة الضائع في القاهرة. وفي مقابل ذلك عرض أن يتكفل بنفقات الحملة، وأن يتنازل عن بعض مناطق الحدود المصرية لنور الدين محمود، وأن يعترف له بالسلطة على مصر، ويرسل إليه ثلث الموارد المصرية سنويا. واستجاب نور الدين محمود لطلب شاور وأرسل معه حملة يقودها أسد الدين شيركوه، وبرفقته شاب في السابعة والعشرين من عمره هو ابن أخيه صلاح الدين يوسف الأيوبي. الذي خلف نور الدين في قيادة الجهاد ضد الصليبيين فيما بعد.

ولكن ضرغاما الذي بلغته أنباء الاتفاق بين شاور ونور الدين تحرك بدافع من شهوة السلطة والأنانية السياسية، فأرسل يستنجد بالصليبيين. ولم يتردد عموري. وعلى الفور تحركت حملة صليبية بقيادته ضد مصر. وخلال السنوات الست التالية قام هذا الملك بغزو مصر خمس مرات.[104] لقد انتقل الصراع بين نور الدين والصليبيين من شمال بلاد الشام إلى ميدان جديد هو شرق دلتا النيل بطول المسافة من الفرما (قرب بور سعيد الحالية) حتى القاهرة. وكانت هذه النقلة في مجال الصراع أكثر من مجرد نقلة جغرافية. لقد كانت بمثابة تطور جديد في المفاهيم السياسية. لقد فرض منطق التاريخ، وحقائق الجغرافية أن تكون مصر ميدانا رئيسا في الحروب الصليبية، لا هامشا عرضيا من هوامش ذلك الصراع الطويل المضني.

على أي حال أدت محاولات أمالريك الفاشلة ضد مصر إلى نتيجتين غاية في الأهمية، أولاهما: تقلص الموارد البشرية والمادية لمملكة بيت المقدس

اللاتينية من جهة، وثانيتهما: تغيير خريطة العلاقات السياسية لصالح القوى العربية الإسلامية من جهة ثانية. فقد قتل ضرغام وشاور في خضم هذه الأحداث، وصار أسد الدين شيركوه وزيرا للخليفة العاضد الفاطمي. وبعد موت أسد الدين، سنة 564 هـ/1169 م. خلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف الأيوبي في الوزارة.

وفيما بعد أثبتت الأحداث أن صلاح الدين هو بطل تلك الحقبة الحرجة في تاريخ المنطقة العربية آنذاك. وكانت وزارة صلاح الدين في خدمة العاضد آخر الفاطميين بمثابة الفترة الانتقالية لتألق نجمه. وكان فشل مشروع أماليك بشن حملة مشتركة مع البيزنطيين ضد مصر سنة 665 هـ/ 1169م، وحصارهم الفاشل لميناء دمياط على مدى خمسين يوما،[105] بمثابة الإعلان عن أن هذا القائد الشاب قد دعم حكمه، واطمأن إلى سلامة مركزه السياسي.

وفي هذه الأثناء كانت راية نور الدين محمود ترفرف على دولة متسعة الأرجاء فيها خمس عواصم هي: دمشق، والرها، وحلب، والموصل، ثم القاهرة. وأخذ نور الدين يلح على صلاح الدين لاتخاذ الخطوات الحاسمة بإعلان نهاية الخلافة الفاطمية، وإعادة مصر إلى الخلافة العباسية. ولكن صلاح الدين تمهل حتى واتته الفرصة في أول يوم جمعة من سنة 567 هـ/ 10 سبتمبر 1171م حل اسم الخليفة العباسي محل اسم الخليفة الفاطمي في الخطبة التي ألقيت في مسجد عمرو بن العاص. وكان الخليفة الفاطمي العاضد طريح الفراش، ثم مات بعد أسبوع واحد دون أن يدري أن دولة آبائه قد دالت، وأنه آخر الفاطميين.[106]

كان انفراد صلاح الدين الأيوبي بالسلطة في مصر مقدمة لمرحلة حاسمة من مراحل الصراع ضد الصليبيين، إذ إن مصر بمواردها الهائلة جعلت قامته السياسية أكثر طولا. ثم جاءت وفاة نور الدين محمود في 11 شوال 569 هـ/ 1174م، ثم موت عدوه اللدود أماليك، ملك بيت المقدس، في السنة نفسها، فرصة طيبة لكي يوحد الجبهة العربية الإسلامية، وتأكيد زعامته على العالم الإسلامي.

كانت الخطوة الضرورية لتأكيد زعامة صلاح الدين تتطلب منه أن يعالج في حزم ورزانة ما نجم عن وفاة نور الدين محمود من منازعات

وصراعات.[107] وبعد عدة تطورات سياسية أعلن صلاح الدين الأيوبي نفسه ملكا على مصر والشام بمباركة الخليفة العباسي سنة 570 هـ/1175م. وقضى صلاح الدين في مصر حوالي ست سنوات من 572- 577 هجرية/ 1176- 1181م لترتيب الأوضاع الداخلية في مصر والشام استعدادا للمواجهة مع الصليبيين. وفي تلك الأثناء كانت سياسة صلاح الدين تقوم على أساس تجنب المواجهة على مستوى كبير مع الفرنج. لقد تمكن صلاح الدين من بسط سلطانه على منطقة تمتد من النيل إلى الفرات حافلة بإمكانات وموارد هائلة، غير المساعدات المتوقعة في حال نشوب المعركة ضد الصليبيين.

وفي تلك الأثناء قام الصليبيون بعدة غارات عبر شبه جزيرة سيناء، بل إن قواتهم وصلت حتى بحيرات منطقة السويس (البردويل حاليا)، كما شنوا غارات أخرى على تيماء شبه الجزيرة العربية.[108] وحاول رينالد دي شاتيون أمير الكرك (أرناط) أن يقتحم البحر الأحمر، ويغزو مكة والمدينة، وأن يتحكم في حركة التجارة الدولية المارة بهذا البحر، وهاجم بعض موانئ مصر والحجاز، ولكن الأسطول المصري سحق أسطوله تماما.[109]

وهكذا وجد صلاح الدين مبررا قويا لبدء عملياته ضد الصليبيين. وكانت قمة انتصاره على زهرة جيوش الفرنج عند قرون حطين في فلسطين يوم 24 ربيع الثاني 582 هجرية/ 4 يوليو 1187م.[110] لقد فقدت مملكة بيت المقدس قواتها العسكرية الرئيسة في هذه المعركة. صحيح أن كوارث سابقة وقعت على الفرنج في المنطقة العربية، إذ حدث من قبل أن قتل بعض أمرائهم، كما وقع بعض ملوكهم وأمرائهم في الأسر، ونالتهم هزائم عسكرية ثقيلة، ولكن ما حدث في حطين كان أخطر من ذلك بكثير. فقد تم تدمير أكبر جيش صليبي أمكن جمعه منذ قيام الكيان الصليبي، كما أن المنتصر كان هو صلاح الدين الأيوبي صاحب السيادة على العالم الإسلامي بأسره. وما حدث بعد حطين كان أشبه بنزهة عسكرية، إذ سارعت المدن والقلاع الصليبية إلى الاستسلام إما لصلاح الدين شخصيا وإما لقادة جيوشه. وتم أخذ عكا، ويافا، وبيروت، وجبيل، ثم عسقلان، وغزة.[111] وفي أواخر جمادى الآخرة سنة 583 هـ/سبتمبر 1187م اتجه صلاح الدين صوب القدس. وبعد حصار قصير دخل صلاح الدين وقواته المدينة المقدسة في 27 رجب

583 هـ/2 أكتوبر 1187م بصورة إنسانية تناقض وحشية الصليبيين حين غزوها قبل بضع وثمانين سنة، وأقيمت خطبة الجمعة في المدينة المحررة بعد أن ظلت ممنوعة طويلا.(112)

ولم يتبق بأيدي الصليبيين سوى صور، وإنطاكية، وطرابلس، وبعض القلاع والحصون المتناثرة على الأرض العربية في بلاد الشام.

وجاء رد الفعل الأوروبي عنيفا ؛ فقد مات الباب أربان الثالث (1185-1187م) من هول الصدمة حين بلغته الأنباء. ولأن الأنباء السيئة تنتشر بسرعة فإن الرسل توجهوا إلى غرب أوروبا عقب هزيمة حطين لإبلاغ أمراء الغرب الأوروبي بأنباء الكارثة. فقد ذهب كبير أساقفة صور في جولة زار فيها بلاط عدد من ملوك أمراء الغرب لكي يستنهض هممهم.(113) وقام البابا جريجوري الثامن، الذي لم يستمر في كرسي البابوية سوى شهرين، بإرسال خطاب بابوي «لكل المؤمنين في الغرب»، وذكرهم فيه بأن فقدان الرها قبل أربعين سنة كان يجب أن يكون نذيرا لهم، كما وعدهم بغفران كامل لخطاياهم إذا شاركوا في حملة صليبية جديدة، وفرض صياما في كل يوم جمعة على مدى خمس سنوات قادمة، والامتناع عن أكل اللحم في أيام السبت والأربعاء.(114)

ومات البابا جريجوري الثامن في 17 ديسمبر سنة 1187 م تاركا لخليفته البابا كليمنت الثالث (1187-1191م) مهمة الاتصال بملوك ألمانيا، وفرنسا، وإنجلترا، وتم فرض ضريبة مقدارها عشرة في المائة على كل دخل، وعلى الأملاك المنقولة عرفت باسم «عشور صلاح الدين».(115) وأخذ شارة الصليب الإمبراطور الألماني فردريك بربروسا (Frederick I Barbarossa) (1152-1190م)، وريتشارد الأول ملك إنجلترا (1189-1199م) وفيليب أغسطس (Philip II Augustus) ملك فرنسا (1180-1123م).

في 11 مايو 1189 م تحركت قوات الإمبراطور الألماني فردريك بربروسا، قبل القوات الفرنسية، والقوات الإنجليزية. وسارت قوات الألمان عبر الطريق البري الذي سارت عليه من قبل قوات الحملة الأولى، ولكن الإمبراطور لقي حتفه في أحد أنهار آسيا الصغرى غريقا في 10 يونيو 1190 م. وكانت تلك خسارة فادحة لحقت بالجيش الصليبي قبل أن يصل إلى هدفه، وانتهى أمر الألمان بالمشاركة الرمزية في الحملة الصليبية الثالثة.(116)

أما ريتشارد الأول ملك إنجلترا (قلب الأسد)، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا فقد وصلا بقواتهما إلى صقلية عن طريقين بحريين مختلفين حيث أمضيا شتاء سنة 1190 /1191م في نزاع حول الأمور الداخلية في صقلية. ومع ذلك أبحر الاثنان تجاه فلسطين، حيث وصل الملك الفرنسي أولا بسبب انشغال ريتشارد بالاستيلاء على قبرص من الحكم البيزنطي. وفي تلك الأثناء كان الناجون من سيوف صلاح الدين والمسلمين قد تجمعوا في مدينة صور التي رحبت بالمقاتلين منهم فقط. أما الملك جي لوزنيان الذي أطلق صلاح الدين الأيوبي سراحه فقد عسكر بقواته الضئيلة في سهل عكا. ثم بدأت الجيوش والإمدادات الأوروبية تفد إلى بلاد الشام. وهكذا بدأت معارك الحملة الصليبية الثالثة.(117)

لا تهمنا التفاصيل كثيراً، بيد أننا نود أن نشير إلى أن المعارك الأولى انتهت بسقوط عكا في أيدي صليبيي الحملة الثالثة.(118) وعاد فيليب أوغسطس إلى فرنسا، على حين بقى ريتشارد في بلاد الشام سنة كاملة، ثم اضطر إلى عقد صلح الرملة مع صلاح الدين سنة 588 هـ/1192م الذي أبقى الوضع كما هو عليه.(119)

وهكذا كان حصاد الحملة الصليبية الثالثة هزيلا بالقدر الذي خيب آمال الأوروبيين والفرنج المقيمين تحت سماء الشرق العربي. وسرعان ما تحولت الآمال الكبار التي عقدت على هذه الحملة إلى إحباط، واتهامات حادة تبادلها زعماء الصليبيين.

أما صلاح الدين فقد بقي شهورا قليلة في بيت المقدس، ثم اتجه إلى دمشق حيث انتقل إلى جوار ربه في 27 صفر 589 هـ/4 مارس 1193 م. وبوفاة صلاح الدين الأيوبي توارت عن مسرح التاريخ شخصية ظلت ملء العين والقلب موضع الإعجاب والهيبة من جميع معاصريه ؛ أعداء كانوا أم حلفاء. ولكن الظروف التي أنجبته لقيادة الأمة كانت لا تزال قائمة. فالصليبيون مازالوا موجودين فوق أرض الشام، كما أن خطر قدوم حملات صليبية جديدة كان لا يزال قائما. والإحياء الأيديولوجي والأخلاقي، الذي كان بمثابة التعبئة المعنوية للعمليات العسكرية، كان لا يزال في طور النمو، ولا تزال قطوفه بعيدة المنال.

وفي ظل هذه الظروف جاء خلفاء صلاح الدين الأيوبي على غير شاكلته،

إذ أدت وفاته إلى تفسخ دولته في الحال إلى قطع يتنازع عليها الورثة من أبناء البيت الأيوبي. وكان التوتر الذي ساد العلاقات بين الورثة الأيوبيين نعمة على بقايا الوجود الصليبي الذي كان يشغل حيزا ضيقا من أرض فلسطين ولبنان الحالية، ويمتد بحذاء الساحل من بيروت حتى يافا. وتمتعت مملكة بيت المقدس الوهمية، التي أصبحت عاصمتها عكا، بفترة سلام قاربت السنوات العشر، وهي فترة كانت كافية لأن يلتقط الصليبيون أنفاسهم بعد الأحداث المرعبة التي مرت بهم. وكان واضحا أن قوات الصليبيين في بلاد الشام لم تكن ندا للمسلمين، ومن ثم انعقدت آمالهم على قدوم حملة صليبية جديدة من أوروبا لنجدتهم.

وفي السنة التي تولى السلطان العادل الأيوبي منصب السلطنة الأيوبية في القاهرة، أي سنة 596 هـ/ 1200م،[120] كانت فكرة الاستيلاء على بيت المقدس وضرب مصر لا تزال تشغل بال الأوروبيين. وحين رأى الصليبيون أن السلطان العادل الأيوبي يفرض نوعا من الوحدة على أبناء البيت الأيوبي خشوا أن يعودوا إلى الموقف المرعب الذي عانوه أيام صلاح الدين الأيوبي، وأدرك الباب والغرب والصليبيون في الشرق-أدركوا جميعا أن الاستيلاء على مصر هو الخطوة المنطقية والضرورة لتأمين وجودهم في بلاد الشام. لقد بات غزو مصر، بكل مواردها، قضية منطقية وضرورة حربية لضمان الاستيلاء على ما استرده صلاح الدين من أراضي مملكة بيته المقدس اللاتينية.

وهكذا أخذ البابا إنوسنت الثالث (Innocent III)(1198- 1216م) على عاتقه مهمة الدعوة إلى حملة صليبية جديدة يكون هدفها مصر. كان ذاك البابا قد درس القانون قبل اعتلائه عرش القديس بطرس في روما، كما كان رجلا سياسيا على أتم الاستعداد لأن يستخدم أي وسيله، متاحة تمكنه من الوصول إلى هدفه.[121] وقد أعلن إنوسنت الثالث أنه يريد خروج حملة صليبية جديدة لتصحيح الأوضاع الناجمة عن انتصارات صلاح الدين. وفي سنة 1199 م كتب رسالة إلى بطريرك بيت المقدس يطلب منه تقريرا وافيا عن حال المملكة الصليبية التي كانت عكا قد صارت عاصمة لها.[122]

ثم بدأت الاستعدادات لتجميع حملة صليبية جديدة ضد مصر، بيد أن مشكلة نقل قوات الحملة وعتادها إلى الشواطئ المصرية فرضت على

الصليبيين أن يدخلوا في مفاوضات شاقة مع جمهورية البندقية التجارية، التي كانت تملك أسطولا من أقوى الأساطيل العاملة في البحر المتوسط آنذاك، لنقل الصليبيين. ولسنا ننوي معالجة أحداث هذه الحملة بالتفصيل لأن ذلك خارج عن خطة البحث.

على أي حال، كانت أحداث هذه الحملة التي عرفت بالحملة الرابعة مزيجا من المأساة والملهاة.[123] فقد كان هدفها الأساسي مصر. وفي سنة 1201م توجهت مختلف الفرق الصليبية إلى البندقية لكي تنقلهم السفن إلى الشواطئ المصرية، ولكن الصليبيين بعد سنة من هذا التاريخ كانوا يفرضون حصارهم على القسطنطينية العاصمة المسيحية بدلا من القاهرة العاصمة الإسلامية. ففي 24 يونيو 1203 م كان الأسطول قد رسا في مياه خلقدونية قبالة القسطنطينية.

وبمجرد وصول الصليبيين إلى هناك شنوا هجومهم ضد القسطنطينية. وفي مارس 1204م كانوا يرسون دعائم دولة جديدة تحل محل الإمبراطورية البيزنطية بمعاهدة فصلوها على أهوائهم. وفي 13 أبريل تم اقتحام المدينة، وتركت عرضة للنهب والمذابح الصليبية على مدى ثلاثة أيام مرعبة.[124] وهكذا انتهت الحملة الصليبية الرابعة.

لقد توارت أحداث الحملة الصليبية الرابعة منذ بدايتها، وحتى نهايتها، خلف ضبابية الشك وقلة المعلومات. وتوالت الاتهامات والاتهامات المضادة بين زعماء أوروبا والصليبيين حول حقيقة ما جرى. ومع أن إنوسنت الثالث أدان انحراف الحملة عن هدفها إلا أنه سرعان ما بلع احتجاجاته حين رأى أن سقوط عاصمة قسطنطين تحت سنابك الخيول الصليبية يمكن أن يحقق أمل البابوية القديم في السيطرة على الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية.

ولكن بعض الذين لم تعجبهم خطط الإغارة على العاصمة البيزنطية، وتغيير هدف الحملة واصلوا حتى شواطئ بلاد الشام. وهناك تعاونوا مع الصليبيين المستوطنين لشن هجوم هزيل ضد مدينة رشيد المصرية ومدينة فوة القريبة منها. وقد ظلوا في عاراتهم سنة 600 هـ/ 1204م خمسة أيام.[125]

وسرعان ما أدرك الصليبيون في عكا استحالة قدوم حملة صليبية لنجدتهم، ومن ثم سعى ملك عكا أماليك الثاني (Amalric II) لعقد هدنة مع السلطان العادل الأيوبي الذي رحب بعقد الهدنة نظرا لازدهار التجارة

ومكاسبها في حال السلم من ناحية، وبسبب متاعبه الداخلية مع بقية الأيوبيين من ناحية أخرى. وتم عقد هدنة مدتها ست سنوات في أواخر سنة 1204م.[126]

بعد ذلك خرجت من أوروبا الغربية حملة عجيبة هي تلك التي عرفت باسم «صليبية الأطفال». وهي حركة جاءت تعبيرا عن التدين العاطفي الذي ملك على الأوروبيين عقولهم في تلك الأثناء، كما كانت بمثابة رد الفعل الشعبي لفشل البابوية وحكام أوروبا في أخذ مدينة القدس. وقد خرج من طيات هذه الموجة الدينية الجارفة صبي فرنسي في الثانية عشرة من عمره اسمه ستيفين (Stephen) من مدينة كلوي (Cloyes) الصغيرة في إقليم أورليانز. وفي أحد أيام شهر مايو سنة 1212م ظهر هذا الصبي الراعي أمام بلاط الملك الفرنسي فيليب أوغسطس في لمعان دوني (Saint-Denis) ومعه خطاب قال: إن المسيح شخصيا أعطاه إياه لكي يوصله للملك.[127] وقد زعم ستيفين أن العناية الإلهية اختارته لقيادة حملة من الأطفال الأبرياء الذين سوف يستردون مدينة القدس بعد أن فشل الملوك والأمراء والبابا وغيرهم من الكبار في استعادتها بسبب ذنوبهم. واجتذب ستيفين بضع مئات من الأطفال من باريس ومن غيرها من أقاليم فرنسا، وتجمع حول الموكب عدد من صغار القساوسة. وسار موكب حملة الأطفال الصليبية حتى مرسيليا في انتظار أن ينشق البحر أمامهم في معجزة مثل تلك التي حدثت للنبي موسى عليه السلام، ثم جاءت سفن لكي تنقل منهم عددا كبيرا إلى جهة مجهولة.

ويبدو أن أطفال ألمانيا أحسوا بالغيرة حين وصلت أنباء حملة ستيفين إلى، حوض الراين، فخرجت من ألمانيا، بعد أسابيع قليلة من رحيل ستيفين، حملة أطفال أخرى بقيادة صبي اسمه نيقولا (Nicholas) من إحدى قرى إقليم الراين.[128] وانطلق الموكب العجيب من مدينة كولون وسار عبر جبال الألب في إيطاليا ؛ وهناك أنقسم قسمين: أحدهما ركب السفن من ميناء بيزا، والقسم الآخر وصل إلى ميناء برنديزي. وعلى أرض إيطاليا تخلفت أعداد كبيرة من أولئك الأطفال بسبب الجوع والبرد، أو الخوف من ركوب البحر.[129] أما الذين سافروا بالفعل فإن أحدا لم يعرف أبدا ماذا جرى لهم على وجه اليقين.

على أي حال، فإن حملة الأطفال لم تحل دوت إعداد حملة صليبية جديدة ضد مصر بطلب من يوحنا برين (John de Brienne) الذي تزوج ماريا وريثة مملكة عكا،[130] وصار ملكا على الصليبيين في فلسطين سنة 1210م. واستجاب الباب إنوسنت الثالث وأخذ يدعو لحملة صليبية جديدة في شتى أرجاء الغرب الأوروبي. وفي مجمع اللاتيران الكنسي، الذي عقد سنة 1215م، شرح البابا مدى سوء حال المستوطنين الصليبيين في فلسطين، وبعض الإجراءات الضرورية لتوفير النفقات الضرورية لتجهيز الحملة المقترحة. ولكن البابا إنوسنت الثالث مات سنة 1216م قبل أن تبدأ عجلة الحملة الصليبية الخامسة في الدوران. وخلفه الكاردينال المسن سافيللي (Savelli) تحت اسم البابا هونريوس الثالث (Honorius III).

كان هدف تلك الحملة مصر. وكانتا هناك أسباب عديدة تحفز الصليبيين على النزول بقواتهم في دلتا النيل بدلا من ضفاف الأردن ؛ أولها رغبة المدن التجارية الإيطالية (الممول الرئيس للحملة) في السيطرة على تجارة المتوسط، وضرب المنافسة المصرية في عقر دارها بالسيطرة على ميناء دمياط أهم موانئ شرق المتوسط آنذاك، وثاني هذه الأسباب يكمن في المذهب السياسي/ العسكري للصليبيين. ومؤداه أن هزيمة مصر، أو تحييدها على الأقل، خير ضمان لبقاء المستوطنات الصليبية. أما السبب الثالث فكان استرداد الشرف العسكري الذي تمرغ بهزيمة حطين، وفقدان القدس.

بالفعل بدأت بعض قوات الحملة الصليبية الخامسة في الوصول إلى عكا. وقد استمرت أحداثها أربع سنوات تنقص شهرا على حد رواية ابن الأثير.[131] وفي أوائل نوفمبر سنة 1217م خرج الصليبيون من عكا لكي يشنوا هجوما مباغتا ضد مصر في جيش ضخم لم تشهد بلاد الشام مثله منذ أيام الحملة الصليبية الثالثة، بيد أن فوضى القيادة في الجيش الصليبي الضخم جعلته عاجزا عن القيام بأي عمليات عسكرية حقيقية. وسرعان ما عاد الجيش إلى داخل أسوار عكا لكي يظل هادئا حتى أبريل سنة 1218م حين وفدت قوات صليبية جديدة من أوروبا.[132]

وقرر مجلس الحرب الصليبي الذي اجتمع في عكا مهاجمة دمياط على دلتا النيل. وقد أخذ أسقف عكا جيمس الفيتري (James de Vitry) على عاتقه مهمة إخبار البابا بقرار رجال الحرب. وعند نهاية شهر مايو سنة

1218م وصلت القوات الصليبية قبالة دمياط التي كانت بها قلعة حصينة كما كانت أهم ثاني ميناء في مصر بعد الإسكندرية. وخرج الكامل، أكبر أبناء السلطان العادل وخليفته، للدفاع عن دمياط ضد الصليبيين الذين أقاموا معسكرهم على الشاطئ الغربي للنيل وأحاطوه بخندق «... يمنعهم ممن يريدهم...».

وظل الوضع متجمدا قرابة أربعة أشهر حتى امتلكوا برج السلسلة، ولكن القوات المصرية ظلت تقاتلهم في البر وفي فرع النيل الدمياطي. ثم توفي الملك العادل في جمادى الآخرة 615 هـ. وعاد الكامل من دمياط ليواجه مؤامرة انقلاب دبرها أحد الأمراء ضده.[133] وتفرقت جموع المدافعين عن دمياط التي سقطت بأيدي القوات الصليبية في 27 شعبان سنة 616 هـ/ 5 نوفمبر 1219 م.[134]

وفي أثناء الحصار، قبل سقوط المدينة، كان السلطان الكامل قد يئس من إمكانية صمود دمياط، وأرسل في نهاية شهر أكتوبر يقترح على الصليبيين الجلاء عن مصر مقابل أن يأخذوا الصليب المقدس، وأن يمتلكوا مدينة بيت المقدس ووسط فلسطين والجليل، على أن يدفع المسلمون جزية عن الحصون التي تبقى بأيديهم.[135]

كان العرض الذي تقدم به الكامل الأيوبي غاية في الكرم، والسخاء، والتخاذل. ونصح الملك يوحنا بريين الصليبيين بقبوله. ولكن المندوب البابوي بلاجيوس (Pelagius)، وبطريرك بيت المقدس رفضا العرض وآزرهما زعماء المنظمات الرهبانية العسكرية من الداوية(*) الاسبتارية(*1). كما أن الإيطاليين التجار الذين كانوا مصدر التمويل الأساسي للحملة رفضوا العرض، إذ كانوا يريدون دمياط مركزا تجاريا لهم.[136]

جمد الصليبيون نشاطهم في دمياط على مدى ثمانية عشر شهرا كاملة. وعندما وصلت قوات إضافية من أوروبا وعكا بدءوا يزحفون جنوبا حتى

(*) الداوية (فرسان الهيكل أو الهيكليون): جمعية عسكرية رهبانية تأسست سنة 1118م. اشتهر أعضاؤها أيام الحروب الصليبية في فلسطين. حلها الملك فيليب الرابع ملك فرنسا سنة 1312 م. (المحرر).

(*1) الاسبتارية: منظمة دينية عسكرية، أنشئت في بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي. (المحرر).

مدينة فارسكور في منتصف شهر يوليو سنة 1221م. وهذا هو وقت فيضان النيل السنوي الذي يشتد في شهر أغسطس. وعبرت قوات الجيش المصري لكي تحاصر الصليبيين قرب المنزلة. ثم بدأ فيضان النيل وفتحت الجسور فأغرقت كل الطرق أمام الجيش الصليبي المحاصر. وعلى صفحة النهر كانت سفن البحرية المصرية تستولي على عدد من سفن العدو ومعداته، وتقتل وتأسر بحارته. وهكذا غرقت أحلام الصليبيين بالاستيلاء على مصر في أوحال الدلتا، وتحدد مصير الحملة الخامسة بشكل نهائي. وفي التاسع من شهر رجب سنة 618 هـ/ سبتمبر 1221م دخلت القوات المصرية دمياط التي كان الصليبيون قد حصنوها جيداً.(137)

كانت الحملة ضد دمياط آخر محاولات البابوية لتوجيه حملة صليبية تحت قيادتها فقط ولحسابها منفردة. ومن ناحية أخرى، فإن الحملات الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي اتخذت طابعا مخالفا لحملات القرن الثاني عشر الميلادي. فالحملة الثانية جاءت رد فعل على سقوط الرها سنة 1144م في يد عماد الدين زنكي، كما أن الحملة الثالثة كانت استجابة للكارثة التي حاقت بالصليبيين في فلسطين بعد معركة حطين وسقوط بيت المقدس سنة 1187م. أما حملات القرن الثالث عشر الميلادي فكانت نتيجة الضعف الدائم الذي ألم بالمستوطنات الصليبية، ولم تبرأ منه منذ عمليات صلاح الدين الأيوبي على الرغم من أن فرنج الشرق لم يواجهوا أي خطر حقيقي طوال الفترة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين. وعلى الرغم من أن شواطئ فلسطين شهدت في هذا القرن موجات متصلة من الفرسان، والمغامرين، وشذاذ الآفاق، والباحثين عن الفرص تحت راية الصليب، وعلى الرغم من أن بعض هذه الموجات كانت عاتية تضم فيالق من الفرسان والمحاربين، وبعضها كان أقرب إلى الرذاذ الخفيف إلا أن هذا المدد المتواصل لم يستطع أن يقدم شيئا للكيان الصليبي الذي كان يمضي إلى نهايته المحتومة.

ولأن فشل حملة دمياط كان في التحليل الأخير ضربة موجعة لهيبة البابوية، فقد أخذ البلاط البابوي يضغط بشدة من أجل شن حملة صليبية جديدة.(138) ولن ندخل في تفاصيل التقلبات السياسية في أوروبا آنذاك.(139) ولكن ما يهمنا أن الصليبيين في فلسطين لم يحاولوا الإفادة من سياسة

المهادنة التي اتبعها السلطان الكامل الأيوبي، أو أن يستجيبوا لها. وكذلك كان حال البابوية. ولكن موقف الإمبراطور الألماني فردريك (Frederick II)(1215-1250م) كان مختلفا ؛ فقد أبدى استعدادا واضحا للإفادة من هذه الروح السلمية البادية في موقف السلطان الكامل. ويرجع السبب في ذلك إلى فردريك الثاني نفسه، إذ لم يكن «صليبيا» مثل غيره من ملوك أوروبا اللذين قادوا الحملات الصليبية. لقد كان هذا الإمبراطور، الذي عرف باسم أعجوبة الدنيا، صقليا تربى في ظل مظاهر الحضارة العربية الميلادية التي فرضت نفسها كان كل مكان من الجزيرة التي نشأ في أحضانها. ولم يكن الإسلام بالنسبة له مجرد كتاب مغلق، كما أن المسلمين لم يكونوا مجرد قوم من الكفار يستحقون الموت. فقد كان ذلك الإمبراطور يكن للمسلمين ودينهم وحضارتهم تقديرا كبيرا. وكان واسع العلم غزير المعرفة يجيد من لغات الدنيا آنذاك ست لغات هي العربية، واليونانية، واللاتينية، والإيطالية، والألمانية، والفرنسية.[140]

كان فردريك الثاني قد تولى العرش سنة 1215م، وأخذ شارة الصليب في تلك السنة لكي يضمن تأييد البابا إنوسنت الثالث له في عرش الإمبراطورية، بيد أنه كان عازفا عن القيام بحملة صليبية لأنه كان يطمح إلى بسط نفوذه على كل إيطاليا بما فيها أملاك البابوية ومدن الشمال التجارية الغنية. ولذلك أخذ يماطل في الوفاء بنذره الصليبي، ولكن زواجه من يولاندا (Yolanda) ابنة الملك الصليبي الراحل يوحنا بريين ملك عكا، جعل منه ملكا على بيت المقدس ومسؤولا عن الصليبيين في الشرق. وعلى الرغم من ذلك بدأت المراسلات بينه وبين السلطان الكامل الأيوبي مما أثار غضب البابا في روما. ثم أسفرت المراسلات عن قدوم الإمبراطور إلى فلسطين سنة 625 هـ/ 1228 م. وكان تحت إمرته جيش صغير قوامه ستمائة فارس فقط، وأسطول هزيل.[141] وكان مشهدا غريبا ذلك الذي جرى على مسرح التاريخ آنذاك، إذ دعت البابوية إلى شن حملة صليبية ضد فردريك الثاني بعد أن وقعت ضده عقوبة الحرمان، على حين كان الإمبراطور في فلسطين «يؤدي واجبه الصليبي».

كانت أهم نتائج هذه الحملة العجيبة، التي تجنبت أي إراقة الدماء، أن عقدت هدنة مدتها عشر سنوات، بين الكامل الأيوبي وفردريك الثاني، على

أساس أن يستسلم الإمبراطور مدينة القدس، وبيت لحم، وشريطا من الأرض يصل بين عكا والقدس، ويبقى في حوزة المسلمين المسجد الأقصى وقبة الصخرة والمناطق الريفية.[142] وفي المقابل يتعهد فردريك بمنع أي حملة الصليبية طوال عشر سنوات من أوروبا.

وبعد أن توج فردريك الثاني ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية عاد في يونيو 1229م إلى أوروبا بمكاسب لم تستطع أي حملة أخرى قبله أن تحققها منذ الحملة الأولى في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي.

أما العالم العربي الإسلامي فقد رأى-بحق-أن الهدنة التي عقدها الكامل الأيوبي كارثة حقيقية. وكان رد الفعل الشعبي عنيفا ضد السلطان الذي بعث سفراءه إلى كل مكان لتبرير فعلته. وقد علق أبن الأثير على ذلك بقوله: «واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه. يسر الله فتحه وعوده إلى المسلمين بمنه وكرمه...».[143]

وقد أتاحت فترة هدنة السنوات العشر فرصة جيدة للصليبيين وزعماء الغرب الأوروبي لكي يستعدوا لجولة عسكرية جديدة ضد المسلمين. وفي سنة 635 هـ/ 1239 م مات السلطان الكامل، وبعد عدة تقلبات في الأحوال اعتلى عرش السلطنة في القاهرة ابنه السلطان الصالح نجم الدين أيوب[144] سنة 638 هـ/ 1240 م.

وفي غمرة الحرب الأهلية والمنازعات التي اندلعت بين الأيوبيين في بلاد الشام ومصر والجزيرة، والتي انتهت باعتلاء الصالح أيوب عرش مصر، انتهت الهدنة ذات السنوات العشر. وكان البابا جريجوري التاسع (Gregory IX) يستعد لهذا الموقف منذ صيف سنة 1239م. ولم تلق جهوده استجابة كبيرة سوى في فرنسا حيث تجمع عدد من نبلائها تحت زعامة تيبالد الشامباني ملك نافار (Theobald de Champagne). وبعد رحلة عاصفة في المتوسط وصلت هذه الحملة إلى عكا في أول سبتمبر. وفي غضون أسابيع قليلة تجمع جيش قوامه حوالي ألف من الفرسان. وفي نوفمبر من السنة نفسها (1239 م) التقى هذا الجيش مع الجيش المصري قرب مدينة غزة في معركة قاسية كانت الهزيمة فيها من نصيب الصليبيين الذين تفرقوا بين أسير وقتيل.[145] ومن ناحية أخرى هجم الملك الناصر داود الأيوبي، حاكم الكرك، على بيت المقدس واستعادها من الصليبيين في

ديسمبر من السنة نفسها. وقد تمكن الصالح نجم الدين أيوب من أخذ بيت المقدس بواسطة الخوارزمية سنة 642 هـ/ 1244م.[146] وكانت تلك الاستعادة الأخيرة لبيت المقدس التي ظلت بيد المسلمين والعرب حوالي سبعة قرون قبل أن يدخلها جيش أوروبي آخر، وقبل أن يحتلها الصهاينة.

وفي سنة 647 هـ/1249م تواترت الأنباء عن قرب قدوم حملة جديدة تحت راية الصليب ضد مصر بقيادة لويس التاسع (Louis IX) ملك فرنسا بهدف احتلال مصر. وبسرعة عاد الملك الصالح نجم الدين أيوب من الشام إلى مصر لكي ينظم وسائل الدفاع. وتروي المصادر التاريخية العربية أن الإمبراطور فردريك الثاني، صديق الأيوبيين وعدو البابا اللدود، قد أرسل أحد رجاله متخفيا في زي تاجر إلى السلطان الذي كان مريضا بدمشق يخبره بالاستعدادات الأوروبية للهجوم على مصر.[147]

وكانت الاستعدادات تجرى لهذه الحملة بالتنسيق بين البابا إنوسنت الرابع والملك الفرنسي منذ سنة 1245م نتيجة سقوط بيت المقدس في أيدي الخوارزمية وخضوعها للصالح أيوب. ولم يكن هدف هذه الحملة استرداد بيت المقدس فقط، وإنما سعت إلى تكوين حلف مغولي/ مسيحي بهدف تطويق العالم الإسلامي والقضاء عليه. والواقع أن فكرة الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع جاءت مواكبة لفكرة إقامة حلف مغولي/ صليبي ضد المسلمين.[148] ولكن المشروع فشل لأن المغول كانت لهم أحلامهم الخاصة بالسيادة على العالم على الرغم من كثرة السفارات المتبادلة بين الجانبين.[149]

وفي خريف سنة 646 هـ/ 1248م أبحر الأسطول الصليبي من ميناء مرسيليا الفرنسي إلى قبرص حيث أمضى لويس التاسع فترة من الوقت في انتظار تكامل القوات التي كان لويس التاسع ينتظرها. وفي مايو سنة 1249 م أقلعت السفن تجاه الشواطئ المصرية. وفي العشرين من شهر صفر سنة 647 هـ/ 4 يونيو 1249 م نزل الصليبيون قبالة دمياط، وأمامهم لويس التاسع يخوض المياه الضحلة وهو يرفع سيفه ودرعه فوق رأسه. وانسحب المدافعون عن المدينة بسرعة بعد أن ظنوا أن سلطانهم المريض قد مات. وفي أعقاب الجنود والفرسان فر السكان المذعورون. وهكذا سقطت دمياط دون قتال... دمياط التي دوخت قوات الحملة الصليبية الخامسة بمقاومتها الشرسة استسلمت في وداعة مذهلة لقوات لويس التاسع. وما أن تأكد

الصليبيون من حقيقة النصر السهل، الذي سقط بين أيديهم دون جهد، حتى أخذوا يدعمون وجودهم في المدينة الأسيرة.[150]

واستقبل السلطان المريض أنباء سقوط المدينة، التي بذل جهدا مضنيا في تحصينها، بمزيج من الألم والمرارة، وأعدم عددا من الفرسان الهاربين، بيد أنه نقل معسكره إلى مدينة المنصورة التي كانت قد خرجت إلى الوجود قبل ثلاثين سنة فقط. ومن هناك بدأت حرب عصابات ساهم فيها المصريون جميعا، وكثرت أعداد الأسرى الصليبيين الذين تخطفتهم أيادي المجاهدين، وتعددت مواكب الأسرى في شوارع القاهرة، كما أن البحرية المصرية قامت بدوره. ثم جاءت قوات عربية أخرى من بلاد الشام لمساندة المصريين. وفي خضم هذه الأحداث توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب في يوم الاثنين 14 شعبان سنة 647 هـ/ 20 نوفمبر 1249م،[151] وأخفت زوجته «شجر الدر»نبأ وفاته لكي لا تتأثر معنويات الجيش، وأرسلت في استدعاء أبنه توران شاه من إمارته على حدود العراق.

واشتدت المقاومة المصرية ضد القوات الصليبية.[152] وبعد عدة تطورات لا يتسع المجال لذكرها كانت القوات الصليبية تتقدم نحو مدينة المنصورة في سرعة، ولكن الأمير بيبرس البندقدارى (الذي صار السلطان الظاهر بيبرس فيما بعد) كان قد نظم الدفاع عن المدينة بشكل جيد. وانقشع غبار المعركة عن عدد كبير من قتلى الصليبيين بينهم عدد كبير من النبلاء. ولم ينجح في الهرب سوى عدد قليل من الفرسان هربوا على أقدامهم تجاه النيل ليلقوا حتفهم غرقا في مياهه. أما الجيش الصليبي الرئيس بقيادة لويس التاسع فكان لا يزال في الطريق دون أن يعلم بما جرى على الطليعة الصليبية التي اقتحمت المنصورة في 4 ذي القعدة 647 هـ/ فبراير 1250م. وفي المحرم من سنة 648 هـ/ 1250 م دارت معركة رهيبة قرب فارسكور قضت على الجيش الصليبي تماما، وتم أسر لويس التاسع نفسه في قرية منية عبد الله شمالي المنصورة، ثم نقل إلى دار ابن لقمان القاضي بالمنصورة، حيث بقى سجينا فترة من الزمان حتى أفرج عنه لقاء فدية كبيرة، ومقابل الجلاء عن دمياط.[153]

لقد كانت الحملة الصليبية السابعة آخر جهد أوروبي كبير ضد مصر، لكنه لم يكن آخر الجهود الصليبية على أي حال. وقد اختلفت هذه الحملة

عن غيرها من الحملات السابقة. وفي الواقع أن قيادة لويس لهذه الحملة كانت استثناء بين الاتجاهات السياسية الأوروبية، إذ لم يكن زعماء أوروبا القرن الثالث عشر الميلادي متحمسين لشن حروب صليبية جديدة ضد المسلمين، لأنهم كانوا منغمسين في مشكلاتهم الداخلية من ناحية، ولأنهم أدركوا عدم إمكانية فرض الوجود الصليبي بالقوة إلى الأبد. ومهما كانت تصريحاتهم العلنية التي أظهروا به حماستهم للحركة الصليبية فالواقع أن الحملات الصليبية لم تكن تحتل سوى نطاق هامشي من اهتماماتهم. لقد أخذ كثيرون من زعماء أوروبا شارة الصليب حقا في غضون القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، بيد أن من رحل منهم بالفعل إلى الشرق العربي الإسلامي كانوا قلة. ومن المثير للسخرية أن الملوك الذين أخذوا شارة الصليب مأخذ الجد، وأوفوا بقسمهم الصليبي، كانوا هم أسوأ القادة العسكريين في أوروبا، وكان لويس التاسع واحدا منهم.

أخذ لويس التاسع يجول فيما بين بلاد الشام إلى سواحل شمال أفريقيا محاولا أن يحقق حلمه الصليبي، ولقي حتفه في مغامرة صليبية في تونس. وعلى الجانب الإسلامي جرت عدة تطورات سياسية أفرزت في النهاية دولة سلاطين المماليك والشام لتقوم بدورها التاريخي في القضاء على الوجود الصليبي تحت سماء المنطقة العربية. وفد أحاط سلاطين المماليك ببقايا الوجود الصليبي حتى أجهزوا عليها دون أن تتمكن أوروبا من أن تقدم شيئا لنجدتهم.

وأخذ الوجود الصليبي يتلاشى رويدا رويدا. ففي عهد السلطان الظاهر بيبرس (658-676 هـ/ 1260-1277 م) تم توحيد مصر والشام.[154] واتسمت سياسة هذا السلطان القوى بالعنف والصرامة إزاء الصليبيين. ومنذ سنة 659 هـ/ 1261م بدأت جهود بيبرس العسكرية ضد الصليبيين. وفي مطلع سنة 663 هـ/ 1265م دخل في عمليات حربية واسعة ضد إمارات الساحل الصليبية فاستولى على مدينة قيسارية، ثم مدينة أرسوف إلى الجنوب منها. وفي العام التالي مباشرة أخذ قلعة صفد التي كانت معقل الفرسان الداوية. وكان يقود جيوشه بنفسه في هذه المعارك. وفي أثناء القتال ضد قيسارية أخذ يهدم أسوارها بمطرقة في يده حتى جرحت يده. وفي صفد كان يشارك البقر في جر الأخشاب اللازمة لعمل الأبراج لمهاجمة القلعة.[155]

وفي 666 هـ/ 1268م استولى على يافا، ثم حصن شقيف أرنون المنيع. وكانت سياسة بيبرس تقوم على الإفادة من منازعات الصليبيين الداخلية. وبعد مناورة كبيرة قامت بها جيوش هذا السلطان الداهية فوجئ الصليبيون بالقوات المصرية والشامية تحاصر إنطاكية، ثم تستولي عليها سنة 666 هـ/ 1268م.[156] واستولى بيبرس على المدينة التي ظلت رهينة الأسر الصليبي على مدى أكثر من مائة وخمسين عاما. وكان ذلك أكبر انتصار حققه المسلمون على الصليبيين منذ أيام حطين واسترداد بيت المقدس. وكان فرح المسلمين عظيما بهذا الفتح.

أما الصليبيون فقد جاءت أنباء سقوط إنطاكية عليهم بمثابة الكارثة، وانتابهم خوف شديد فسارعوا إلى تقديم فروض الطاعة والولاء للسلطان. وعندما طلب ملك عكا الصليبي معاهدة هدنة مع بيبرس، لقاء التنازل عن نصف أملاك التاج الصليبي في عكا، وافق السلطان على أساس أن هذه الهدنة تطلق يده في مواجهة القوى الصليبية الأخرى في الشام. وفي سنة 670 هـ/1271م عقد بيبرس هدنة مع بوهيموند السادس (Bohemond VI) أمير طرابلس بسبب قدوم حملة صليبية جديدة إلى عكا تحت قيادة الأمير إدوارد الإنجليزي.[157] وكانت تلك آخر جهود بيبرس الكبرى ضد الصليبيين.

وتولى الحكم سلطان مملوكي قوي آخر هو السلطان المنصور قلاوون الذي اعتلى عرش السلطنة في مصر سنة 678 هـ/1279م.[158] وبعد أن وطد دعائم حكمه بدأ في مواصلة جهود بيبرس ضد الصليبيين. وكانت بقايا الوجود الصليبي تتمثل في إمارة طرابلس، وبقايا مملكة بيت المقدس اللاتينية التي اتخذت من عكا عاصمة لها، كما كان حصن المرقب بأيدي الفرسان الاسبتارية، طرطوس بأيدي فرسان الداوية.

وفي سنة 684 هـ/1285م شن الجيش المصري هجوما ناجحا على حصن المرقب، وانتزعه من فرسان الاسبتارية. وكانت كل الشواهد تدل على أن نهاية الوجود الصليبي في المنطقة العربية قد اقتربت. وفي سنة 686 هـ/ 1287م أرسل السلطان المنصور قلاوون جيشا استولى على اللاذقية، آخر ما تبقى من إمارة إنطاكية الصليبية التي حررها بيبرس.

وبعد ذلك بسنتين خرج السلطان بنفسه على رأس جيش ضخم فرض حصارا على طرابلس لمدة شهرين واستولى عليها في أبريل سنة 1289 م، ثم

تلتها بيروت وجبلة.[159] وانحصر الصليبيون في عكا وصيدا وعثليت.

وفي السنة التالية 689 هـ/ 1290م جاء بعض الصليبيين الإيطاليين إلى عكا وعبروا عن حماستهم الصليبية بطريقتهم الهمجية المعتادة. فهاجموا المسلمين وقتلوا عددا من التجار المسلمين الذين اعتادوا دخول عكا لأغراض تجارية منذ زمن بعيد. وهكذا انتهت فترة السلام القلق، وكان على الصليبيين أن يدفعوا الثمن فادحا هذه المرة.

رفض المنصور قلاوون الأعذار التي ساقها الصليبيون القدامى في عكا، وبدأ يعد جيشه للخروج إلى فلسطين، ولكن المنية وافته في ذي القعدة 689هـ/ نوفمبر 1290م، فتأجل المشهد الأخير في قصة الوجود الصليبي إلى حين.

بدأ الفصل الأخير في هذه المواجهة الطويلة المضنية بتولي الأشرف خليل بن المنصور قلاوون حكم البلاد. وفي سنة 690 هـ/1291م[160] كان الجيش الذي أعده م أبوه قبل وفاته يفرض الحصار على عكا. وأشتد الحصار على المدينة التي لم يصمد الصليبيون داخلها أكثر من ثلاثة وأربعين يوما، ثم حررها المسلمون بعد أسر دام مائة سنة وثلاث سنين.

وبعد عكا سقطت بقية المدن والمعاقل الصليبية تباعا، ودالت دولة الصليبيين في فلسطين إلى غير رجعة. وعلى الرغم من أن بقايا الصليبيين في قبرص ورودس ظلوا مصدر إزعاج في القرنين التاليين (الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين) إلا أن دماء الصليبيين في عكا كتبت نهاية قصتهم في المنطقة العربية.

هذه هي الخطوط العريضة للمواجهة العسكرية المرهقة بين شعوب المنطقة العربية والعدوان الصليبي. والحقيقة أن الأحداث المتشابكة المتداخلة والأفكار التي أدت إلى ميلاد الحركة الصليبية، وتطوراتها، ونتائجها وآثارها على أوروبا الغربية والعالم العربي، تضع أمام المهتمين بدراسة تاريخ العلاقات الدولية نموذجا فذا لدراسة الثوابت والمتغيرات في العلاقات الدولية من جهة، وتقدم لنا نموذجا واضحا لدراسة الاحتلال الاستيطاني وما يمكن أن يفرزه من آثار ونتائج سلبية من جهة أخرى...

وهذا هو موضوع الفصل الرابع.

المراجع

(1) AOL,tom, I, pp. 107-9.

(2) H. Hagenmeyer, “Chronologie de la Premiere Croisade 1094- 1100”, ROL VI,p.225.

وعن الجولة التي قام به البابا في الجنوب الفرنسي، وإعداده لمجمع كليرمون، انظر:

. Dunculf, “The Councils of Piacenza and Clermont”, in Setton, vol. I, pp.234- 237.

(3) انظر نص روايته عن كليرمون: Fulcher, de Chartre, pp .61 -69.

والترجمة العربية الكاملة لهذا النص: قاسم، الحروب الصليبية، ص 73- 77.

(4) Robert le Moin, “Historia Iherosotimitana”, RHC, occ. III, 707- 730;”Guibert de Nogent,”Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos”,RHC, occ. IV, pp. 137- 140; Baudri de Bourgueil, “Historia”, RHC Occ. IV, pp.12- 16.

(5) أحسن دراسة عن خطبة البابا في كليرمون قام بها مونرو، عن طريق مقارنة نصوص المؤرخين الذين أوردوها، انظر:

D.C. Munro, “The Speech of Pope Urban II at Clermont”, American Historical Review XI, (1906), pp231-242

انظر أيضا لدانا مونرو:

Dana Carleton Munro, “Papal Proclamation of the Crusade”in: James A. Brundage (ed.), The Crusades, pp.7- 11.

(6) أنجيل لوقا 14: 27.

(7) Fulcher, de Chartres, p.69,

(8) Robert le Moin, p.4; Baudri de Bourgueil, p. 7; William of Tyre vol. I, p.93.

(9) Fulcher de Chartres, pp. 65- 66; Robert le Moin, pp.2- 3.

(10) Fulcher de Chartres, p. 67; Baudri, pp. 14- 15; Guibert de Nogent, p.11.

(11) Robert le Moin, pp.4- 5.

(12) Fulcher de Chartres, p.68.

(13) Mayer, The Crusades, pp. 41- 42; Runcimanm A Hist. I, p.109.

(14) انظر خطاب البابا إلى «كل المؤمنين في الفلاندرز» بتاريخ ديسمبر 1095 م، وكذلك خطابه إلى أتباعه في بولوني بتاريخ 19 سبتمبر 1096م ؛ وفيها محاولة لوضعبعض القيود على انضمام غير المحاربين.

قاسم، الحروب الصليبية-نصوص ووثائق، ، ص 90-ص 91.

(15) Fulcher de Chartres, p. 75; William of Tyre, vol. I, pp.96- 97; Guibert de Nogent, p. 66; Gesta Francorum, p.2.

(16),Antioche-Lewis A. M. Sumberg, La Chanson d

etude historique et literaire, (Paris, 1968), pp. 154- 155; Paul Meyer, "Un Recit en vers Francais de la Premiere Croisade fonde sur Baudri de Bourgueille", extrait de la Romania, V, (Paris, 1976),pp.12- 13.

(17) Runciman, A Hist. of the CrusadesThe.Crusades, pp.42- 43. 109; Mayer, I, pp. 108-

(18) في الفترة ما بين 23 ديسمبر 1095 و 6 يناير 1096م أقام البابا في مدينة ليموج الفرنسية. وهناك عقد مجمعا كرر فيه الدعوة إلى الحملة الصليبية، وفيما بين 6 فبراير و 12 فبراير من عام 1096م عقد مجمعا مشابها قي مدينة أنجير، كما عقد مجمعا ثالثا في مدينة نور، بين 16 و 22 مارس من العام نفسه، ثم عقد مجمعا رابعا في مدينة نيم فيها بين 6 و 14 يوليو، انظر:

Hagenmeyer, "Chronologie", ROL, VI, pp.224- 225, p. 226, 243; AOL, I, pp. 109- 110, 116- 119.

وعن الخطابات التي أرسلها في تلك الفترة انظر الترجمة الإنجليزية:

Riley-Smith (eds.), The Crusades, pp. 38- 40. AOL, I, pp.113- 116,121- 122; Hagenmeyer, "Chronologie, p.251.

(19) Fulcher de Chartres, p.72.

(20) زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص 49- 51.

(21) لمزيد من المعلومات التفصيلية عن هذه النقطة، انظر: قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص 92- 100-، ص 143- 147؛ زابوروف، المرجع السابق، ص 46- 50 ؛

,Runciman, A Hist. of the Crusades, I, pp. 114- 115; Paul Russet,<Popular Response to the Crusad", in Brundage (ed.,),The Crusades-motives and achievements, pp. 30- 33; Duncalf, "The First Crusades: Clermont to Constantinople" in Setton A Hist. of the Crusades, pp.253- 255.

(22) Fulcher de Charters, pp. 72- 73; William of Tyre, I, pp. 81- 85; Albert D'Aix in Peters(ed.),, The First Crusade (Philadelphia, 1971), pp.94- 95. وقد عرف بطرس الناسك باسم (Kiokio)أو ، (Chtou) نظرا لضآلة حجمه، انظر: (Picard) ومعناها «الصغير» في لهجة أهل بيكارد

Runciman, A Hist. of the Crusades, I, p.113.

(23) ملخص هذه الأسطورة أن بطرس حاول القيام برحلة حج إلى القدس. وفي أثناء نومه في كنيسة بيت المقدس رأى المسيح يأمره إلى البابا، وأمراء الغرب الأوروبي لإنقاذ القدس من المسلمين. والجدير بالذكر أن المصادر اللاتينية التي عاصرت أحداث السنوات من 1095 إلى 1099 م لم تتحدث عن بطرس كثيرا، ولم تذكر رحلته إلى القدس، أنظر:

Fulcher de Chartres, pp. 72- 73; Guibert de Nogent, in Peters (ed.), The First Crusade, pp.91- 92.

وبينما صمت المؤرخ المجهول، وروبير الراهب، وبلدريك الدوللي عن هذه القصة نجد ألبرت الآيكسي، ووليم الصوري على التوالي يستكملان نسج الأسطورة:

Albert of Aix, in Peters (ed.), pp. 94- 99;

William of Tyre, I, pp.81- 85.

(24) زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص 52- ص 53؛

(25) Gesta Francorum, pp.28- 33.

(26) Albert D'Aix, in Peters (ed.), The First Crusades, pp.95- 6.

(27) Duncalf, "Clermont to Constantinople".259.

(28) H. Hagenmeyer, "Etudes sur la chronique de Zimmern Renseignements qu'elle fournit sur la

premiere Croisade trduit par Raynaud, AOL, II,pp.23- 28.

(29) عن هذه الحملة وتفاصيل أحداثها، انظر:

Albert D'Aix, pp. 95- 96; William of Tyre, I, pp.97.

وأيضا : Duncalf, op. cit., pp. 258- 261; Runciman, A History of the Crusades, I, pp. 122- 123; Mayer, The Crusades,p .43.

قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص 155- 157؛ زابوروف الصليبيون في الشرق، ص 54- 55 ؛ جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين، ص 152- 153.

(30) عن حملة بطرس الناسك وأحداثها التفصيلية، انظر:

Albert D'Aix, in Peters (ed.), The First Crusade, pp. 96- 99; William of Tyre, I, pp. 99- 106; Chronique de Zimmern, AOL, II, pp.23- 24; Anna Comnena, Alexiade, pp. 310- 311; Runciman, A Hist. of the Crusades, I, pp. 123- 127; Duncalf, "Clermont to Constantinope", p.260- 262.

قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص 157- 162.

(31) William of Tyre, I, p. 105, Hagenmeyer, <Chronologie>, p.243.

والجدير بالذكر أن هذه المعركة جرت في أوائل يوليو سنة 1096م.

(32) Gesta Francorum, pp. 24; Anna Comnena, Alexiad, p. 311; William of-Tyre, I, pp. 105- 106; Hagenmeyer, "Chronologie", pp. 245- 246; Dun-
Calf, op. cit., pp.259- 62.

(33) عن نهاية الحملة الشعبية، انظر:

Anna Comnena, Alexiade, pp. 311- 313; Gesta Francorum, pp.2- 4; Albert D'Aix, in Peters (ed.), pp.108- 112; William of Tyre, I, pp-109; Hagenmeyer, "Chronologie", pp.245, 251- 254; Runciman, "Con-stantinople to Antiocho", in Setton, I, pp. 281- 284; Bradford, The Sword,pp.38- 39.

قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص 165 وما بعدها، جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين، ص 158- 170، زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص 57- 59.

(34) Ekkhard D'Aura, in Peters (ed.), pp. 100-101; Albert d'Aix, pp.99- 100; William of Tyre, p. 112; Duncafl, "Clermont to Constantinople", pp.262- 265.

(35) تكونت حول شخصية جودفري أسطورة بعد نجاح الحملة الصليبية، وكان المؤرخ وليم الصوري هو الذي نقل لنا صورة كاملة عن هذه الأسطورة، انظر:

William of Tyre, I, pp.116- 120.

وعن رحلة جيش جودفري وأخيه بلدوين، انظر أيضا:

Chronique de Zimmern, AOL, II, pp.17- 28.

وعن قصة حياة جودفري الحقيقية منذ صار كونت اللورين الأدنى سنة 1087م، انظر:

. Mayer, The Crusades, p. 45; Runciman, A Hist. of the Crusades, I, pp. 47- 145

(36) Fulcher de Chartres, pp.74- 78.

(37) Raymond d'Aguilers, in Peters (ed.), The First Crusade, pp. 181- 211. William of Tyre, I, pp.139- 141.

(38) ترجمت هذه الكلمة، وهي كنية هيو بصورة عكسية حتى في زمانه إلى «الكبير» (Magnus)،

ولعل القارئ سيلاحظ هذا الاختلاف عندما يقرأ عن هذا الرجل في كتب أخرى عن الحروب الصليبية، انظر:

Runciman, A Hist. of the Crusades, I, p.142.

(39) Anna Comnena, Alexiade, pp.313- 315.

(40) يذكر المؤرخ المجهول ما يفيد أن النورمان في جنوب إيطاليا لم يعرفوا بأمر دعوة البابا أربان لشن حملة صليبية إلا في مرحلة متأخرة عندما وصلت جيوش الفرنج من فرنسا إلى إيطاليا في طريقها إلى فلسطين. وأدرك بوهيموند أهمية هذه الحركة وسارع إلى الانضمام إليها-ا نظر:

Gesta Francorum, pp 7- 12.

(41) AOL, I, pp. 121- 122, 145; Anna Comnene, p. 314;; Hagenmeyer "Chronologie", p.248.

(42) Anna Comnena, p. 315; Fulcherde Chartres, p.72.

(43) تفاصيل هذه الأحداث ترويها المصادر المعاصرة، وتحللها دراسات المؤرخين المحدثين، راجع:

Anna Comnena, pp. 318- 323; Gesta Francorum, pp. 6- 7; Albert D'Aix in Peters (ed.), pp. 125- 131; William Tyre, I, pp. 120- 132; Chronique de Zimmern, 21- 27; Hagenmeyer "Chronologie", pp.246- , 268,269, Mayer, The Crusades, p.48;

Runciman, A Hist. of the Crusades, I, pp.149- 154.

(44) المصدر الأساسي لرحلة بوهيموند هو المؤرخ المجهول الذي كتب «أعمال الفرنجة» وقد كان فارسا من أتباع بوهيموند. وأمدنا بوصف حي للقاء الإمبراطور والأمير النورماني، على حين قدمت لنا آنا كومنينا، ابنة الإمبراطور، الوجه الآخر من وجهة النظر البيزنطية-انظر:

Gesta Francorum, pp. 6- 13; Anna Comnena, pp.326- 329.

راجع أيضا:

William of Tyre, I, pp. 135- 138; Hagenmeyer, "Chronologie", pp. 272, 281; Runciman, "Constantinople to Antioch",pp.270- 272.

(45) كان ريمون أول من أخذ شارة الصليب في كليرمون، وكان متدينا مخلصا، ولذلك حاز إعجاب آنا كرمنينا التي أثنت عليه كثيرا-انظر:

Anna Comnena, pp. 329- 331; Gesta Francorum, p. 13; Raymond d'Agueiler, in Peters (ed.), pp.140- 142; William of Tyre; I, pp.139- 146.

(46) حول المعارك والأحداث التي انتهت بتسليم نيقية، أنظر:

Gest Francorum, pp. 13- 15; Fulcher de Chartres, pp. 81- 83; Raymond d'Agueilers, in Peters, pp. 147- 148, Anna Comnena, pp.333- 341; William of Tyre, I, pp. 152- 168; Mattieu d'Eddesse Chronique de Mattieu d'Edesse 926- 1136 avec la Continuation de Gregoirea le pretre jusqu'en 1163, (traduites par M. Edmond Dulaurier, Paris 1858), pp.214- 216.

(47) Gesta Francorum, pp. 19- 22; Fulcher de Chartres, pp.83- 87; William of Tyre, I, pp.169- 173; Runciman, "Constantinople to Antioch", pp. 293- 294; mayer, The Crusades, pp.50- 51.

انظر أيضا: ابن الأثير، الكامل في التاريخ (الطبعة الثانية-دار الكتاب العربي، بيروت 1967)، جـ 8، ص 186، حوادث سنة 490 هجرية. وقد أشار إلى انتصار الفرنج على قلج أرسلان في عبارة مقتضبة، قارن، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 134.

(48) راجع ما كتبه فوشيه عن مشاق الطريق من ضوروليوم إلى قونية في صيف عام 1097م،

وكذلك ما كتبه الفارس المجهول:

Fulcher de Chartres, pp. 87- 88; Gesta Francorum, p.28.

(49) William of Tyre, I, pp.184- 186.

(50) Fulcher de Chartres, pp. 89- 91; Mattieu d'Eddesse, pp.217- 218; William of Tyre, I, pp. 189- 194; Hagenmeyer, "Chronologie de la premiere Croisade", pp. 532- 533; Runciman, A Hist. of the Crusades, I,.pp. 204- 208; Mayer, the Crusades, pp.52- 53.

(51) في سنة 490 هجرية/ 1097م، وبعد أن كان الصليبيون قد دخلوا المنطقة بالفعل هاجم جيش مصر في مدينة صور وفتحها عنوة، وأخضعها للفاطميين، كما نشبت حرب أخرى بين دقاق حاكم دمشق، وأخيه رضوان أمير حلب الذي أستعاد باغى سيان أمير إنطاكية انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 182- 185 ؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 133- ص 134

(52) كان قوام كل فرقة من هذه الفرق أحيانا يصل إلى ما بين ثلاثمائة وأربعمائة فرد:

Raymond d'Agueiler, in Peters, pp. 160.ff; William of Tyre, I, pp.204- 220; Hagenmeyer, "Chronologie", pp.514- 516,529- 530.

(53) Gesta Francorum, pp.28- 33.

(54) Gesta Francorum, pp. 63- 65; Fulcher de Chartres, pp. 97- f. William of Tyre, I, pp. 274- 278; Hagenmeyer, "Chronologie", ROL, VII, pp.283- 284.

وقد ذكر ابن الأثير (الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 186) أن الخائن كان «زرادا» اسمه زوربه، أما ابن القلانسي (ذيل تاريخ دمشق ص 135- 136) فذكر أن قوما من أهل إنطاكية من حملة الأمير ياغي سيان من الزرادين «... عملوا على إنطاكية وواطوا الفرنج على تسليمها لهم، لإساءة تقدمت منه في حقهم ومصادرتهم...»، على حين يذكر ابن العديم في حوادث سنة 491 هجرية (زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ 2، ص 133- 134) أن ذلك الرجل كان يحمل ضغينة ضد ياغي سيان لأنه صادر أمواله.

(55) Raymond d'Agueiler, in Peters (ed.), The First Crusades, pp.166- 168,174- 175,178- 185,189- 194.

انظر أيضا: زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص 93- 107.

(56) Fulcher de Chartres, pp. 98- 107; Gesta Francorum,pp.43- 71.

(57) Gesta Francorum, pp. 74- 82; William of Tyre, I, pp.298- 313;Mayer, The Crusades, pp.57- 58.

(58) Runciman, A Hist. of the Crusades, I, pp.229- 230.

(59) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 189 ؛ ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق، ص 135، والجدير بالذكر أن ابن القلانسي يذكر ذلك ضمن حوادث سنة 491 هجرية.

(60) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 186.

(61) Gesta Francorum, pp. 74- 82; Willaim of Tyre, I, pp.298- 315.

(62) استولى الصليبيون على معرة النعمان سنة 492 هـ/ 1099م، وقد غدروا بأهلها بعد أن أعطوهم الأمان وارتكبوا واحدة من مذابحهم البشعة انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 136- 137 ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 187- 188. وقد ذكر ابن الأثير أن هذه المعركة وقعت سنة 492 هـ. وقد ذكر رنسيمان أن المدينة سقطت في ديسمبر 1098 م-أنظر:

Runciman, A Hist. of the Crusades, I, pp.257- 258.

(63) Mayer, The Crusades, pp.58- 59.

(64) عن الرحلة من إنطاكية ومعرة النعمان حتى سقوط القدس، انظر:

Fulcher de Chartres, pp. 115- 128; Raymond d'Aguielers in Peters, (ed.) The First Crusade, pp. 195- 218; Gesta Francorum, pp. 84- 92; William of Tyre, I, pp. 298- 378; Runciman, A Hist. of the Crusades, pp.59- 62; Runciman, "The First Crusade: Antioch to Ascalon", in Setton, I, pp.308- 337.

انظر أيضا: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 189. وقد وصف ذهاب جماعة من أهل الشام إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعد الهدوي، ولكن الخليفة العباسي لم يفعل شيئا، كما أورد قصيدة في رثاء حال المسلمين لأبى المظفر الأبيوردي مطلعها:

مزجتا دماء بالدموع السواجم

فلم يبق منا عرصة للمراحم

وشر صلاح المرء دمع يفيضه

إذا الحرب شبت نارها بالصوارم

نظر أيضا: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 136- 137؛ سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص 189- 197 ؛ جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين، ص 263- 268 ؛ زابوروف الصليبيون في الشرق، ص 119- 124.

(65) ذكر فوشيه أن الصليبيين أخذوا يحرقون جثث القتلى من المسلمين على أمل أن يجدوا في رمادها الذهب الذي ظنوا أنهم خبئوه في أجسادهم:

Fulcher de Chartres, pp. 122- 123; Mayer, The Crusades, p.61.

(66) Fulcher de Chartres, pp. 124- 125; William of Tyre, I, pp.379- 383.

(67) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 137؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 190، سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص 206- 210.

Fulcher de Chartres, pp. 125- 128; William of Tyre, I, pp. 393- 397; Runciman, "Antioch" in Setton, I, pp.340- 341.

(68) Fulcher de Chartres, p. 136; William of Tyre, I, pp.413- 414.

(69) يصف فوشيه دي شارتر مصاعب الرحلة التي قام بها بلدوين من الرها إلى بيت المقدس، وكيف تعرض في الطريق لهجوم المسلمين، وكيف أنهم كادوا يهلكون قي معركة قرب بيروت في 26 أكتوبر 1100 م، كما يوضح أن حكام بيروت، وصور، وصيدا، وعكا، قد أظهروا الصداقة، «ولم يكن في قلوبهم شيء منها».

Fulcher de Chartres, pp.137- 145;148- 150.

(70) لم تكن القوات العسكرية في مملكة بيت المقدس اللاتينية، عند وفاة جودفري تزيد عن ألفين من المشاة وثلاثمائة فارس.

انظر: زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص 126 ؛

Mayer, The Crusades, pp.63- 64.

(71) Fulcher de Chartres, p.148.

(72) Ibid, p.149.

(73) الدراسة الوحيدة التي نعرفها حتى الآن هي دراسة جيمس كيت-أنظر:

James Lea Cate, "The Crusade of 1101", in Setton, vol. I, pp.343- 367.

وللباحث نفسه دراسة أخرى حول هذا الموضوع تتناول سيرة أحد قادة الحملة وهو وليم التاسع دوق أقطانيا (Aquitaine) الذي كان رجلا مرحا يغني أغاني التروبادور كما كان شاعرا-انظر:

J.L. Cate, “A Gay Crusader>, Byzantion, XVI (1942- 1943) pp503-526

(74) زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص 127- 129 ؛

Anna Comnena, pp.355- 6.

(75) عن أحداث حملة 1101م الصليبية، انظر:

Fulcher de Chartres, pp. 164- 166; Anna Comnena, pp. 355- 357; William of Tyre, I, pp. 430- 433; Mayer, The Crusades, pp. 69- 70; Runciman, A Hist. of the Crusae, vol. II, pp.18- 31.

ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 211. والإشارة التي أوردها غامضة. والجدير بالذكر أن هذه الحملة الصليبية عرفت في أدبيات الغرب الأوروبي باسم «صليبية ذوي القلوب الضعيفة» لأن معظم قادتها كانوا ضمن الحملة الأولى، ثم هربوا.

(76) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 138- 139 ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 204.

(77) نجا بلدوين الأول في هذه المعركة التي جرت سنة 495 هـ بصعوبة بالغة وفر إلى الرملة، ابن القلانسي، ص 141؛ ابن الأثير، الكامل، جـ 8، ص 212 ؛

Fulcher de Chartres, pp.167- 170.

(78) Anna Comnena, Alexiade, pp.357- 358.

(79) ابن الأثير، الكامل قي التاريخ، جـ 8، ص 221.

(80) كان سقوط عكا سنة 497 هجرية بعد أن حاصرها الجنوبيون من البحر والصليبيون من البر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 143- 144 ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 235.

Fulcher de Chartres, p. 174- 176; William of Tyre, I, pp.454- 55.

أما طرابلس فقد كان سقوطها سنة 502 هجرية. انظر:

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 163 ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 258- 259.

. William of Tyre, I, pp. 468- 497; Fulcher de Chartres, pp. 193- cf

(81) في سنة 504 هجرية/ 1111م استولى الصليبيون على صيدا: ابن الأثير ؛ الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 260.

(82) Mayer, The Crusades, pp.74- 75.

(83) في سنة 505 هـ/ 1112م اجتمع جيش كبير بأمر السلطان محمد بن ملكشاه سلطان السلاجقة في فارس، وكان مكونا من جيش مودود أتابك الموصل. و سكماد صاحب تبريز، والأمير أيبكي، والأمير زنكي، وعدة أمراء آخرين. وقد تمكنوا من فتح عدة حصون للفرنج، ثم حاصروا مدينة الرها دون طائل. وفي تلك الأثناء هاجم رضوان أمير حلب ممتلكات الصليبيين-انظر ابن الأثير، الكامل، جـ 8 ص 262- 263.

(84) أشار ابن الأثير إلى بوادر هذه الحركة الشعبية الإسلامية في حوادث سنة 492 هـ عندما ذكر ما نصه: «... وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد بصحبة القاضي أبي سعد الهروي، فأوردوا في الديوان كلاما أبكى العيون وأوجع القلوب، وقاموا في الجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا، وذكر ما دهم المسلمين بذلك الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي

الحريم والأولاد ...».
انظر: الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 189.
(85) عن تفاصيل هذه الأحداث راجع: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 174
Runciman, A History of the Crusades, vol. II, p. 124- 125; Mayer, The Crusades, pp.75- 77.
والجدير بالذكر أن هذه الهدنة قد عقدت سنة 1108م.
(86) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 266 ؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 187- 188 ؛ انظر أيضا:
Fulcher de Chartres, pp. 205- 209; William of Tyre, vol. II, pp.493- 495.
(87) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 187- 191.
(88) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 284 ؛
Fulcher de Chartres, pp.221- 222.
(89) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 323- 324.
(90) عن عماد الدين زنكي وسيرته وأعماله، انظر:
ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 323- 863 ؛ جـ 9، ص 8- 13.
Hamilton A. R. Gibb, "Zengi and the Fall of Edessa", in Setton (ed.) A History of the Crusades, vol. I, pp.449- 462.
(91) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 359.
(92) عن سقوط الرها، انظر:
ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ9، ص 8- 09 ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 279- 280 ؛ علية الجنزوري، إمارة الرها الصليبية (القاهرة 1975م)، ص301- 308 ؛
William of Tyre, vol. II, pp. 140- 144; Runciman, op. cit. vol. II, pp234- 236; Gibb, "Zengi and the Fall of Edessa", pp. 460- 462; Mayer, The Crusades, pp.94- 95.
(93) علية الجنزوري، المرجع السابق، ص 308- 312.
(94) Willaim of Tyre, vol. II, pp. 163- 183; Mayer, The Crusades, pp.96- 109.
ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 297- 300
(95) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 482. ويذكر أن خادمه اسمه بيرنقش وأصله إفرنجي ؛ قارن: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 13.
(96) يذكر ابن القلانسي في حوادث هذه السنة ما نصه: « .. . وتسرع بعد الرجالة إلى السور وعليه امرأة يهودية، فأرسلت إليه حبلا فصعد عليه وحصل على السور، ولم يشعر به أحد، وتبعه من تبعه واطلعوا على ما نصبوه على السور، وصاحوا أصحاب نور الدين يا منصور، وامتنع الأجناد والرعية من الممانعة لما هم عليه من المحبة لنور الدين وعدله وحسن ذكره...».-انظر: ذيل تاريخ دمشق، ص 327.
أما مجير الدين حاكم المدينة فقد حصل على الأمان.
(97) كانت الشدة المستنصرية التي عرفتها مصر في حكم الخليفة المستنصر الفاطمي (427- 487 هـ / 1035- 1094 م) من أهم أساس التدهور الاقتصادي الذي بدأ منذ ذلك الحين-انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 173.
(98) في حديث عن أمير الجيوش بدر الجمالي قال ابن الأثير: « ... وكان هو الحاكم في دولة

المستنصر، والمرجوع إليه.. .». انظر: الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 172. وفي عدة مواضع أخرى أشار ابن الأثير إلى عدم قدرة الخليفة الفاطميين، ففي حديثه عن الخليفة الحافظ الفاطمي يقول: «.. ولما ولي استوزر أبا علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي فاستبد بالأمر، وتغلب على الحافظ وحجر عليه، وأودعه في خزانة لا يدخل إليه إلا من يريده أبو علي، وبقى الحافظ له اسم لا معنى تحته...».

الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 332. قارن ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 228- 229.

(99) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 302. وقد ذكر المؤرخ المجهول صاحب «البستان الجامع لجمع تواريخ الزمان» أن المأمون البطائحي تولى الوزارة بمصر سنة 537 هـ، وكان في مطلع أمره فراشا، «وشوهد قي صغره وهو يرش بين القصرين». أنظر المؤرخ المجهول، «البستان الجامع لجمع تواريخ الزمان»، نشره كلود كاهن.

Claude Cahen, “Une Chronique Syrienne du VI/XII Siecle: Le “Bus-toan Al-Jami,”. en Bulletin D‘Etudes Orientales, Tomes VI-VIII (Annees 1937- 1938), pp.112- 158.

(100) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 42. ومن المهم أن نشير إلى أن ابن الأثير أشار إلى الضعف السياسي الداخلي للفاطميين بقوله: «... وكان الوزراء بمصر لهم الحكم في البلاد، والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته...». المؤرخ المجهول، البستان الجامع لجمع تواريخ الزمان، ص 130 ؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 321- 322- انظر أيضا:

William of Tyre, vol. II, pp. 220- 224, 225- 234; Marshal W. Baldwin “The Latin States under Baldwin III and Amalric I, 1143- 1174”, in, Setton, vol. I, pp. 536- 538; Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. II pp. 337- 342; Mayer, The Crusades,pp.116- 115.

(101) Baldwin, The Latin States”, pp.550- 551.

(102) في حوادث سنة 558 هـ ذكر ابن الأثير (الكامل في التاريخ، جـ9، ص 81) أن ما فعله ضرغام من قتل الأمراء المصريين أضعف الدولة كثيرا-أنظر أيضا: البستان الجامع، ص 134.

(103) William of Tyre, vol. II, p.302.

(104) عن تفاصيل هذا الصراع، انظر:

William of Tyre, vol. II. pp. “302- 305, 308- 321, 325- 343; Baldwin, “The Latin States”, pp.550- 558.

ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 84- 86، ص 94- 96، ص 99- 102.

(105) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 105- 106 ؛ البستان الجامع ص 138-139؛

. William of Tyre, vol. II, pp.363- 368; Baldwin, “The Latin States”, pp.565- 66; Runciman, A History of the Crusades, vol. II, pp.385- 88.

(106) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 111- 112 ؛ البستان الجامع ص 139، المقريزي، اتعاظ الحنفي بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء (تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة 1973)، جـ 3، ص 324- 334.

(107) كانت وفاة نور الدين محمود 11 شوال سنة 569هـ/ 15 مايو 1174م، وتولى بعده ابنه الملك الصالح إسماعيل، وكان عمره إحدى عشرة سنة. ثم بدأت أحداث الصراع تتوالى حتى تمكن صلاح الدين من لم الشمل قبل معركة حطين. راجع حوادث السنوات ما بين سنتي 569 هـ/ 581 هـ. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 124- 172.

(108) كان رينالد دي شاتيون أول من انتهك هدنة سنة 1180م، انظر: ابن الأثير، الكامل في

التاريخ، جـ 9، ص 152- 153؛ أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين. (طبعة دار الجيل)، جـ 2، ص 28- 37.

Runciman, A Hist. of The Crusades, vol. II, pp.431- 38.

(109) أبن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 159- 160.

وانظر أيضا:

Mayer, The Crusades, pp. 130- 131; Hamilton Gibb "The Rise of Saladin" in Setton (ed.) A Hist,. vol. I, pp.380-81.

(110) عن معارك صلاح الدين في حطين وقبلها، انظر:

ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 176- 179؛ ابن شداد، النوادر، ص 60- 73 وما بعدها ؛ العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 17- 45 وما بعدها ؛ البستان الجامع، ص 146. راجع كذلك:

زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص 191- 192 ؛ و

Runciman, op. cit., pp.436- 460.

(111) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 179- 182.

(112) ابن شداد، النوادر، ص 235- 237، الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 314- 317 ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ9، ص 182- 186؛ البستان الجامع، ص 846- 847.

(113) Sidney Painter, "The Crusade: Richard The Lionhearted and Philip Augustus", in Setton, vol. II, pp. 45- 8; Edgar N. Johnson, "The Crusade of Frederick Barbarossa and Henry VI", pp.8.

(114) Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. III, pp. 137- 136. Mayer, The Crusades, pp.4- 5.

زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص 193- 194.

(115) Runciman, op. cit., vol. III, pp.6- 7.

(116) عن الحملة الصليبية الثالثة، انظر

- Mayer, The Crusades, pp. 134- 148; Helene Wieruszowaki "The Nor-man Kingdom of Sicily and ; the Crusades> in Setton, vol. II, pp.38- 41.

Sidney Painter, op. cit., pp. 45- 86; Edgar Johnson, op. cit., pp.87- 122; Runciman, A Hist. of the Crusades, Vol. III, pp.34- cf

(117) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ9، ص 200-204، ص 205- 210، ص 213- 219، ص 219- 221.

(118) كان سقوط عكا في أيدي الصليبيين يوم 17 جمادى الآخرة 587 هـ/ يوليو 1191م. انظر: البستان الجامع، ص 587 ؛ أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، جـ 2، ص 188- 190، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 214- 215.

(119) أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، جـ 2، ص 199- 204 ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 221- 222.

Runciman, op. cit. vol. III, pp.72- 73.

(120) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 249- 250. وقد دخل العادل القاهرة 18 ربيع الثاني من هذه السنة بعد أن هزم ابن أخيه الأفضل، وعوضه من حكم مصر بحكم ميافارقين، وجاني، وجبل جور.

(121) عن شخصية البابا إنوست الثالث وسياسته في غرب أوروبا انظر: نورمان كانتور، التاريخ الوسيط (ترجمة قاسم عبده قاسم)-دار المعارف، الطبعة الثانية، 1986، جـ2، ص 553- 562.

(122) Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. III, pp.109- 110.

(123) عن الحملة الصليبية الرابعة، أنظر الترجمة الإنجليزية لكتاب فيلها ردوان:

Villehardouin, The Conquest of Constantinople in: Jonesville and Villehardouin, Chronicles of the Crusades, (translated with an introduc-tion by: M. R. B. Shaw; Penguin Books, 1975), pp. 29- 160); Mayer, The Crusades, pp. 183- 193; Edgar H. McNeal and Robert Lee Wolff, "The Fourth Crusades in Setton, vol. II, pp. 155- 186; Runciman, op. cit. vol. III, pp 107- 131.

زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص 214- 278.

(124) زابوروف، المرجع السابق، ص 273- 278. وقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة 600 هـ ما نصه: «... إنما الفرنج هم الحكام في البلد، فثقلوا الوطأة على أهله، وطلبوا منهم أموالا عجزوا عنها، وأخذوا أموال البيع وما فيها من ذهب ونقرة وغير ذلك...» ثم يذكر أن الفرنج وضعوا السيف في القسطنطينية ثلاثة أيام (الكامل قي التاريخ، جـ 9، ص 263- 264).

(125) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 265- 266 ؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك جـ 1، ص 163.

(126) في سنة601 هجرية تم عقد هذه الهدنة، ابن الأثير، الكامل قي التاريخ، جـ 9، ص 265 ؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 164.

(127) Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. III, p. 139; Mayer, The Crusades, p.204.

(128) Norman p. Zacour, "The Children's Crusade" in Setton vol. II, pp.332- 333;

عبد الغني محمود عبد العاطي، «صليبية الأطفال 1212م» في ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، تحرير قاسم عبده قاسم، ورأفت عبد الحميد (المجلد الثاني-القاهرة 1985)، ص 173- 174.

(129) عن حملة الأطفال، انظر:

Zacour, "The Children's Crusades" in Setton, II, pp. 325- 342; Paul Alphandery, "Les Croisades d'enfants", Revue de L'histoire des religions,LXX III (1916), pp. 259- 282; Dana C.Munro, "The Children's Crusades", American Historical Review, XIX (1913- 14), pp.516- 524; Runciman, op. cit., vol. III, pp. 139- 144; Mayer, op. cit., pp.202- 205;

انظر أيضا:

عبد الغنى محمود عبد العاطي، «صليبية الأطفال 1212 م»، ص 147- 185؛ زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص 282- 289.

(130) Jacques de vitry, "History of Jerusalem" in Palestine Pilgrims Text Society, transl. by A. Stewart, vol. XI, p.119.

(131) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 314- 318، (حوادث سنة 614 هـ).

(132) Thomas C. Van Cleve, "The Fifth Crusade", in Setton, II, pp.389- 393; Meyer The Crusades, p.210.

(133) عندما توفي السلطان العادل الأيوبي قام أحد الأمراء وهو عماد الدين أحمد بن على المعروف «بابن المشطوب» بتدبير مؤامرة لعزل الكامل، وسانده عدد من الأمراء الأكراد من بنى جنسه، لتولية «الفائز بن العادل» بدلا من أخيه الكامل»، وانتهت المؤامرة بالفشل (ابن الأثير،

الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 316).
(134) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 315- 318 ؛ السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص 201. وكانت مدة الحصار ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما.
(135) قال ابن الأثير: «... وبذل المسلمون لهم تسليم بيت المقدس، وعسقلان، وطبرية، وصيدا، وجبله، واللاذقية، وجميع ما فتحه صلاح الدين ليسلموا دمياط فلم يرضوا...». «الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 318».

(136) Runciman, A Hist. of The Crusades, vol. III, pp. 161- 162; Mayer, The Crusades, pp. 213- 214; Van Cleve, "The Crusade", pp.414- 417.

زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص 296.
(137) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 317- 318 ؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص 207- 210.

(138) Mayer, The Crusades, pp.223.

(139) انظر:
نورمان كانتور، التاريخ الوسط، جـ 2، ص 593- 597 ؛ و

Runciman, A Hist. of The Crusades, vol. III, pp. 171- 175; Thomas C. Van Cleve, "The Crusades of Frederick II", in Setton, pp.429- 447.

(140) Van Cleve, op. cit., pp. 461- 462; Runciman op. cit., III, pp.175- 176.

نورمان كانتور، التاريخ الوسيط، جـ 2، ص 593- 594 ؛ و زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص 300
(141) عن حملة فردريك الثاني أنظر:

Van Cleve, op. cit., pp. 429- 462; Mayer, The Crusades, pp.219- 230; Runciman op. cit., III, pp.171- 204.

وزابوروف، المرجع السابق، ص 300-303.
وقد شن البابا جريجوري التاسع، وحلفاؤه حملة صليبية ضد أملاك فردريك الثاني قي جنوب إيطاليا. ولهذا أسرع الإمبراطور وهزم قوات البابا. ثم عقد سنة 1230م معاهدة صلح في سان جرمان وافق البابا بمقتضاها على الهدنة التي عقدها فردريك الثاني مع الكامل الأيوبي. (142) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 378 ؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، (تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة-طبعة ثانية، القاهرة 1956 م)، ص 228- 229، ص 230- 232. وقد ذكر المقريزي أن مدة الهدنة عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يوما.
(143) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 378.
(144) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١ (تحقيق دكتور محمد مصطفى زيادة)، ص 268- 300. ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب.
(145) عن الحملة والمعركة، أنظر:

Sidney Painter, "The Crusade of Theobald of Champagne and Richard of Cornwall, 1239- 1241" in: Setton, II, pp. 463- 485; Runciman, op. cit. III,p.211- 218.

المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص 318.
(146) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص 318.
(147) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ 2، ص 45 ؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١ ، 331،

حاشية رقم 3.

(148) يشير جوانفيل، الذي كتب سيرة الملك لويس التاسع، وأرخ لحملته ضد مصر إلى أنه بينما كان الملك في قبرص ليكمل استعداداته لغزو مصر أرسل له «ملك التتار العظيم» رسلا يحملون له رسائل ودية«توضح أنه على استعداد لمساعدته في غزو بيت وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين...»-انظر:

. Joinville, The Life of Saint Louis, translated with an introduction by M R. B. Shaw, (Penguin Books, 1975), pp.197- 198.

(149) عن تفاصيل هذه السفارات والاتصالات بين البابا أنوسنت الرابع والمغول، انظر: عادل هلال، العلاقات بين مغول فارس والغرب الأوروبي، 656- 736 هـ/ 1258- 1335 م (رسالة دكتوراه غير منشورة تحت إشراف الدكتور قاسم عبده قاسم، جامعة الزقازيق 1987)، ص 51- 73.

(150) ذكر المقريزي ما نصه: «وأصبح الفرنج يوم الأحد، لسبع يقين من صفر، سائرين إلى مدينة دمياط، فعندما رأوا أبوابها مفتحة، ولا أحد يحميها خشوا أن تكون مكيدة فتمهلوا حتى ظهر أن الناس قد فروا وتركوها. فدخلوا المدينة بغير كلفة ولا مؤونة حصار.. .». «السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ا، ص 335- 336. وأنظر أيضا:

Joinville, The Life of Saint Louis, pp.206- 207.

ويتحدث جوانفيل عن تقسيم الغنائم بين الملوك وأمرائه.

(151) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ا، ص 336- 342

(152) Joinville, op. cit., pp.209- 210.

وقد ذكر ما نصه: «كاد المسلمون يدخلون معسكرنا كل ليلة ويقتلون رجالا عندما يجدونهم نائمين، وقد تصرفوا على هذا النحو لأن السلطان كان يعطي قطعة ذهبية في مقابل كل رأس لرجل مسيحي...».

(153) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ا، ص 345- 358، ص 363- 364 وكانت فدية الملك الفرنسي أربعمائة ألف دينار.

Joinville, The Life of Saint Louis, pp.220- 264.

انظر أيضا:

Joseph R. Strayer, "The Crusades of Louis IX", in Setton, II, pp.487- 518.

(154) ارتقى بيبرس عرش السلطنة في 17 ذي القعدة سنة 658 هـ بعد أن قتل السلطان قطز أثناء عودة الجيش المصري بعد أن هزم المغول في عين جالوت. وقد واجهته عدة متاعب داخلية في مصر والشام قبل أن يتفرغ لقتال الصليبيين-أنظر:

المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ا، ص 436- 641. عرض فيها المقريزي لحكم الظاهر بيبرس وأحداثه وسيرته ؛ «وانظر أيضا: سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام (الطبعة الأولى القاهرة 1965)، ص 38- 51، ص 58- 64.

(155) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ا، ص 526- 534، ص 545- 548.

(156) المصدر نفسه، جـ ا، ص 567- 568.

(157) المصدر نفسه، جـ ا، ص 601. وكانت مدة الهدنة عشر سنين وعشرة أشهر وعشر ساعات من التاريخ المذكور (11 رمضان سنة 670 هـ).

(158) محيي الدين عبد الظاهر، تشريف الإمام والعصور في سيرة الملك المنصور، (تحقيق الدكتور

مراد كامل، طبعة أولى، القاهرة 1961)، ص 54. وقد ركب السلطان المنصور سيف الدين قلاوون بشعار السلطنة في ثالث شعبان سنة 678 هـ. واستمر حكمه إلى 10 من جمادى الآخرة سنة 689 هـ/ 1290م.

قارن: المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 663 وما بعدها. حيث يذكر أن جلوسه على تخت الملك كان في 0 2 رجب 678 هـ. راجع أيضا: تاريخ ابن الفرات، جـ 7 (تحقيق الدكتور قسطنطين زريق، والدكتورة نجلاء عز الدين، بيروت 1942)، ص 152- 153.

(159) تاريخ ابن الفرات، جـ 8، ص 80-81، ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص 77- 81، ص 151- 153؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 747- 748.

(160) تاريخ ابن الفرات، جـ 8، ص 110- 118، المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك جـ 1، ص 763- 768.

٤

الحصاد: أثر الحروب الصليبية في العالم العربي

مدخل-الاستجابة السياسية: قيام الدول العسكرية والتنظيم الإقطاعي. تحول الخلافة إلى واجهة شرعية للدول العسكرية. الدور التاريخي للدول العسكرية في مواجهة الصليبيين. الفشل في إدارة المجتمع على أساس مدني والتسلط الداخلي-الاستجابة الاجتماعية: السيولة السكانية في بلاد الشام وأسبابها. الآثار الاجتماعية للحرب. البناء السكاني في مصر وتطوره في عصر الحروب الصليبية-الاستجابة الاقتصادية: تدمير الموارد الزراعية في بعض المناطق-الصناعة-التجارة. تعبئة الموارد في خدمة الحرب وتكاليفها-تأثير النظام الإقطاعي. زيادة الدور الأوروبي في التجارة العالمية. التدهور الاقتصادي وانهيار العملة-الاستجابة الثقافية: الاتجاه السلفي والنزوع إلى المحافظة-بروز الصوفية وازدهارها-توقف الإبداع الفكري وسيادة الاتجاه الاجتراري في التأليف. ظاهرة الموسوعات والمعاجم. الأدب الشعبي.

لم يكن سقوط عكا تحت سنابك خيول فرسان المماليك سنة 690 هـ/1291 م، وما أعقب ذلك من

نهاية الوجود الصليبي على أرض فلسطين سوى آخر فصول المواجهة العسكرية الطويلة التي استمرت حوالي قرنين من الزمان، بيد أن هذا الفصل الأخير في قصة المواجهة العسكرية لم ينته على تراب عكا ورمال الساحل الفلسطيني. إذ انسحبت فلول الصليبيين، من القادة والفرسان، إلى قبرص، ورودس لتتخذهما مقرا للقرصنة والإغارات السريعة على شواطئ الشام ومصر في القرن الرابع عشر الميلادي، وبداية القرن الخامس عشر الميلادي. وقد تكفلت دولة سلاطين المماليك في مصر والشام (648-922 هـ/ 1250-1517 م) بمواجهة هذا العبث الصليبي. وكان مشهد ملك قبرص الصليبي من آل لوزنيان، وهو يمشى ذليلا والأصفاد تكبله في شوارع القاهرة في القرن الخامس عشر الميلادي، إعلانا بنهاية المواجهة العسكرية.

بيد أن هذه ليست كل القصة...

إذ إن خروج الصليبيين من المنطقة العربية، وانتهاء آخر فصول المواجهة العسكرية لم يكونا ليحولا دون تفاعل الآثار التي خلفتها الحروب الصليبية على العالم العربي، إذ استمرت تداعياتها تفرز استجاباتها للتحدي الحضاري الذي فرضه العدوان الصليبي على المنطقة العربية والعالم الإسلامي. وقد برز بعض هذه الاستجابات في زمن مبكر عندما كانت المعارك لا تزال محتدمة فوق رمال الشام، والعراق، ومصر، وشبه الجزيرة، وأخذ بعض الاستجابات الأخرى وقتها اللازم، بحكم طبيعتها، لتفرز في النهاية ظاهرة واضحة في تاريخ المنطقة.

ولأن المواجهة الصليبية/ العربية الإسلامية لم تكن مجرد صدام عسكري، وإنما كانت صداما بين حضارتين، فإن الاستجابات التي خلفتها هذه المواجهة تجلت في عدة مستويات سياسية وعسكرية، واقتصادية واجتماعية، وثقافية. ومن نافلة القول أن ننبه إلى أن التفاعل بين هذه الجوانب جميعا أمر تحتمه ضرورة حركة التاريخ، ومن ثم يصعب الفصل بينها بشكل قاطع. وفي هذا الفصل سنحاول رصد تأثير الحروب الصليبية في العالم العربي ؛ سياسيا، واجتماعيا، واقتصاديا، وثقافيا.

وتبرز الاستجابة السياسية للتحدي الذي فرضه العدوان الصليبي على العالم العربي في الحقيقة القائلة إن نموذج دولة الخلافة قد انتهى عمليا

في خضم الصراع ضد الفرنج على الرغم من بقاء الخلافة لتلعب دور الرمز الديني والواجهة الشرعية. ومع أننا نسلم بأن عوامل التدهور والاضمحلال كانت تهدم نموذج دولة الخلافة، وتنخر في بنيانه منذ فترة قبل الحروب الصليبية، فإن حقائق المواجهة العسكرية السياسية كرست نموذج الدولة العسكرية التي يقودها ملك محارب بدلا من الدولة التي يقودها خليفة لا يتمتع بأي سلطة حقيقية مثلما كان حال كل من الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية في القاهرة عندما بدأت قوات الصليبيين تطأ أرض المنطقة العربية.

ومن ناحية أخرى، فإن أول ما يلفت النظر في تاريخ الحروب الصليبية هو ذلك التشرذم السياسي والتفرق والتنازع التي سادت المنطقة قبيل قدوم الحملة الأولى وبعدها بحوالي نصف قرن من الزمان. لقد أدرك العالم العربي-وقد حدث هذا بعد خمسين سنة من قدوم الصليبيين-أن مؤسساته السياسية القائمة (سواء كانت ممثلة في نظام الخلافة، أو في الإمارات والدويلات التي مزقت بلاد الشام والجزيرة عشية الحروب الصليبية) غير قادرة على قيادته سياسيا وعسكريا في مواجهة الهجوم الصليبي الاستيطاني. وأدان الرأي العام تخاذل الخليفة العباسي عندما توجه إليه عدد من أهل الشام بصحبة القاضي «أبي سعد الهروي» بعد سقوط بيت المقدس بأيدي الصليبيين سنة 492 هـ/ 1099م. كما راعهم موقف الخلافة الفاطمية التي انتهزت فرصة التوغل الصليبي في شمال الشام، وأرسلت سفارة إليهم، وهم أمام إنطاكية، تفاوضهم من أجل اقتسام النفوذ والسيطرة على حساب السلاجقة السنة. أما موقف الأمراء الصغار، من حكام المدن والإمارات الصغيرة في بلاد الشام، فكان أكثر سوءا بطبيعة الحال. ولم يكن هذا كله سوى تعبير واقعي عن ميراث قرن من الحروب المتبادلة، والشك والحقد والمرارة التي نجمت عن التشرذم السياسي في المنطقة العربية.

وهكذا، شاءت تطورات الأحداث التاريخية، وتزايد إحساس الرأي العام بمدى خطورة الهجوم الصليبي، إلى فرض صياغة سياسية جديدة تضع الدولة الموحدة بدلا من الكيانات السياسية الهزيلة المبعثرة، وتقوم على أسس عسكرية تضع كل الموارد في خدمة المجهود الحربي تحت قيادة ملك

محارب يقود جيوشه في الميدان بنفسه بدلا من نموذج الخلافة الذي صار الخليفة فيه اسما لا معنى تحته-على حد تعبره ابن الأثير-، ولم يعد قادرا على قيادة الأمة سياسيا أو عسكريا. ولم يكن غريبا أن تذوب هذه الإمارات الصغيرة في خضم الصراع الإسلامي/ الصليبي، وتحت وطأة الاتجاه الوحدوي الذي بدأ واضحا منذ أتابكية عماد الدين زنكي ودولة ابنه نور الدين محمود، ثم تكرس في عهد صلاح الدين الأيوبي، وأصبح راسخا منذ بداية عصر سلاطين المماليك.

حقيقة أن الخلافة الفاطمية (358-567 هـ/969-1171م) هي التي سقطت في خضم الحروب والصراع ضد الصليبيين، ولكن الخلافة العباسية كانت هي الأخرى قد تضاءلت في قيمتها السياسية ودورها التاريخي حتى صارت مجرد رمز عاطفي يدل على ماضي التاريخ المجيد، ورمزا دينيا عاطفيا يشير إلى عظمة الأيام الخوالي، بيد أنها لم تعد أكثر من واجهة شرعية تستمد منها الدول العسكرية، التي قامت لتقود الصراع ضد الصليبيين، التأييد لكسب ولاء رعاياها. وحين سقفت الخلافة العباسية فعلا في منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي حرص السلطان الظاهر بيبرس على إعادتها في القاهرة واجهة شرعية لحكم سلاطين المماليك. وتكرس هذا الوجود الرمزي للخلافة العباسية في القاهرة حتى دخول العثمانيين القاهرة سنة 922 هـ/1517م.

وربما يكون مفيدا أن نعرض لتفاصيل الأحداث التاريخية التي نعتقد أنها تؤكد هذا الفرض الذي ذهبنا إليه.

كانت الخلافة العباسية قد بدأت منحنى التدهور والأفول قبل قدوم جيوش الحملة الصليبية الأولى بزمن طويل، بيد أن النتائج السياسية لضعف الخلافة العباسية لم تصبح واضحة إلا في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. ففي سنة 358 هـ/1969م نجح الفاطميون في انتزاع مصر من الخلافة العباسية، ولم يلبثوا أن أخذوا يتوسعون على حسابها في المنطقة العربية، ولا سيما في فلسطين وبلاد الشام. وهكذا، قامت خلافة شيعية في القاهرة لتنافس الخلافة السنية في بغداد، وتنازعها السلطان والنفوذ. وعلى مدى حوالي قرنين من الزمان ظلت المنطقة العربية نهبا للنزاع بين القاهرة الفاطمية وبغداد السنية. وفي النصف الثاني من القرن

الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بلغ النزاع ذروته ؛ عندما قام أبو الحارث البساسيري بانقلاب داخل بغداد السنية لصالح الخلافة الفاطمية الشيعية، وأقام الخطبة للمستنصر الفاطمي على حين اعتقل الخليفة القائم العباسي. واستنجد الخليفة العباسي بالقائد السلجوقي طغرل بك الذي دخل بغداد سنة 447 هـ/ 1055م، ثم تمكن من القضاء على البساسيري بعد فترة من الوقت.[1] وبذلك صار السلاجقة القوة الحقيقية المسيطرة في بغداد. وبينما تحول الخليفة إلى مجرد رمز وواجهة شرعية كان السلطان السلجوقي هو الحاكم الفعلي في تلك الأنحاء التي امتدت فيما بين خراسان وبلاد الشام.

وقد اكتسبت الدولة السلجوقية حيوية عسكرية دافقة جعلتها توسع منذ وقت مبكر شمالا وغربا على حساب كل من الأرمن والبيزنطيين، ثم الفاطميين الذين فقدوا أملاكهم كلها في بلاد الشام تحت وطأة الهجوم السلجوقي، بيد أن الانقسام ما لبث أن نشب بين الدول والإمارات السلجوقية التي قامت نتيجة توسعاتهم الباكرة. وحين قدم الصليبيون إلى المنطقة فشل السلاجقة في توحيد جهودهم إزاء الهجوم الصليبي. وكانت هزيمتهم في ضوروليوم، ثم ضياع نيقية، وإنطاكية.. وغيرها[2] في خضم أحداث الحملة الصليبية الأولى مؤشرا على فشلهم في عمل موحد، ودليلا على أن تراث الفرقة والتشرذم الذي ساد فترة طويلة قبل قدوم الصليبيين كان لا يزال يعوق أي عمل وحدوي على الرغم من أن الطابع العسكري للدول والإمارات السلجوقية كان هو الأساس الذي قامت عليه الدول العسكرية الكبرى فيما بعد؛ مثل دولة نور الدين محمود، ثم دولة الأيوبيين، فدولة سلاطين المماليك.

وفي خضم هذه الأحداث جميعا لا يجد الباحث أي إشارة تدل على وجود دور إيجابي للخلافة العباسية. بل إن ما رواه ابن الأثير من تخاذل الخليفة العباسي وعجزه عن فعل شيء إزاء سقوط القدس سنة 492 هـ[3] يؤكد أن الدور التاريخي لدولة الخلافة، ونموذجها السياسي، كانا قد تجمدا منذ فترة، وعجزا عن مواجهة التحدي الذي فرضه العدوان الصليبي. وتحملت إمارات السلاجقة العبء الأكبر في مواجهة الموجات الصليبية الأولى، ولكن عجزها عن الاتحاد جعل كل جهودها العسكرية تفشل في

القضاء على الكيانات الصليبية على الرغم من بعض الانتصارات الباهرة التي حققها السلاجقة ضد الفرنج.

أما الخلافة الفاطمية في القاهرة فقد كانت أحوالها الداخلية تنبئ عن أن الخلفاء لم يعد لهم من الأمر شئ، وأن الخلافة صارت تحت حكم الوزراء الذين اغتصبوا السلطة لأنفسهم على حساب الخلفاء الضعفاء. وقد ذكر المقريزي أن بداية ضعف الخلافة الفاطمية يرجع إلى الاشتباكات المسلحة بين الأتراك والجنود السود سنة 454 هـ.[4] وعلى أي حال كان الأفضل بن بدر الجمالي هو صاحب السلطة الفعلية عندما جاءت جيوش الفرنج إلى المنطقة، ولم يعد للخلفاء من شيء سوى لقب الخليفة الفارغ من أي معنى.[5] وكان هذا يعني، في التحليل الأخير، أن دولة الخلافة الفاطمية فقدت دورها التاريخي، وقد جاءت أحداث الحملة الصليبية الأولى وما بعدها لكي تؤكد أن نموذج الدولة، التي يحكمها خليفة ليس له من الأمر شئ، قد دخل متحف التاريخ.

وقد تجسد الفشل السياسي الأكبر للفاطميين في موقفهم من الصليبيين، إذ إن استئثار الوزراء بالسلطة من دون الخلفاء، ثم تعاظم الصراع على كرسي الوزارة أدى إلى نتيجتين غاية في السوء ؛ سياسيا وعسكريا. فقد فشل الأفضل في إدراك حقيقة الخطر الصليبي، كما أن اغتياله سنة 515هـ/1121م جعل مصر تدخل، في دوامة شريرة من المؤامرات والاغتيالات في سبيل كرسي الوزارة. وفي خضم الصراع بين شاور وضرغام على هذا الكرسي استنجد أحدهما بنور الدين محمود وقوات المسلمين، واستنجد الآخر بالصليبيين. وكانت النتيجة النهائية أن سقطت الخلافة الفاطمية في خضم الصراع. وحلت محلها دولة عسكرية هي دولة الأيوبيين التي شادها صلاح الدين الأيوبي على أسس عسكرية محضة على الرغم من تمسكه بتبعية شكلية للخلافة العباسية الواهنة في بغداد.

هكذا أثبتت الأحداث التاريخية التي جرت في المرحلة الأولى من المواجهة العربية/ الصليبية أن دولتي الخلافة (العباسية والفاطمية) ليستا النموذج الأمثل لقيادة الأمة العربية الإسلامية في مواجهة هجوم الصليبيين. وفرضت الأحداث التاريخية نمط الدولة العسكرية بديلا مناسبا، بشرط أن يقوم بتوحيد الجهود، في مواجهة الصليبيين. وكانت دولة عماد الدين زنكي[6]

التي ارتكزت على محور الموصل/حلب هي السابقة التاريخية، أو التجربة الأولى في صياغة الدولة العسكرية الموحدة تحت راية قائد واحد يقود جيشه بنفسه في ميدان الحرب.

لقد تولى عماد الدين زنكي حكم الموصل سنة (521 هـ/1127م) ليقود دولته الصغيرة في الموصل نحو هدف مزدوج: توحيد الجهود العربية الإسلامية، وطرد الصليبيين. ومن ثم برزت أتابكية الموصل باعتبارها الدولة العسكرية التي تسعى لتحقيق هذا الهدف المزدوج من ناحية، وباعتبارها سابقة لدولة الأيوبيين ودولة سلاطين المماليك اللتين تولتا إدارة الصراع في أدواره التالية من ناحية أخرى. وعندما استولى على حلب في العام التالي بدأ العمل العسكري ضد الصليبيين على محور الموصل/ حلب يحقق تقدما في الضغط على الصليبيين في الرها وإنطاكية وشمال الشام. وعندما توجت جهود عماد الدين زنكي ودولته العسكرية باستعادة الرها من الصليبيين سنة 539 هـ/1144م كان ذلك تكريسا للنموذج السياسي الذي تجسد في دولته.[7]

وقد واصل نور الدين محمود سياسة أبيه ودعم اتجاهات دولته العسكرية الساعية إلى توحيد الجهود الإسلامية في مواجهة الصليبيين. وعندما نجح نور الدين محمود في دخول دمشق سنة (549 هـ/1154م) كانت تلك خطوة هامة في سبيل تكريسه نموذج الدولة العسكرية التي بدأها أبوه. وقد ثبت نجاح هذا النموذج في الضغط على الصليبيين في الشمال، فاتجهوا صوب الخلافة الفاطمية المتداعية في الجنوب. وتسابق الصليبيون بقيادة أماليك الأول ملك بيت المقدس الصليبي، والمسلمون بقيادة نور الدين محمود (الذي أرسل جيشا. بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه صلاح الدين الأيوبي) للفوز بمصر.[8] وكانت أهم نتائج هذا الصراع اختفاء الخلافة الفاطمية، وتكريس نموذج الدولة العسكرية التي يقودها ملك محارب. لقد باتت الدولة الموحدة تضم خمس عواصم عربية كبرى هي القاهرة، ودمشق، وحلب، والموصل. والرها.

وبذلك بدأت مرحلة جديدة من الصراع ضد الصليبيين ؛ إذ رسخ نموذج الدولة الجديدة تماما، وتضاءل دور الخلافة العباسية إلى مجرد منح الموافقة والبركة وإضفاء الشرعية على الكيان السياسي الموحد الجديد الذي قاده

السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب. وحتى سنة (577 هـ/1181م) كان قائد هذه المرحلة يبسط سلطان دولته على منطقة تمتد من النيل إلى الفرات. وهكذا توفرت إمكانية النجاح في القضاء على الوجود الصليبي للمرة الأولى على هذا النحو.

لقد بنى صلاح الدين الأيوبي دولته على أساس من الوحدة الأيديولوجية والأخلاقية للعالم الإسلامي. وكانت شخصيته تحمل من المناقب والسجايا ما يؤهله لبناء هذه الدولة التي امتدت من شمال العراق وديار بكر حتى اليمن جنوبا، ومن الفرات في الشرق حتى النيل في الغرب،[9] مع سلطة روحية ومعنوية شملت كل أنحاء المنطقة العربية والعالم الإسلامي. وفي كل خطواته لبناء دولته كان صلاح الدين حريصا على أن يحصل على موافقة الخلافة العباسية ومباركتها على الرغم من معرفته التامة بمدى ضعف هذه الخلافة.[10] وكان هذا الموقف من جانبه تعبيرا عن مرارته السياسية وإدراكه لأهمية هذه الواجهة الشرعية في تعبئة المنطقة تحت قيادته.

لقد قامت دولة صلاح الدين في الأصل على أساس أن الحروب ضرورة دائمة، ومن ثم فإنه وزع مسؤوليات الحكم بمستوياتها المختلفة على أساس من شرط الالتزامات العسكرية، إذ تولى أفراد عائلته حكومات الأقاليم داخل دولته الكبيرة بشرط المساهمة في نفقات الحرب ضد الصليبيين، والإبقاء على جيوشهم في حال الاستعداد الدائم للنزول إلى ميدان القتال.[11] وقامت شهرة صلاح الدين على إنجازاته العسكرية التي تجسدت في معركة حطين سنة (582 هـ/ 1187م)، واسترداد القدس في السنة نفسها. وكانت هذه الإنجازات العسكرية هي الأساس الذي قامت عليه الدولة الأيوبية عسكرية الطابع والهدف والتنظيم.[12] لقد كانت دولته دولة ذات طابع حربي صرف، بحيث كرست كل مواردها لخدمة الهدف العسكري وهو محاربة الصليبيين لإخراجهم من المنطقة.

لقد كان مبرر قيام الدولة الأيوبية هو دورها التاريخي في مواجهة الهجوم الصليبي، وكان هذا الدور التاريخي هو الذي أضفى عليها الشرعية في نظر رعاياها، كما كان هو مبرر وجودها واستمرارها. بيد أن وفاة صلاح الدين الأيوبي أحدثت فراغا سياسيا كبيرا في المنطقة العربية، إذ تفسخت دولته في الحال بين أفراد أسرته الذين اقتسموا الحكم بمنطق

الورثة الذين يهم كلا منهم الفوز بأكبر قدر من التركة دون أن يحفل بالمصير المشترك للجميع. وكانت النتيجة المباشرة لهذا التفكك السياسي أن تفككت دولة صلاح الدين إلى عدة إمارات منفصلة ومتنازعة. وبدا كأن الأمور قد عادت إلى الوراء، وأن جهود عماد زنكي، ونور الدين، وصلاح الدين قد ذهبت أدراج الرياح. بيد أن السلطان العادل استطاع أن يفرض نوعا من الوحدة على الأيوبيين في مصر والشام.

ولكن الطابع العام لسياسة الأيوبيين كان يميل إلى مهادنة الصليبيين. ويعنى هذا في التحليل الأخير أنهم قد تخلوا عن دورهم التاريخي الذي هو مبرر استمرارهم حتى يتفرغوا لمنازعاتهم الداخلية. ومن اللافت النظر أن الدولة الأيوبية التي ظهرت على مسرح التاريخ، لأن مؤسسها صلاح الدين الأيوبي قد التزم بهذا الدور التاريخي، قد فقدت مبررات وجودها منذ أخذ ملوك بني أيوب وسلاطينهم يتخلون عن هذا الدور بشكل أو بآخر. وعلى الرغم من جهود العادل والكامل والصالح نجم الدين أيوب العسكرية ضد الصليبيين فالواضح أنها كانت جهودا دفاعية تأتي رد فعل للهجمات والحملات الصليبية.[13] ومثلما برزت الدولة الأيوبية في خضم الصراع ضد الصليبيين، فإن سقوطها في مصر-ثم في بلاد الشام بعد ذلك-جاء نتيجة بروز قوة بديلة أثبتت أنها أقدر على القيام بالدور التاريخي للدولة العسكرية التي يقودها ملك محارب.... وكان المماليك هم الذين يجسدون هذه القوة الجديدة. ونتيجة نجاحهم فيما فشل فيه الأيوبيون احتلت دولتهم مكان الدولة الأيوبية في مواجهة الصليبيين.

وينبغي أن نلاحظ أن سقوط الدولة الأيوبية، وقيام دولة سلاطين المماليك لم يغيرا من اتجاه حركة التاريخ في المنطقة. فالواقع أن دولة سلاطين المماليك كانت امتدادا للدولة الأيوبية في بنائها، وطبيعتها العسكرية، والأسس السياسية/ الاقتصادية التي قامت عليها. كما أنها ورثت دورها في قتال الصليبيين.

لقد كانت أحداث الحملة الصليبية السابعة التي انتهت سنة 648 هـ/ 1250 م بأسر الملك لويس التاسع، وتبدد جيشه بين الأسر والقتل عقب الهزيمة الفادحة التي ألحقها به الجيش المصري في المنصورة وفارسكور، بمثابة إرهاصات الميلاد لدولة سلاطين المماليك. وقد برز زعماء المماليك

البحرية[14] من أمثال: فارس الدين أقطاي، وعز الدين أيبك، وبيبرس البندقداري خلال المعارك ضد الصليبيين، وأظهروا شجاعة وقدرة عسكرية فائقة.

وعلى الرغم من أنهم حافظوا على العرش للسلطان توران شاه بن الصالح نجم الدين أيوب حتى يصل إلى مصر إلا أن السلطان الأيوبي الجديد جاء إخفاقا أيوبيا جديدا. وبدلا من الانصراف لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تماما بدأ سلسلة جديدة من المؤامرات والدسائس. وانتهى الأمر في صباح يوم الاثنين 27 محرم 648 هـ/ 21 مايو 1250 م بمصرع توران شاه على أيدي أربعة من كبار أمراء المماليك على نحو مأساوي مروع ؛ فقد مات آخر الأيوبيين «... جريحا غريقا محترقا...» على حد تعبير المقريزي.[15]

تبددت دماء توران شاه مع موجات مياه النيل، ومعها تبددت آخر مظاهر حكم دولة الأيوبيين في مصر؛ ولكن أبناء الأسرة الأيوبية كانوا لا يزالون فوق عروشهم الصغيرة في إماراتهم ببلاد الشام وأعالي العراق، إلا أن زوالهم عن مسرح التاريخ بات مسألة وقت لا غير، إذ إن دورهم التاريخي قد انتهى عندما تخلوا عن الأساس الذي قامت عليه دولتهم زمن صلاح الدين، أي قيادة الحرب ضد الصليبيين.

لقد كان القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي أخطر فترة قي تاريخ الحضارة العربية الإسلامية على الإطلاق، إذ تعين على العالم آنذاك أن يلتزم جانب الدفاع إزاء الهجوم الذي كان يتعرض له من الشرق: والغرب على حد سواء. ففي الأندلس كانت المساحة الإسلامية على خريطة إسبانيا تتراجع أمام الهجوم الكاثوليكي. وفي الوقت الذي كانت قوات الحملة الصليبية السابعة تنزل على شاطئ البحر المتوسط أمام دمياط، كانت جحافل التتار بقيادة هولاكو تطوي بلدان المشرق الإسلامي، وتقترب من عاصمة الخلافة العباسية الواهنة في بغداد.

وإذا كانت انتصارات المماليك في المنصورة وفارسكور سنة 648 هـ/ 1250م) هي صرخة الميلاد للدولة المملوكية فإن معركة عين جالوت[16] التي حسرت المد المغولي سنة 657 هـ/1260 م كانت تأكيدا للدور التاريخي الذي ينتظر دولة سلاطين المماليك: وهو دور القوة الضاربة المدافعة عن العالم

الإسلامي. لقد كانت ظروف العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي تستوجب قيام دولة عسكرية موحدة على غرار دولة صلاح الدين الأيوبي تتولى قيادة العالم العربي الإسلامي تحت راية قائد عسكري وزعيم سياسي يقود جيشه ويخوض المعارك، ويدير الأحوال الداخلية. ولم يكن الأمراء الأيوبيون قادرين على القيام بهذا الدور التاريخي.

وكان سقوط بغداد سنة 656 هـ ومصرع الخليفة المستعصم بالله العباسي[17] حدثا زلزل أركان العالم الإسلامي، كما كانا تعبيرا عن تغيرات كبيرة في موازين القوة العالمية. وكان على دولة سلاطين المماليك الناشئة أن تؤكد جدارتها بالدور التاريخي الذي انتزعته من الأيوبيين. وتحت قيادة «السلطان المظفر سيف الدين قطز» تمكن الجيش المصري من كسر الموجة التترية الطاغية،[18] وبذلك تأكد دور دولة سلاطين المماليك باعتبارها القوة الحامية للعالم الإسلامي.

ومرة أخرى تأكد الدور الرمزي والعاطفي للخلافة العباسية. فمنذ البداية حاول السلطان المعز أيبك أن يعلق تبعيته للخليفة العباسي ليكون سندا له في صراعه ضد الأمراء الأيوبيين، ثم كان إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة (659 هـ/1261م)[19] بمثابة الحل السعيد الذي وجده السلطان الظاهر بيبرس لإضفاء الشرعية على دولته العسكرية التي قامت بدور هائل في تصفية الوجود الصليبي.[20] وقد أثبتت الأحداث طوال عصر سلاطين المماليك أن الخلفاء العباسيين في القاهرة لم يكن لهم من الخلافة شئ سوى اسمها، كما تحددت إقامة معظمهم بحيث كانت أقرب إلى الاعتقال.

وتمكنت الدولة الجديدة بقيادة السلطان الظاهر بيبرس أن تغير مصير المنطقة في أكثر من اتجاه، إذ طاردت فلول المغول وقضت على بقايا الأيوبيين، كما أحاطت بالمستوطنات الصليبية من كل اتجاه. وعلى الرغم من الضجة التي أحدثها المغول في تاريخ المنطقة إلا أن خطرهم على العالم الإسلامي لم يكن كبيرا مثل خطر الصليبيين الذين كان الصراع ضدهم صراع وجود. ويتأكد هذا الفرض من خلال الحقيقة القائلة إن المغول الذين غزوا المشرق الإسلامي لم يلبثوا أن اعتنقوا الإسلام، وصاروا من أكثر المدافعين عنه

حماسة بعد جيلين فقط من هزيمة عين جالوت.

ولم يلبث بيبرس أن هاجم الممتلكات الصليبية، ثم خلفه السلطان المنصور قلاوون، وابنه الأشرف خليل، وانتهى الوجود الصليبي فوق الأرض العربية في سنة (690 هـ/1291م).

وهكذا نجحت الدولة المملوكية في القيام بدورها التاريخي الذي كان امتدادا وتطورا لدور كل من الزنكيين والأيوبيين، بيد أن هذا الدور التاريخي الذي نجح في القضاء على الوجود الصليبي في المنطقة العربية كان يستلزم إعادة صياغة البنية السياسية والاقتصادية على أساس أن الحرب حقيقة دائمة من حقائق الحياة في ذلك العصر. وهو ما يعنى ضرورة إيجاد نظام قادر على تعبئة الجيوش وإعالتها على النحو الذي يجعلها دائما في حال من الاستعداد الدائم لخوض القتال، ولم يكن هناك نظام أفضل من النظام الإقطاعي العسكري...»

كان نظام الجيش الإسلامي الباكر يقوم على أساس من عقيدة الجهاد، وكان هذا يعني على مستوى الواقع تعبئة كل القادرين للعمل في الجيش. بيد أن التطورات السياسية والاجتماعية والإدارية الناجمة عن حركة الفتوح الإسلامية من ناحية، وما حدث في بنية الدولة من تقدم نأى بها عن البساطة الأولى من ناحية ثانية، أدت إلى تطورات أخرى على الصعيد العسكري. فقد بدأت العناصر الفارسية والتركية والزنجية تدخل قي تركيب الجيوش الإسلامية. وبدأ في العصر العباسي نوع من الإقطاع الإداري الذي كان الخلفية التي خرج منها الإقطاع العسكري فيما بعد.

وكان السلاجقة هم أول من أستبدل العطاء النقدي للجنود بالإقطاع. وتروي المصادر التاريخية أن الوزير السلجوقي الشهير نظام الملك كان أول من أقطع الإقطاعيات للمماليك الأتراك.[21] وقد أدخل السلاجقة عدة تعديلات جوهرية على أشكال الإقطاع التي كانت سائدة قبلهم. وأدخلوا الخدمة العسكرية مقابل الإقطاع الذي يجعل المستفيد يملك الموارد العامة في الإقطاع الممنوح له، أي أنه كان ملتزما بأن يصطحب معه عددا من الجنود يتناسب تناسبا طرديا مع حجم الإقطاع. ولكن هذا الشكل الفضفاض للإقطاع العسكري كان مختلطا بأنماط أخرى من الإقطاع أهمها: الإقطاع الإداري.[22] وقد أدى هذا الوضع إلى ضعف الجيوش السلجوقية، إذ كانت

العمليات العسكرية الكبرى تتطلب تجميع جيوش مركبة من جيوش الأمراء أصحاب الإقطاعيات الإدارية، ولم تكن هذه الجيوش تخضع لقيادة السلطان نفسه، مما جعلها في كثير من الأحوال مجرد تحالف بين كبار الأمراء، مما كان يصيب جهود السلاجقة بالشلل العسكري في مواجهة الصليبيين. ولعل أوضح مثال على ذلك هو فشل الجيش المركب الذي قاده كربوقا في القضاء على الفرنج في إنطاكية سنة 1098 ميلادية، على الرغم من الحال البائسة التي تدهوروا إليها.[23]

بيد أن عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود سارا شوطا جديدا في بناء جيوشهما على أساس النظام الإقطاعي العسكري. فقد اعتمد عماد الدين زنكي على قوته العسكرية الخاصة، وربط الإقطاع بالخدمة العسكرية والولاء الشخصي، وبذلك نجح في تحقيق انتصاره الهام على الصليبيين في الرها سنة 1144م. وفي عصر نور الدين محمود كانت هذه الإقطاعيات وراثية، كما كانت هناك سجلات تبين عدد الرجال والعتاد الذين كان على كل أمير صاحب إقطاع أن يقدمهم لجيش نور الدين.[24] ويبدو أن صلاح الدين الأيوبي قد سار على نهج نور الدين محمود، وأبقى الإقطاعيات الوراثية. ومن الواضح أن الإقطاع العسكري زمن صلاح الدين ارتكز على الأرض الزراعية فضلا عن «الجامكيات»، أي الرواتب النقدية والعينية التي كانت تمنح للأجناد والفرسان الصغار، وكانت تلك الجامكيات تمنح في العصر الأيوبي لمن لا يأخذون إقطاعيات.[25]

لقد كانت فترة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود بمثابة الفترة الانتقالية في تطور التنظيم الإقطاعي العسكري باعتباره الوسيلة الفعالة لتعبئة الجيوش وإعالتها تحت قيادة مركزية، إذ إن التحالفات العسكرية التي قامت بين جيوش أمراء السلاجقة التي قامت على أساس من الإقطاع الإداري الفضفاض عجزت عن إنجاز أي نصر حاسم في مواجهة الصليبيين. وعندما تطور التنظيم الإقطاعي خطوة تحت قيادة عماد الدين زنكي ونور الدين كان عنصر «الإقطاع»، والولاء الشخصي لمانح الإقطاع من أهم عناصر التنظيم الإقطاعي، وأصبحت الالتزامات الإقطاعية بتقديم الخدمة العسكرية أكثر دقة وتنظيما في عهد نور الدين محمود. وعلى الرغم من أن الدولة الأيوبية كانت استمرارا في نظامها الإداري وبنائها الإقطاعي

العسكري لدولة أتابكة الموصل على نحو ما أوضح القلقشندي وغيره عن المؤرخين إلا أن صلاح الدين الأيوبي وخلفاءه ساروا بالتنظيم الإقطاعي العسكري خطوة أبعد في سبيل جعله أكثر قدرة على مواءمة التطورات العسكرية، ومواجهة ضرورات الحرب ضد الصليبيين.

كان لصلاح الدين جيشه الخاص، بيد أنه كان يعتمد أيضا على جيوش أتباعه من حكام الولايات في دولته الكبرى، ومنهم أخوته وأقاربه وأبناؤه، وكانت هذه الجيوش قائمة على أسس إقطاعية جمعت بين الإقطاع الشخصي والإقطاع الوراثي.[26] بيد أن أهم التطورات في التنظيم الإقطاعي زمن صلاح الدين الأيوبي تمثلت في أن خيوط العلاقة الإقطاعية تجمعت في شخص السلطان الذي كان هو السيد الإقطاعي لجميع الأمراء الإقطاعيين، وصار السلطان يعبئ الجيش لكي يقوده بنفسه في ميدان القتال. فقد كان من حقه عزل أي أمير عن إقطاعه إذا تخلف عن أداء واجباته العسكرية في الجهاد ضد الصليبيين. ولم يكن ذلك التنظيم الإقطاعي من النمط الذي يقوي نفوذ الأمراء الإقطاعيين على حساب السلطة المركزية، وإنما كان، على العكس، وسيلة فعالة لإحكام سيطرة السلطان على الأمراء التابعين له تحت وطأة العزل والحرمان من الإقطاع.[27]

وخلال العصر الأيوبي، الذي استمر أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان، جرت على النظام الإقطاعي العسكري عدة تطورات هامة أوصلته إلى شكله الناضج والنهائي في عصر سلاطين المماليك. ولما كان الصليبيون لا يزالون يشكلون خطرا على المنطقة العربية فإنه تعين على سلاطين هذه الدولة مواصلة الحرب ضد الصليبيين اعتمادا على المؤسسات نفسها التي ورثوها عن الأيوبيين، ومن بينها التنظيم الإقطاعي العسكري للدولة بطبيعة الحال.

لقد قام نظام الجيش المملوكي على أساس من العلاقات الإقطاعية التي اتخذت طابع الولاء الشخصي، إذ كان مماليك السلطان، الذين تتكون منهم القوة الرئيسة في الجيش المملوكي، يعسكرون في القاهرة. وكان هذا القسم يتألف أساسا من المماليك الذين اشتراهم السلطان،[28] ثم يضم إليهم مماليك السلاطين السابقين، ومماليك القتلى والمغضوب عليهم من كبار الأمراء، ويمنحهم أكبر الإقطاعيات وأعلى الوظائف. وكانت جيوش

الأمراء تشكل القسم الثاني من الجيش المملوكي العام. وكان كل أمير يملك جيشا يتناسب مع حجم إقطاعه. وقد تراوحت أعداد هذه الجيوش ما بين ثلاثمائة وثمانمائة فارس في بداية عصر سلاطين المماليك. وكانت تتمركز خارج القاهرة، إذ كانت موزعة على الولايات في مصر وبلاد الشام. أما القسم الثالث من الجيش المملوكي فكان يتألف من أجناد الحلقة من «أولاد الناس»، أي الأحرار من أبناء المماليك والتركمان، بالإضافة إلى المصريين. وكان ذلك القسم يقوم بدور أشبه بدور «الحرس الوطني» حاليا، وقد تضاءلت مكانة أجناد الحلقة في أواخر ذلك العصر بحيث أخذت منهم إقطاعياتهم.[29]

بيد أن أهم تطور حدث في النظام الإقطاعي العسكري هو تحوله إلى إقطاع شخصي غير وراثي. ومنذ عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون (النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) خضع النظام الإقطاعي المملوكي لعدة تغيرات جوهرية، إذ صار الإقطاع يتوزع بين عدة مناطق، بعد أن كان يتركز في ناحية واحدة، كما كان الإقطاع يتغير بتغير وظيفة صاحبه.[30] وكان الهدف هو مزيد من سيطرة السلطان على الأمراء.

بيد أن هذا التغير الذي حدث في النظام الإقطاعي المملوكي حدث بعد خروج الصليبيين من بلاد الشام والمنطقة العربية بعد هزيمتهم في عكا. وهو ما يعني أن النظام الإقطاعي الذي قامت عليه الدول العسكرية التي أفرزتها الضرورة التاريخية في مواجهة الصليبيين قد بدأ مرحلة التدهور. وعلى الرغم من نجاح الدول العسكرية في دورها التاريخي والقضاء على الكيان الصليبي إلا أن هذه الدول فشلت في مواجهة متطلبات الإدارة المدنية، إذ إن الدولة المملوكية، التي تمت صياغة مؤسساتها ونظمها على أساس أن الحرب حقيقة يومية، وعلى أساس أن الخطر الصليبي يستوجب توجيه كافة الموارد نحو الجهد العسكري، وجدت نفسها في مواجهة مهمات الإدارة المدنية بعد زوال الوجود الصليبي. وكانت خطوة السلطان الناصر محمد بن قلاوون في تعديل النظام الإقطاعي تعبيرا عن هذا الموقف.

حقيقة أن ما أحدثه الناصر محمد بن قلاوون قد نجح في تشديد قبضة السلاطين على الأمراء في المدى القصير، بيد أنه أثبت أنه كارثة

على وجود الدولة نفسها. فقد عزف الأمراء عن الاهتمام بإقطاعياتهم، وقلت إنتاجية الأرض الزراعية. وهو الأمر الذي ترك آثاره السلبية على النظام السياسي الذي قامت عليه دولة سلاطين المماليك. فبينما قل اعتماد المماليك على عائد الأرض الزراعية، زاد معدل اعتمادهم على الرواتب النقدية والرواتب العينية. ومع تزايد تدهور الإنتاج الزراعي يتزايد عجز الدولة عن سد حاجات فرسان المماليك الذين يوجهون طاقاتهم العسكرية نحو الناس في الداخل، وتشهد الفترة الأخيرة من عصر سلاطين المماليك صورا عنيفة من الاستبداد والتسلط، تقابلها مقاومة متصاعدة من الناس، وتدهور اقتصادي، ثم مزيد من الخلل السياسي. وتصير السلطنة عبئا يتهرب الجميع من تبعاته...[31] وهكذا تنهار دولة سلاطين المماليك من الداخل قبل أن تدهمها جيوش العثمانيين سنة (922 هـ-1517م).

هذه هي أهم ملامح التطورات السياسية التي نجمت عن المواجهة ضد الصليبيين، ونخرج منها باستنتاج مؤداه أن الظروف التاريخية التي أفرزت الدولة العسكرية القائمة على أساس من التنظيم الإقطاعي العسكري قد تغيرت بخروج الصليبيين في أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. ولم تنجح الدولة المملوكية العسكرية في التوافق مع الظروف التاريخية الجديدة ولكنها مرت بفترة انتقالية، ثم بدأت رحلتها نحو التدهور والأفول في القرن الأخير من حياتها. وهكذا كان الحصاد السياسي سلبيا في النهاية.

لقد كان تأثير الحروب الصليبية من الناحية الاجتماعية واضحا في بلاد الشام أكثر منه في أي منطقة أخرى من العالم العربي، إذ إن البنية السكانية، وعلاقات القوى الاجتماعية، والنظام القيمي والأخلاقي قد اهتزت كثيرا نتيجة الاستيطان الصليبي الذي عاش فوق تراب هذه المنطقة حوالي قرنين من الزمان. كما أن الحروب المستمرة تركت تأثيراتها السلبية أيضا.

وفيما يتعلق بطبيعة التركيبة السكانية في بلاد الشام قبيل الحروب الصليبية ينبغي أن نلاحظ أمرين غاية في الأهمية: أولهما الطبيعة الفسيفسائية لبنية السكان، وثانيهما عدم إمكانية بحث هذه الفسيفساء السكانية داخل أطر البحث التقليدية، أو محاولة تفسيرها وفق النظريات و «القوالب» الجاهزة. ويعني هذا أن الدراسة الوصفية/التحليلية هي التي

يمكن أن تعيننا على رؤية الظاهرة في إطارها التاريخي الموضوعي.

وربما يكون من المناسب أن نوضح أن هذه الفسيفساء السكانية التي ميزت بلاد الشام تفصح عن حقيقة تاريخية غاية في الأهمية، على الرغم من بساطتها وقربها من البديهيات. فقد كان لموقع بلاد الشام أثره في جعل هذه المنطقة مسرحا لكل الهجرات والحركات التاريخية الكبرى التي عرفها العالم القديم، كما كان لهذه التفاعلات بدورها أكبر الأثر في قيام الحضارات الراقية التي عثرت عن نفسها في المنطقة التي تمتد من جبال طوروس في الشمال حتى بادية الشام جنوبا، ومن الفرات شرقا حتى مياه البحر المتوسط غربا. وداخل هذه المنطقة الشاسعة سكنت أقوام وجماعات عديدة عبر عصور التاريخ، وساعدتها طبيعة التضاريس المتنوعة على أن تكون بمثابة متحف حي يدل على الأقوام، والحضارات، والأديان، والمذاهب التي عرفتها بلاد الشام طوال تاريخها. وعندما جاءت جيوش الحملة الصليبية الأولى كانت التركيبة السكانية في بلاد الشام تضم عناصر عربية، وتركية، وكردية، وسوريانية، فضلا عن الأرمن والبيزنطيين. وبينما كانت العناصر العربية تشكل أغلبية السكان[32] كانت عناصر الأتراك السلاجقة والتركمان تمثل العنصر السكاني الذي يلي العرب في الأهمية، وقد زادت أهميتهم بفضل نشاطهم العسكري والإمارات التي نجحوا في حكمها ببلاد الشام قبيل وأثناء الحروب الصليبية.[33] أما الأكراد فقد كانوا موجودين في المنطقة قبل قدوم الصليبيين حقا، ولكن أهميتهم الاجتماعية زادت بعد أن صاروا يمثلون أغلبية جيوش صلاح الدين، مما أدى إلى اشتعال العلاقات بينهم وبين التركمان.[34] كذلك يمثل الدروز أحد عناصر السكان الهامة في بلاد الشام، وعلى الرغم من مشاركتهم في الحرب ضد الصليبيين إلا أنهم عاشوا حياة أقرب إلى العزلة والانغلاق جعلتهم نهبا لكثير من الأقاويل والروايات المثيرة.[35]

وقد تحدث المؤرخون الصليبيون، والرحالة الذين زاروا بلاد الشام زمن الحروب الصليبية عن مدى تعدد أجناس السكان في هذه البلاد. وكان أول من تنبه إلى هذه الحقيقة هو فوشيه دي شارتر الذي رافق أحد جيوش الحملة الصليبية الأولى، كما كان شاهدا على تجربة الاستيطان الصليبي في فلسطين خلال الجيل الأول بعد نجاح الصليبيين في استيطان الشام.

فقد ذكر فوشيه العرب والأتراك والأحباش، واليونان والسوريان، كما تحدث عن مستوطنين فرنسيين، وإنجليز، وإيطاليين،[36] كما ذكر ويلبراند (Wilbrand of Oldenbury) سنة 1212 م أن مدينة إنطاكية « ... بها سكان كثيرون أغنياء، الفرنج والسوريان واليونان واليهود، والأرمن والمسلمون...». وبعد ذلك بسنوات قليلة كتب ثييتمار (Thietmar) عن السكان اليونان، واليعاقبة، والجورجيين، والأرمن والنساطرة، واليهود والسامرة، والصدوقيين، والحشاشين...». وفي سنة (1241 م) كتب جيمس الفيتري عن عناصر السكان في بلاد الشام وزاد عليهم الموارنة. كما أن الرحالة بوركهارد (Burchard of Mount Sion) ذكر سنة (1283 م) المسلمين، والسوريان واليونان، والأرمن والجورجيين، والمساطرة، واليعاقبة، والميديين، والفرس، والأحباش، والمصريين... وغيرهم كثيرين من الصليبيين.[37] كذلك قال الرحالة بنيامين التطيلي الذي زار بيت المقدس حوالي سنة (1167م): إن سكان بيت المقدس يتحدثون لغات مختلفة، ويعتنقون ديانات مختلفة، ومذاهب شتى.[38]

ويتضح من الفقرة السابقة أن تنوع عناصر السكان كان يوازيه تنوع آخر في دياناتهم ومذاهبهم. وعندما جاء الصليبيون جاءت معهم عناصر جديدة زادت من تنوع الفسيفساء السكانية في بلاد الشام من جهة، كما أدت إلى جعل هذه التركيبة السكانية الفسيفسائية في حال من السيولة وعدم الاستقرار من جهة ثانية، إذ إن المذابح الصليبية، والتهجير الجماعي، والاستيطان، وإعادة التوطين، فضلا عن تبادل السيادة على بعض مناطق الحضر والريف بين المسلمين والصليبيين خلال الصراع الطويل-كل ذلك أدى إلى حال من السيولة السكانية ربما لم تعرف مثله أي منطقة أخرى. فقد تحولت أقليات إلى أغلبيات في بعض المناطق، كما أن بعض مناطق أخرى شهدت العكس، أو شهدت تحول السكان عن دياناتهم. كذلك صحبت الهجمات حالات كثيرة تحول فيها السكان إلى عبيد يباعون ويشترون، على حين بقى عدد منهم للقيام بواجبات الخدمة في مدن العدو.

وقبل أن نقدم بعض الأمثلة الدالة على حال السيولة السكانية، ربما يكون مفيدا أن نشير إلى أن سكان بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية كان حوالي مليونين وسبعمائة نسمة حسب تقديرات بعض الباحثين.[39] وهذا الرقم الذي توصل إليه الباحث، اعتمد على أدلة استقرائية وتحليلية،

ولم يعتمد على إحصائيات دقيقة لعدم توفرها، يبدو لنا معقولا في ضوء الحقيقة القائلة إن بلاد الشام في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي-أي بعد قرن كامل من قدوم الحملة الأولى-كانت قد فقدت الكثير من سكانها نتيجة المذابح الصليبية الشهيرة، ونتيجة الهجمات الاستردادية الإسلامية، ونتيجة الهجرات الإجبارية التي تصحب الاستيلاء على كل مدينة.[(40)] ومن ناحية أخرى فإن أعداد الصليبيين الذين بقوا في فلسطين بعد الحملة الأولى كان قليلا.[(41)] ولم يكن ممكنا أبدا تعويض نقص السكان في المستوطنات الصليبية بأعداد القادمين من أوروبا التي كانت تتناقص باستمرار. كما أن مدنا كثيرة تعرضت للتخريب من جانب المسلمين أو الصليبيين مثل: حمص، وبعلبك، وحماة[(42)] وعسقلان وقنسرين، والرملة، وطبرية التي دمرها صلاح الدين الأيوبي سنة (582 هـ-1187م) حتى لا يفيد الصليبيون من تحصيناتها إذا نجحوا في استردادها.[(43)] وفي وسعنا أن نسوق عشرات الأمثلة من المصادر العربية واللاتينية عن تأثير العمليات العسكرية في البنية الديموجرافية لمدن بلاد الشام.

وربما يكون من الصعب تقدير المساحة المأهولة من بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، بيد أن القسم الأكبر من سكان هذه البلاد آنذاك كانوا خارج أسوار المدن موزعين على حوالي ستة عشر ألف قرية.[(44)] وكان سكان هذه المناطق من الفلاحين ومن البدو الرحل. ويبدو أن أحوال البدو لم تتأثر كثيرا بالغزو الصليبي لوقوعهم على هامش مناطق الصراع والقتال، على الرغم من مشاركتهم في القتال أحيانا كثيرة. أما الفلاحون من سكان القرى فإنهم كانوا الفريسة السهلة على الدوام لأي هجوم صليبي يشنه المستوطنون المحليون، أو الصليبيون القادمون من أوروبا.[(45)] وقد بقيت الأغلبية الكبرى من الفلاحين متمسكة بالحقول والقرى. وبعد فترة من العداء الصامت تجاه الصليبيين تمثلت في رفض الفلاحين زراعة أرضهم، حتى لا يفيد الصليبيون منها، حدث نوع من التعايش الإجباري بين الطرفين.[(46)] ومن ناحية أخرى، فإن ما جرى من معارك بين الجانبين طوال مائتي سنة قد جاء في معظم الأحوال ليزيد من تعاسة الفلاحين بحكم طبيعة الريف التي تجعله مفتوحا أمام أي هجوم عسكري، بعكس المدن التي نعمت دائما بالأسوار والحصون والقلاع.

وكان من أسباب السيولة السكانية أيضا عمليات التفريغ السكانية، والإحلال السكاني، أي زرع مستوطنين جدد محل السكان الأصليين. فعندما تمكن الصليبيون من الاستيلاء على مدينة بيت المقدس سنة 1099م أخرجوا منها المسلمين واليهود الذين راحوا ضحية مذبحة مروعة. وعندما تملك الفرنج المدينة كانت خاوية تقريبا، ولم تكن أعداد الفرنج تكفي لملء شارع واحد على حد قول وليم الصوري عندما تولى بلدوين حكم مملكة ببت المقدس.[47] ومنذ البداية حرم الصليبيون على المسلمين واليهود دخول المدينة، كما أن الصليبيين سارعوا بعد أن خفت شهوة القتل في نفوسهم إلى وضع أياديهم على منازل أهل القدس الذين حصدتهم المذبحة الرهيبة،[48] كما تم نقل سكان القرى المسيحية للسكن في المدينة التي كانت بحاجة إلى سكان يملئون فراغها الموحش.[49] وكان ما حدث في المدينة المقدسة مثالا لما حدث في سائر المدن التي استولى عليها الصليبيون، بيد أن المسلمين الذين هجروا المدن الشامية والفلسطينية التي احتلها الصليبيون لم يلبثوا أن عادوا لسكن مدنهم والإقامة فيها نتيجة الاستقرار ونمو الإمكانات الاقتصادية في مدن الساحل على نحو خاص. ولكن المصادر التاريخية لا تمدنا بأي معلومات عن أعداد أولئك العائدين، أو نسبتهم العامة قياسا إلى سكان المدن التي حكمها الصليبيون وأقاموا فيها.

لقد عاش سكان الشام الأصليون في المدن والريف والصحراء ؛ سواء في القطاع الإسلامي أو القطاع الصليبي. ولكن ما يلفت النظر هو أن نسبة المسلمين منهم كانت قليلة في المدن الصليبية الكبيرة، على حين تزايدت أعدادهم في المراكز العمرانية الصغيرة. وكان المسلمون في المناطق الصليبية يعانون من وطأة الضرائب الإضافية، ومن التعاسة التي تسببها تسميتهم «الكلاب»، أو «الكفار» في بعض الأحيان. وفي الجانب الإسلامي كان يعيش عدد من الصليبيين في حال متدنية في المناطق التي حررها المسلمون طوال تلك المواجهة. وربما يكون مفيدا في هذا المقام أن نشير إلى حقيقة أن القضاء على مملكة الصليبيين، وإماراتهم، في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، لم يكن يعني على الإطلاق أن جميع الفرنج قد رحلوا عن بلاد الشام. فقد رحل القادة والفرسان والقادرون على الرحيل، على حين بقى عامة الصليبيين الذين اعتنق بعضهم الإسلام، وبقى البعض الآخر

على دينه، ودخل في التركيبة الفسيفسائية للبنية السكانية في بلاد الشام.

أما المسيحيون الذين عاشوا في المناطق الصليبية فإنهم لم يلقوا معاملة حسنة من الصليبيين الذين اعتبروهم منشقين وخارجين على الدين المسيحي. كذلك فإن الصليبيين لم يقيموا أي علاقة ودية مع أي طائفة مسيحية باستثناء الموارنة في لبنان.[50]

ومع استمرار المعارك، وتبادل النصر والهزيمة، كانت هناك باستمرار أعداد من الأسرى من الجانبين. وكان بعضهم يتحول إلى رقيق يباع في أسواق النخاسة، على حين يبقى البعض الآخر من الرجال والنساء لأداء الأعمال الحقيرة وهم في حال الأسر.[51] والراجح لدينا أن هذه الأعداد الكبيرة من الأسرى، خصوصا من يباع منهم في أسواق الرق، كانوا يدخلون في نسيج التركيبة السكانية لبلاد الشام ويزيدونها تنوعا وثراء. وقد أثر هذا في الملامح الجسدية لسكان بلاد الشام نتيجة التزاوج والاندماج الذي أذاب الفروق العرقية بمرور الأجيال.

هكذا، إذاً، تمثلت النتيجة الأولى للوجود الصليبي، والصراع ضده، في سيولة البنية السكانية في بلاد الشام. فقد هرب غير المقاتلين من السكان الأصليين أثناء العمليات العسكرية. وحين عاد أبناء المدن التي احتلها الصليبيون، لم يعودوا جميعا، كما أن التركيب السكاني لم يعد إلى سابق عهده، إذ كان لابد من توفير الأماكن للفرنج المستوطنين على حساب السكان الأصليين. وقد توالت أعداد الصليبيين من أوروبا لتسبب خللا دائما، وسيولة مستمرة، في التركيب السكاني.

ومن ناحية أخرى كانت الهجرة من بلاد الشام صوب مصر سببا في زيادة عدد السكان. حقيقة أن مصر قد تعرضت لهجمات الصليبيين على أراضيها بين الحين والآخر جعلتها تتعرض لعمليات عسكرية تسببت في هجرات داخلية، مثلما حدث أثناء الصراع بين جيوش أسد الدين شيركوه وجيوش الصليبيين بقيادة أماليك الأول (عموري)، ومثلما حدث لأهالي دمياط والمناطق المجاورة أثناء أحداث الحملة الصليبية السابعة، بيد أن عدم نجاح الصليبيين في احتلال الأرض المصرية لفترة طويلة، مثلما حدث في بلاد الشام، جعل التأثيرات السلبية في البنية السكانية محدودة للغاية.

وعندما تولى سلاطين المماليك حكم مصر والشام صارت مصر هي

المعقل الأخير الآمن للحضارة العربية والإسلامية. وبينما كان الصراع ضد الصليبيين في بلاد الشام يمر بأطواره الأخيرة لصالح المسلمين دفعت الغزوات التترية بالكثيرين من أهل العراق والشام إلى مصر، كما أن هجوم الكاثوليك على مسلمي الأندلس دفع بالكثيرين إلى مصر. فإذا أضفنا إلى ذلك عدد من هاجروا طوال قرن ونصف قرن (قبل تولي المماليك الحكم) من فلسطين وشمال الشام تحت وطأة الحروب الصليبية أدركنا مدى تزايد معدل النمو السكاني في مصر في تلك الأثناء.[52] ومن المهم أيضا أن نشير إلى أن أولئك المهجرين قد عوضوا النقص الفادح في أعداد السكان نتيجة المجاعة الكبرى التي عرفت باسم «الشدة المستنصرية»في عهد الخليفة «المستنصر» الفاطمي.

وقد كانت لأحداث الحروب الصليبية تأثيراتها السلبية من الناحية الاجتماعية، أي من ناحية الحياة اليومية في بلاد الشام. وقد تجلت هذه التأثيرات السلبية في عدة مستويات. فمنذ نجاح الصليبيين في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، وقيام مملكتهم وإماراتهم الثلاث في القدس، وإنطاكية والرها، وطرابلس، باتت بلاد الشام نهبا للمنازعات السياسية والصراعات السياسية التي أفرزت نتائج سلبية خطيرة على الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، إذ إن النزاع والحروب لم تتوقف بين المسلمين والصليبيين، وبين السنة والشيعة، وبين أمراء المناطق الحضرية ونظرائهم في المناطق الريفية أو الصحراوية والجبلية، وبين أبناء الأسر الحاكمة ووزرائهم الطامعين وبن عامة السكان (وكانت أغلبيتهم من العرب)-والعساكر والوافدين (وأغلبيتهم من السلاجقة والتركمان)-وبين الأتراك والأكراد.

كانت هذه المنازعات والصراعات المسلحة مصدر اضطراب أمني وخلل اجتماعي خطير،[53] إذ كان أحدها يكفي لتعكير صفو الحياة اليومية والإضرار بالصالح العام للمجتمع، بيد أنها تجمعت لتنشر مظاهر انعدام الأمن، وحدة الخروج على القانون بشكل متصاعد، وبروز اللصوصية، وقطع الطريق، والسطو. ويشير أسامة بن منقذ إلى وجود عصابات لقطع الطريق في تخوم بعلبك، وشيزر، ونابلس.[54] ولم تكن تلك هي المناطق الوحيدة التي راحت نهبا لعبث مثل تلك العصابات بطبيعة الحال.

وعلى الرغم من ذلك فإن الحياة استمرت في سيرها ولم تتوقف.

وعادت الحياة تزدهر مرة أخرى في بعض المناطق التي حررتها جيوش صلاح الدين، بيد أن بعض المناطق التي دمرها لاعتبارات أمنية عسكرية، مثلى عسقلان، خربت بعد أن كانت من المراكز الحضرية المزدهرة، بحيث بكى الناس وأسفوا عليها.(55) كذلك ازدهرت الحياة في المناطق التي كانت بعيدة عن خطوط الحرب التقليدية. فثلما كانت المنطقة منطقة حرب كان التدهور السكاني والاجتماعي واضحا، والعكس صحيح تماما. إذ إن المناطق التي شهدت نوعا من التعايش السلمي، بسبب الضرورات الاقتصادية، مثلما حدث في بانياس عندما اقتسم أهل دمشق والصليبيون المناطق الزراعية، ومثلما كانت الضرورة الاقتصادية تسمح بالحفاظ على أمن طرق التجارة وقوافلها في عكا.(56) هذه المناطق عاشت قدرا من الازدهار النسبي، بيد أنه لم يلبث أن تدهور في ظل الحركة الاستردادية التي قادها صلاح الدين الأيوبي وأحداث الحملة الصليبية الثالثة.

أما تأثير الحروب الصليبية في النظام القيمي والأخلاقي في العالم العربي، فيمكن أن نرصده من خلال الحقيقة القائلة إن تلك الحروب الطويلة المرهقة كان لها من الإفرازات السلبية ما يفوق إفرازات الحروب العادية. فقد وقعت أحداث الحملة الصليبية الأولى في زمن كان العالم العربي الإسلامي يعاني من شرور التمزق والتشرذم السياسي، بحيث فشل في القضاء على الموجة الصليبية الأولى ؛ على الرغم من موارده الهائلة بشريا واقتصاديا، وقبل أن يستوعب المسلمون الصدمة كانت قد مر حوالي خمسين سنة.(57)

هذه الحقيقة كانت لها انعكاساتها على جماهير الناس في العالم العربي، فامتلأت النفوس بالغضب ومشاعر الإحباط والمرارة التي زادت من حدتها أعداد اللاجئين الهاربين من وحشية الصليبيين عند كل هجوم جديد.(58) لقد شعر الناس في المنطقة العربية بمدى عجز الحكام، وامتلأت النفوس في كل مكان بروح العجز، وشاعت روح من التقوى السلبية، والتدين العاطفي الهروبي. وقد تجسد هذا كله في انتشار الطرق الصرفية الجاهلة من الدراويش وأتباعهم الذين رددوا الخرافات وأنباء معجزات الدراويش وكراماتهم المزعومة على أنها من حقائق التاريخ. ومع أن التصوف-بمعنى النسك والزهد والتفقه في الدين-قد ظهر على استحياء في القرن الثالث

الهجري،[59] ثم انتشر رويدا رويدا، فإنه لم يتخذ شكل الظاهرة السائدة في الحياة الاجتماعية قبل العصر الأيوبي.

لقد كان هناك فريق من المتصوفة، أقرب إلى الفلاسفة، يميلون إلى العقل أكثر مما يجنحون إلى الخرافات والغيبيات، ولكن مصرع شهاب الدين السهروردي-المعروف باسم «السهروردي المقتول»-بأمر من صلاح الدين الأيوبي سنة 587 هـ،[60] بتحريض من علماء حلب وبفتوى منهم، كان مؤشرا على اتجاه يناصر الدراويش الذين كانت تؤيدهم جيوش المريدين من العامة. وتمثل اهتمام الأيوبيين بهذا النمط من التصوف في اعتماد صلاح الدين الأيوبي عليهم في إذكاء حماسة الجنود من جهة، وإنشاء المؤسسات اللازمة لخدمتهم ووقف الأوقاف السخية عليها من جهة أخرى.[61] وبينما توارى المتصوفة الفلاسفة ظهر المتصوفة الدراويش وأصحاب الطرق. ومع مرور الوقت بدأت تظهر أنماط غريبة من الدراويش لا سيما في عصر سلاطين المماليك حتى وجد منها حوالي ست وثلاثين فرقة في ذلك العصر. لقد اتخذ الاتجاه العام للتصوف اتجاها سلبيا ضم الكثير من الدراويش والمجاذيب. وكان التفاف عامة الناس حول هذا النمط من المتصوفة/الدراويش تعبيرا عن روح اليأس، والهروب إلى المجهول، التي سيطرت على قطاعات كبيرة من سكان المنطقة العربية زمن الحروب الصليبية.

وقد استغل سلاطين المماليك الصوفية في تدعيم سلطانهم، والترويج لأنفسهم عند عامة الناس.[62] ومنذ البداية كان السلطان الظاهر بيبرس يقرب المشعوذين والدراويش والمجاذيب، وكذلك فعل المنصور قلاوون، وسائر سلاطين المماليك. وكانت أوقافهم على الصوفية، واهتمامهم ببناء الخانقات لهم، تعبيرا عن ذلك الموقف. لقد ورث المماليك عن سادتهم الأيوبيين الاهتمام بالصوفية وتشجيعها مثلما ورثوا عنهم كثير من الأمور الأخرى. وبينما كانت البداية نابعة من رغبة صلاح الدين في استخدام الصوفية للتعبئة المعنوية لجنوده، ومحاربة التشيع انتهى الأمر في عصر سلاطين المماليك بالرغبة في تدعيم سلطة السلطان ومكانته عند جماهير العامة.

وقد أخذ الناس عن الصوفية عدة عادات وممارسات ذميمة أشاعت المزيد من التفسخ في الحياة الاجتماعية، منها: لبس الغريب من الثياب، والغناء، والرقص على أنغام الدفوف باسم الدين، وشرب الخمر، وتدخين

الحشيش أو أكله. وقد عرف في ذلك العصر باسم حشيشة الفقراء (والفقراء هنا بمعنى الصوفية)[63].

وعلى أي حال، فإن اتساع التصوف على نطاق الدراويش، والمجاذيب، وتقلص التصوف الفلسفي الذي يمثله «ابن عربي» و «السهروردي المقتول» وأمثالهما كان تعبيرا عن إفراز سلبي آخر من إفرازات الحروب الصليبية تعبيرا عن روح العجز والتدهور الأخلاقي الناجمة عن الوجود الصليبي، والتوسع على حساب المسلمين طوال جيلين قبل أن يبدأ رد الفعل الإسلامي المنظم. وعندما بدأت حركة الاسترداد الإسلامية تشتد استخدم الأيوبيون الحركة الصوفية لتعبئة المشاعر الدينية ضد الأعداء، بيد أن نجاح هذا السلاح المعنوي زمن صلاح الدين كان يوازنه تحول في الحركة الصوفية، بحيث باتت عنصرا سلبيا في الحياة الاجتماعية في عصر سلاطين المماليك.

وتقتضي منا الحقيقة التاريخية أن نقرر أن التيار السلبي الهروبي الذي مثلته الحركة الصوفية عارضه تيار إيجابي ديني كان هو البذرة التي نمت منها شجرة الجهاد. فقد شن عدد من الفقهاء هجوما قاسيا على الصوفية الذين أرادوا صرف الناس عن واجب الجهاد ضد الصليبيين بالحديث عن خمر الجنة، والعشق الصوفي، والحب الإلهي، وحب الجمال المطلق، وما إلى ذلك. وكان الشاعر المتصوف «ابن الفارض»-في حياته وكتاباته-تجسيدا لهذه الروح الهروبية.[64] وقد أدان الشيخ تقي الدين بن تيمية وأمثاله هذا التقاعس، ووصم ابن تيمية معاصريه بأنهم « ... قد وهنوا وفشلوا، وغفلوا وكسلوا، ولزموا الحيرة، وعدموا الغيرة...».[65] ومن هذا التيار الذي سبق عصر ابن تيمية كانت روح المقاومة التي استمرت طوال قرنين من الزمان.

كذلك عانت المجتمعات العربية/ الإسلامية كثيرا من مظاهر التدهور الاجتماعي على صعيد النظام القيمي والأخلاقي. فانتشر الشذوذ الجنسي بشكل واسع، وهو من أخطر الأمراض الاجتماعية على الإطلاق. ذلك أنه إذا لم يكن من أسباب الأسباب الاجتماعي فهو على أقل تقدير من مظاهر هذا الانهيار. وربما يكون من عوامل تفشي هذا الشذوذ غياب القوات الرئيسة في الجيوش المتحاربة فترات طويلة في ميدان القتال بشكل كان يحول بينها وبين الاستقرار اللازم لحياة الأسرة، فضلا عن أن جزءا كبيرا من الجيوش، لا سيما في عصر سلاطين المماليك، كان من جنود غرباء

انتزعوا من بلادهم ليباعوا في أسواق النخاسة، وينشئوا بعد ذلك في ظل نظام تربية المماليك. وقد اشتهر عدد كبير من سلاطين ذلك العصر «بمحبة الذكران». كما أن الشذوذ الجنسي انتشر بين المتصوفة بدرجة جعلت بعض الحكام يأمرون بألا يدخل إلى أماكن الصوفية «شاب أمرد» أو صبي مليح،[66] أما الدعارة فقد صارت من أكثر المهن رواجا وتنظيما في ذلك العصر، إذ كانت الدولة المملوكية تفرض على من يمارسنها ضريبة معينة كانت من ضمن إيرادات الخزانة، وكانت المرأة المسؤولة عن العاهرات تسمى «ضامنة المغاني». ويبدو أنه كانت هناك أحياء خاصة بالبغايا في المدن.[67]

على أن أهم النتائج السلبية للحروب الصليبية على المستوى الاجتماعي تمثلت في توتر العلاقات بين المسلمين والمسيحيين، لا سيما في بلاد الشام. وعلى الرغم من أن الفرنج الصليبيين قد عاملوا المسيحيين الأرثوذكس معاملة قاسية، إذا استولوا على كنائسهم وحولوها إلى كنائس لاتينية، كما منعوا الأقباط من زيارة بيت المقدس على اعتبار أنهم هراطقة-على الرغم من هذا وغيره.. إلا أن مشاركة المسيحيين الموارنة والسوريان والأرمن في بلاد الشام في مساعدة الصليبيين[68] قد زرع بذور الشك والمرارة التي تولدت منها أحداث عنيفة ضد المسيحيين تصاعدت حدتها طوال عصر الأيوبيين والمماليك من بعدهم.

ومن ناحية أخرى، أدت الحروب الصليبية إلى اختلال القوى الاجتماعية في بعض المناطق، إذ تحول المسلمون إلى أقليات في المدن التي احتلها الصليبيون من جراء المذابح الصليبية والهجرات الضخمة التي نجمت عنها. كما أن بعض المسلمين آثروا أن يرتدوا عن دينهم فاعتنقوا المسيحية خوفا على حياتهم.[69] وكان من الطبيعي أن يتمسك أبناء الأقليات الإسلامية في المناطق التي خضعت للصليبيين بهويتهم الحضارية، ويؤكدوا انتماءهم للحضارة العربية الإسلامية بشتى الصور. فقد كان المسلمون من سكان المناطق الريفية المجاورة لعكا يخفون الأسرى المسلمين عن عيون الصليبيين ويساعدونهم على الوصول إلى المناطق الإسلامية.[70] كذلك تركزت الحياة في قرى الريف الخاضعة للصليبيين حول المساجد الصغيرة، واستمر الفقهاء والقضاة في مباشرة خدماتهم الدينية وغير الدينية لأبناء هذه القرى. لأنه لم يكن ممكنا الاستغناء عنهم في شؤون الزواج والميراث وغيرها. أما

علاقة الفلاحين المسلمين بالصليبيين فكانت علاقة تقوم على الاستغلال والابتزاز.

أما التأثير الاقتصادي للحروب الصليبية في العالم العربي فقد اتخذ أبعادا غير متسقة. فبينما كانت الزراعة من التدهور والتخريب في بعض المناطق ازدهرت التجارة الداخلية والخارجية في مناطق أخرى، وبينما ازدهرت بعض المدن الواقعة على طرق التجارة البرية والبحرية اضمحلت مدن أخرى كانت مزدهرة قبل عصر الحروب الصليبية. وإذا ما تذكرنا دوافع الجمهوريات التجارية الإيطالية للاشتراك في الحروب والحملات التي جردها الغرب الأوروبي، والاتفاقيات التي عقدوها مقابل مساعداتهم البحرية للصليبيين، أدركنا أن زيادة نصيبهم في تجارة البحر المتوسط والتجارة العالمية كانت خصما من نصيب التجار المسلمين. وبينما لاحظ ابن جبير ازدهار التجارة الداخلية، ينبغي أن نلاحظ أن سيادة العملات الأوروبية، والإيطالية، خصوصا في أسواق المنطقة العربية ؛ كانت مؤشرا ودليلا على تدهور السيادة الإسلامية على التجارة العالمية. فإذا ما أضفنا إلى ذلك كله النتائج السلبية للنظام الإقطاعي المملوكي على إنتاجية الأرض الزراعية، وانسحاب ذلك الأثر السلبي على الحرف والصناعات والتجارة الداخلية التي باتت تئن من وطأة الضرائب الإضافية، والحمايات التي فرضت على أرباب الحرف والأسواق، أدركنا أن الناتج النهائي للاستجابة الاقتصادية للصراع الإسلامي/ الصليبي كان سلبيا.

لقد عانت المناطق الريفية في بلاد الشام أكثر من غيرها من الآثار السلبية للحروب الصليبية. ففي ظل الفاطميين والسلاجقة عاش الفلاحون حياة تقترب من القنانة في كثير من الأحيان نتيجة العلاقات النهبية التي ربطت أولئك الفلاحين بسادتهم من أصحاب الإقطاعيات. ومع تزايد الإقطاع الشخصي صارت الأرض الزراعية مجرد مورد للحصول على النفقات اللازمة لتجنيد المقاتلين، ولم يعد أصحاب الإقطاعيات يهتمون بالأرض أو رفع كفاءتها، أو وسائل الري والصرف، وسائر أوجه العناية الواجبة بالأرض الزراعية. وكانت النتيجة أن تدهورت إنتاجية الأرض الزراعية إلى حد مخيف.

ومن ناحية أخرى، فإن أحوال الفلاحين في المناطق الخاضعة للأتراك

السلاجقة لم تكن أفضل من أحوالهم في المناطق الخاضعة للصليبيين. ففي الريف لم يكن ثمة فارق ملحوظ بين معاملة صاحب الإقطاع المسالم، أو صاحب الإقطاع الصليبي للفلاحين.[71] وقد حدثنا الرحالة المسلم ابن جبير[72] عن أن المسلمين والفرنج كانوا يتقاسمون الإنتاج الزراعي في منطقة بانياس، كما تحدث عن حسن معاملة الصليبيين لفلاحيهم في منطقة تبنين فقال: «... سكانها كلهم مسلمون، وهم مع الإفرنج على حال ترفيه نعوذ بالله من الفتنة، ذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عن أوان ضمها، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضا، ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل، رساتيقهم كلها للمسلمين، وهي القرى والضياع، وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق. وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين: أن يشتكى الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج، ويأنس بعدله...».

وما لم يقله ابن جبير يمكن استنتاجه من بين السطور، وتؤكده المصادر التاريخية الأخرى. وهو أن النظام الإقطاعي العسكري، الذي قام على أساس الأرض الزراعية، قد هبط بأحوال الفلاحين إلى مستوى أكثر تدنيا من ذي قبل. وفي المناطق الصليبية كان الفلاحون مربوطين بالأرض بشكل عام، ولكنهم كانوا ملزمين ببعض الضرائب. وإذا كان الفلاحون في تبنين قد لقوا معاملة أفضل على نحو ما ذكر ابن جبير فالسبب في تقديرنا راجع إلى حقيقة أنهم جميعا من المسلمين، وأن الصليبيين بحاجة إلى قوة عملهم في هذه المنطقة بسبب قلة مواردهم البشرية وينبغي أن نلاحظ أن أحوال الفلاحين المسلمين في المناطق الصليبية لم تكن كلها على هذا المستوى، ففي مناطق صليبية أخرى كانوا أشبه بالسجناء.[73] بيد أن هذا لا يعني، من ناحية أخرى، أن أحوالهم كانت أفضل في ظل النظام الإقطاعي العسكري في المناطق الإسلامية. ولدينا نص أورده أبو شامة[74] لا يخلو من دلالة هامة. ففي حوادث سنة (545 هـ) عاث الفرنج فسادا في نواحي حوران، فعزم نور الدين على الخروج لقتالهم،

«... وهو مع ذلك كاف أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في الضياع، وأمر بإحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم...». هذا النص يكشف عن أن الفلاحين كانوا تحت عبء ثقيل بدليل أن نور الدين محمود طلب من الأمراء أن يخففوا عنهم، ويحسنوا الرأي فيهم. وفي تقديرنا أن مثل هذا الأمر لا يصدر عن نور الدين إلا إذا كان هناك ما يستوجب إصداره. وعلى أي حال، فإن هناك أدلة عديدة على سوء أحوال الفلاحين آنذاك.

وعلى الرغم من الانتعاش المؤقت الذي شهدته الزراعة في بعض المناطق الإسلامية والصليبية، لا سيما في القرن الثاني عشر الميلادي،(75) إلا أن الآثار السلبية للحروب الصليبية كانت على المدى الطويل كارثة على الزراعة والإنتاج الزراعي في مصر وبلاد الشام على السواء. فقد كانت العمليات العسكرية من الجانبين سببا في خراب مناطق كثيرة. فقد ذكر ابن جبير- الذي زار المنطقة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي-أن الطريق من حمص إلى دمشق كان خرابا مهجورا «... قليل العمارة إلا في ثلاثة مواضع أو أربعة...».(76) ومن الواضح أن مناطق كثيرة خربت زراعتها بحيث أضطر الفلاحون إلى النزوح للمدن حيث يجدون الخبز من خلال العمل في أي حرفة متدنية، وحيث يجدون الأمان داخل أسوار تلك المدن.(77) ولدينا عديد من الأمثلة على نهب الريف خلال زحف الجيوش وأثناء القتال.(78) وقد أدى ذلك إلى تدهور الإنتاج الزراعي. ومنذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي حتى عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقداري (658-676 هـ/ 1260-1277م) عانت بلاد الشام أوقاتا عصيبة بسبب نقص الإنتاج الزراعي، وتعرضت مناطق عديدة لخطر المجاعة أكثر من مرة. وقد كان للإجراءات الأمنية الهائلة التي قام بها بيبرس أثرها الفعال في عودة الاستقرار، وزيادة الإنتاج الزراعي في مناطق الحدود في بلاد الشام وأعالي الفرات.(79)

ومن ناحية أخرى كانت للتنظيم الإقطاعي العسكري آثاره السلبية على المدى الطويل، ولا سيما بعد التعديلات الجوهرية التي جرت على النظام الإقطاعي المملوكي في عصر الناصر محمد بن قلاوون الذي حكم ثلاث مرات، آخرها وأهمها في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، إذ أصبح الإقطاع الواحد موزعا في أقاليم مختلفة من

البلاد. والأهم من ذلك أن الإقطاع صار يتغير بتغير وظيفة صاحبه.[80] والراجح أن السلاطين كانوا يقصدون من وراء هذه السياسة عدم التمكين لنفوذ الأمراء إذا استقروا فترة طويلة في إقطاعياتهم. وهو ما نجحوا فيه بالفعل. ولكن هذه السياسة أثبتت أنها كارثة على الاقتصاد الزراعي خاصة، وعلى الكيان الاقتصادي والسياسي للدولة عامة. ذلك أن صاحب الإقطاع، الذي كان يعلم مسبقا أنه لن يستمر في حوزته زمنا طويلا، لم يكن يولي الأرض الزراعية أي اهتمام أو رعاية حقيقية. ومع إهمال وسائل الري والصرف تضاءلت إنتاجية الأرض. وأصبحت العلاقة بين صاحب الإقطاع والفلاحين علاقة نهبية بكل المقاييس.[81] وكان لتدهور الإنتاج الزراعي، وتدني أحوال الفلاحين أثرهما السلبي على النظام الإقطاعي العسكري الذي قامت عليه دولة سلاطين المماليك. وهكذا، فإن التنظيم الإقطاعي الذي قام على أساس أن الأرض الزراعية مصدر الثروة والقوة العسكرية اللازمة لتعبئة الجيوش اللازمة لمواجهة الصليبيين كان سببا في إنهاك موارد هذه الأرض الزراعية، وقد أدى ذلك بدوره إلى هز أركان النظام الإقطاعي. وقد أدت هذه التفاعلات الجدلية السلبية في نهاية الأمر إلى سقوط دولة سلاطين المماليك.

وقد عرفت بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية عددا من الصناعات والحرف التي اكتسبت لنفسها شهرة تاريخية في العالم المعروف آنذاك.[82] إذ عرف العالم من منتجات الشام الورق، والسكر، والزجاج، والخزف، والقيشاني، وصناعة الأثاث، إلى جانب صناعة النسيج، والأقمشة الشهيرة، والعقاقير، والعطور، والخمور، والنبيذ. وقد انتعش بعض هذه الحرف في القرن الثاني عشر الميلادي واكتسب قوة إضافية حين فتحت أمامه أسواق جديدة. وتوسعت أسواقها القديمة بفضل نشاط الجاليات التجارية الإيطالية في مدن القطاع الصليبي. كذلك فإن صياغة الذهب والفضة، وصناعات الحديد والأسلحة، والجلود، والصابون والسجاد انتعشت على نحو لم يسبق له مثيل إبان ازدهار الكيان الصليبي في القرن الثاني عشر الميلادي، والهدوء النسبي الذي ساد في عصر خلفاء صلاح الدين الأيوبي.

ولكن العمليات العسكرية العنيفة التي جرت في عصر صلاح الدين الأيوبي، ثم تدهور الكيان الصليبي تحت ضربات بيبرس وقلاوون وابنه

الأشرف، جعلا الإيطاليين ينقلون عددا من هذه الصناعات إلى بلادهم، ولم يلبثوا أن تفوقوا في بعضها، وأصبحوا مصدرا هاما من مصادرها في التجارة العالمية. إلا أن صناعة النسيج الشامية ومنتجاتها ظلت طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين تسيطر على الأسواق الخارجية، ولم تعان أي منافسة إيطالية قبل القرن السادس عشر. وربما يمكن تفسير ذلك في ضوء الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي نعمت به بلاد الشام خلال الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك.

أما التجارة فكانت المجال الذي تجلت فيه الآثار السلبية للحروب الصليبية في أوضح صورها. فحتى بداية الحروب الصليبية كانت التجارة بين الشرق وأوروبا تسير في اتجاه واحد تقريبا لصالح الشرق. ولكن نجاح الحملة الصليبية الأولى ترتب عليه أمران غاية في الأهمية، أولهما: أن كل موانئ الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط صارت تحت سيطرة أوروبا حتى سنة 1187م عندما نجح المسلمون بقيادة صلاح الدين في استرداد معظم مدن الساحل. ثم بقي بعض الموانئ بيد الصليبيين، وأهمها عكا التي كان سقوطها سنة 1291 م نهاية الوجود الصليبي قي المنطقة العربية، وثانيهما: تأسيس الأحياء التجارية في المدن التي استولى عليها الصليبيون، وما نتج من ذلك بالضرورة من تعاظم النفوذ الإيطالي، ثم الأوروبي عامة، في التجارة العالمية على حساب التجار المسلمين. وعلى الرغم من الازدهار التجاري الذي شهدته بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، وعلى الرغم من ازدهار مدن كثيرة بفضل التجارة داخل بلاد الشام[83] آنذاك إلا أن تعاظم الدور الأوروبي في التجارة العالمية في البحر الأبيض المتوسط، ثم في التجارة العالمية بعد ذلك، قد جاء على حساب التجارة والتجار المسلمين، وخصص من دورهم الذي كان هو الدور الأكبر في التجارة العالمية حتى ذلك الحين.

لقد استولى الصليبيون على موانئ الساحل الشرقي للمتوسط خلال فترة النمو والتوسع التي أعقبت نجاح الحملة الأولى، واستخدموا هذه الموانئ من الناحيتين العسكرية والتجارية معا. وكانت عكا هي أهم موانئ التجارة العالمية والداخلية في بلاد الشام طوال تلك الفترة.[84] ولم تكن التجارة العالمية في المناطق الصليبية قاصرة على عكا بطبيعة الحال، فقد كانت مدينة صور[85] مدينة تجارية هامة جاءت بعد عكا في مكانتها التجارية.

كذلك لعبت كل من طرابلس، وبيروت، واللاذقية، وصيدا دورا هاما في الانتعاش التجاري للكيان الصليبي، كما وجدت في كل منها جالية إيطالية كبيرة. وقد لعب الإيطاليون دورا هاما في تنشيط الصادرات والواردات بفضل الحريات والمزايا الكبيرة التي تمتعوا بها في سائر المدن الصليبية.[86]

وقد استثمر الإيطاليون أموالا جمة في التجارة عبر موانئ بلاد الشام، ثم خرجوا إلى الإسكندرية التي سمحت لهم السلطات المصرية بالإقامة فيها بقصد تشجيع التجارة.[87] ولأن طبيعة هذه الدراسة لا تسمح بالتفاصيل فإننا نود أن نشير في سرعة إلى أن مصر ظلت طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين تتحكم في تجارة العبور ما بين أوروبا، والهند، والمنطقة العربية، على الرغم من أن بعض منتجات الهند قد بدأت بالفعل تتسرب عبر ميناء عكا إلى أوروبا. وفي نهاية الأمر كان لابد للمسلمين من أن يفسحوا مكانا في تجارة البحر المتوسط للقوى التجارية الأوروبية النامية. وسرعان ما أخذت هذه القوى تكبر على حساب المسلمين. ومنذ القرن الخامس عشر الميلادي أخذت العملات التي تصدرها الجمهوريات التجارية تسود الأسواق المحلية في مصر والشام.[88]

لقد ازدهرت إلى التجارة الداخلية والخارجية في عصر الحروب الصليبية بسبب حرص كل من المسلمين والصليبيين على الموارد التي توفرها لهم عائدات التجارة. وقد لفت انتباه الرحالة المسلم «ابن جبير» أن «اختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك، « ... والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب...».[89]

بيد أن خروج الصليبيين من بلاد الشام لم يكن يعني نهاية الدور الأوروبي في التجارة العالمية، وإنما نقل نشاطهم إلى مناطق أخرى، كما أنه لم يؤد إلى قطيعة تجارية مع دولة سلاطين المماليك، بل إن حجم التجارة، وعدد الجاليات التجارية زادا في المناطق الخاضعة لهذه الدولة. وعندما بدأت علامات الضعف والتدهور تضرب داخل جسد هذه الدولة منذ القرن الخامس عشر الميلادي-لأسباب عديدة متشابكة-زادت سيطرة الأوروبيين على التجارة العالمية. ومن الجدير بالذكر أن القرن الخامس عشر الميلادي قد شهد بداية المحاولات الأوروبية للسيطرة على تجارة البحر الأحمر،

وتجارة المحيط الهندي أيضا.

على أي حال، فإننا نرى أن الاستجابة الاقتصادية للحروب الصليبية كانت كارثة على العالم العربي. حقيقة أن آثارها السلبية لم تظهر عقب خروج الصليبيين في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، ولكن القرن الخامس عشر الميلادي قد شهد تجسد هذه الآثار في انهيار الإنتاج الزراعي، وما ترتب عليه من تفسخ النظام الإقطاعي العسكري الذي تمت صياغة الدولة على أساسه، وتزايد معدل الاعتماد على الضرائب بالشكل الذي أدى إلى تدهور الحرف والصناعات، وخراب الأسواق، وضمور التجارة الداخلية. وعندما تحول المماليك إلى التجارة الخارجية، ثم احتكرها السلاطين منذ عهد برسباي، كان ذلك تعبيرا عن إفلاس الأساس السياسي/ الاقتصادي الذي بنيت عليه الدولة المملوكية. وجاء انهيار العملة تجسيدا للوضع المتردي الذي لم يلبث أن انكشف بوضوح عند الصدام بين دولة سلاطين المماليك المتهاوية والدولة العثمانية التي كانت في طور صعودها وفتوتها.

كانت الحروب الصليبية صداما عسكريا ومواجهة حضارية طويلة مضنية بين الشرق العربي الإسلامي والغرب الأوروبي الكاثوليكي. وقد بدأت هذه المواجهة في وقت كانت الحضارة العربية الإسلامية قد بلغت أقصى مراحل نضجها وتطورها. وفي خضم الصراع تجلت عوامل الضعف في العالم العربي الإسلامي، وتجلت في الوقت نفسه عوامل القوة التي ساعدته على الصمود أمام الغزوة الصليبية والانتصار عليها. وإذا لم تكن الحروب الصليبية هي السبب في توقف الحضارة العربية الإسلامية وجمودها فإن تلك الحروب، التي استمرت أكثر من قرنين من الزمان، كانت من أهم عوامل استنزاف قوى الدفع الإبداعية في الحضارة العربية الإسلامية ثم جمودها الذي أدى إلى تخلف المنطقة العربية، إذ كان على العالم العربي أن يحشد كل طاقاته وإمكاناته البشرية، والاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، والاجتماعية، والثقافية جميعا في مجال العمل العسكري، أو العمل المعنوي والثقافي المصاحب للحرب. وهكذا، تعين على المنطقة العربية أن تعيد صياغة كل حياتها على أساس أن الحرب هي محور هذه الحياة. وعلى الرغم من هذا كله فإن العالم العربي لم يكن قد دخل، بعد، في منحنى التدهور، إذ كان المستقبل لا يزال يحتفظ للحضارة العربية الإسلامية ببعض

من أهم إنجازاتها الاقتصادية والعسكرية والثقافية.

وإذا كنّا قد عرضنا في الصفحات السابقة لتأثير الحروب الصليبية في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية فإنه يبقى لنا أن نحاول عرض الخطوط العريضة لهذا التأثير في مجال الحياة الفكرية والثقافية. ونحن هنا نهتم بالثقافة في معناها الحقيقي الواسع ؛ آداب المجتمع وفنونه، فكره وفلسفته، مثله وقيمه التي دارت من حولها أشكال التعبير الفكري، وألوان الإبداع الأدبي والفني التي تضمنتها الفنون الشعبية، بأنماطها التشكيلية والقولية.. وما إلى ذلك.

وربما يكون من المفيد أن نؤكد أن النتائج والآثار الفكرية والثقافية، التي تنتج من الحروب في مجتمع ما، لا تظهر بين عشية وضحاها من ناحية، كما أنها لا تختفي بمجرد انتهاء الحرب من ناحية أخرى. ولكن هذه التأثيرات تتخذ لنفسها شكل تيار اجتماعي/ ثقافي مستمر ومتصاعد، بحيث يتبلور من خلال إبداعات أبناء هذا المجتمع في فنونه وآدابه ؛ سواء منها الإنتاج الراقي المكتوب، أو ذلك التيار الشعبي مجهول المؤلف الذي يعبر عنه عادة بالآداب والفنون الشعبية.

لقد اقترنت جهود توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين بجهود أخرى لإعادة نشر المذهب السني، وتأسيس المدارس لتدعيم هذا المذهب في مواجهة الدعوة الشيعية. وكان فشل الخلافة الفاطمية الشيعية في فهم حقيقة الحركة الصليبية من جهة، ثم إخفاق هذه الخلافة في جهودها العسكرية ضد الصليبيين من جهة أخرى من أهم عوامل بروز الجهود السنية على محور الموصل/ حلب. ثم جاءت نهاية الخلافة الفاطمية في خضم الصراع الإسلامي/الصليبي تجسيدا لانتصار المذهب السني على منافسه الشيعي. وأسس صلاح الدين المدارس في بيت المقدس، والشام، والقاهرة، والإسكندرية لتدعيم المذهب السني ومحاربة التشيع، ثم قرن ذلك بتقريب علماء السنة[90] الذين كانت عليهم مهمات أخرى هي شحن روح الحماسة في نفوس المسلمين للدفاع عن بلادهم ودينهم ضد الصليبيين.

ومن أولئك العلماء السنة خرج أرباب الأقلام الذين تولوا الوظائف العليا في الدولة الأيوبية، وخرج القضاة، والمدرسون الذين كانوا يعقدون حلقات دروسهم في أروقة المدارس السنية التي انتشرت في كل مكان.

وغالبا ما كانت الدولة تقربهم بسبب نفوذهم الواسع على عامة الناس.[91] وكان صلاح الدين الأيوبي نفسه شديد الكلف بعلوم الدين، وكان يذهب بنفسه لسماع الدروس من أفواه أشهر العلماء.[92] لقد كان صلاح الدين مهتما بإعادة المذهب السني، ولذلك قاوم أي محاولة تصور أنها يمكن أن تعوق حركته في هذا الاتجاه الذي كان يعتقد أنه طريق التعبئة المعنوية اللازمة لضرب الوجود الصليبي. وربما يمكن تفسير قتل «السهروردي المقتول» بأمره، وبيع كتب مكتبة القاهرة الفاطمية[93] في ضوء حماسة صلاح الدين الغامرة للمذهب السني، بيد أن ذلك لا ينفي أن هذين الإجرائين كانت لهما آثار بعيدة المدى في جنوح الحياة الفكرية والثقافية إلى المحافظة

لقد كانت النشاطات الفكرية والثقافية في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي مرآة صادقة على الحضارة العربية الإسلامية، إذ تجلت فيها كافة الخصائص والقسمات التي ميزت تلك الحضارة آنذاك. فباستثناء الغزالي لم يشهد ذلك القرن مفكرا من الطراز المبدع الذي عرفته القرون السابقة في تاريخ الثقافة والفكر العربي الإسلامي، بل إن الغزالي نفسه كان دارسا للفلسفة، واستخدم دراسته في هدم الفلسفة على حد تعبير أحد الباحثين.[94] وكان الاتجاه العام للتيارات الفكرية يسير نحو تأمل ما أنجزه السابقون ومحاولة شرحه وتبسيطه، أو تجميعه.

وفي تقديرنا أن ذلك كان يعكس حال حضارة وصلت إلى أقصى نمو وتطور، وعندما بدأت تستقر لتجني ثمار إنجازاتها الثقافية والفكرية فوجئت بهجوم أتباع دين آخر يهددون وجودها ذاته. ولذلك صار النشاط الثقافي في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي موجها نحو الحفاظ على التراث الفكري المجيد أكثر منه نحو المشاركة في إثراء هذا التراث. ولم تبد في هذا القرن بادرة حقيقية تدل على الإبداع والتجديد اللذين ميزا حركة الثقافة العربية الإسلامية قبل هذا القرن. وبدأ العلماء يتجهون نحو التجميع والتركيب بدلا من الابتكار-والإبداع والتجديد. وظهرت في هذا العصر مؤلفات ضخمة ذات طبيعة موسوعية، أو شروح وتفسيرات جامعة، أو كتب تبسط العلوم وتختصرها مثل: تفسير القرآن الكبير للفخر الرازي، وكتاب «المبسوط» للسرخسي، و «بدائع الصنائع» في الفقه للكاساني،[95] وما إلى ذلك.

وفي عصر سلاطين المماليك تزايد اعتماد السلاطين على أهل العمامة من علماء الدين والفقهاء باعتبارهم واجهة شرعية للحكم، كما تزايد تدعيم الاتجاه المحافظ في الفكر والتأليف، بل إن مفكرا سلفيا مثل «ابن تيمية» تعرض لمحنة كبيرة لأنه أراد الرجوع بالفكر الإسلامي إلى بساطته الأولى- ولم يطرح اتجاها فلسفيا أو عقليا جديدا-في مواجهة تيار المحافظة والاجترار الذي أدى إلى الجمود. وقد ارتبط أهل العمامة ارتباطا وثيقا بالدولة المملوكية،[96] وجنحت آراؤهم إلى تملق الدولة وتبرير أفعالها-على الرغم من ظهور بعض المواقف المعارضة في بداية ذلك العصر على نحو خاص-. وكانت النتيجة تصاعد الاتجاه الاجتراري والتبريري، بل إن مجالس السلطان الغوري، مثلا، تكشف عن عقم الحياة الفكرية، لأن الفقهاء كانوا يتبارون في حل مسائل فقهية مستحيلة على سبيل الرياضة العقلية، وكأنهم فرغوا من حل مشكلات زمانهم المتأزمة. ولكنهم وجدوا في اجتهادات الأئمة الأربعة مخزنا لا ينضب لحلول تقليدية في أمور غير تقليدية.

وفي ذلك العصر تصاعد الاتجاه نحو التجميع، والتأليف الاجتراري، والشروح، والمبسطات وشروح الشروح. وغالبا ما يكون هذا الاتجاه علامة على التوقف الفكري والجمود الذي يعتري حضارة من الحضارات. وعلى الرغم من أن الموسوعات والمؤلفات الشاملة-مثل: «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» للعمري، «ونهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري»، و «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» للقلقشندي-قد حفظت لنا تراثا فكريا مجيدا في كافة نواحي الحياة إلا أن هذا النمط من التأليف التجميعي، الذي لا يقوم على الابتكار، كان انعكاسا لظروف الحضارة العربية الإسلامية التي كانت تعيش عصره الأخير، وتحاول الدفاع عن نفها ضد الهجوم الذي واجهته في القرون الحادي والثاني عشر والثالث عشر الميلادية من جانب الصليبيين، وضد الخطر الذي واجهته بشكل مؤقت من الغزو المغولي في القرن الثالث عشر الميلادي، وضد الهجوم الأوروبي المستمر في الأندلس، ثم محاولة الالتفاف حول المشروعات الصليبية المتأخرة في القرن الخامس عشر الميلادي. لقد كانت هذه الموسوعات، والمعجم التي جمعت مفردات اللغة العربية (مثل: «لسان العرب» لابن منظور، «والقاموس المحيط» للفيروز البادي) تعبيرا عن رغبة في الحفاظ على الذات الحضارية التي يتهددها

الهجوم من كل مكان. فقد كان هدف الموسوعات والمعاجم جمع شتات الإنجازات الفكرية للحضارة العربية بقصد حفظها من الضياع. لقد كانت الحضارة العربية الإسلامية في حال الدفاع عن الذات، وأراد أبناؤها لم تراثها وحفظه.

وفي هذا العصر تجسد «السلف الصالح» مفهوما اجتماعيا/ ثقافيا، وصار البحث في تراث السلف الصالح من الفضائل الثقافية آنذاك. وظهرت تجليات هذا التوجه في سيادة الاتجاه المحافظ الذي لم يلبث أن تحول إلى التأليف التجميعي والاجتراري. وفي عصر سلاطين المماليك باتت مصر هي المعقل الأخير للحضارة العربية الإسلامية، ولذلك توافد عليها اللاجئون من العلماء والفقهاء الهاربين من الظروف السياسية والاجتماعية المتردية في مشرق العالم الإسلامي ومغربه. واتجهت أعمال أغلبية أولئك العلماء إلى جمع الموسوعات الضخمة التي لم تترك صغيرة ولا كبيرة دون تدوين.[97]

وعلى الرغم من التدهور الثقافي العام إلا أن حركة التدوين التاريخي كانت مزدهرة بشكل لافت للنظر. ففي ذلك العصر وصلت الكتابة التاريخية إلى أرقى مستوى وصلت إليه في تاريخ الفكر العربي. وكان ذلك العصر بمثابة المعرض الحي لمدى التنوع والثراء الذي وصل إليه التدوين التاريخي.[98] بيد أن هذا التوهج الأخير شابته ظاهرة لافتة للنظر وهي ظاهرة «الذيول»، أو التأليف استكمالا لكتاب آخر مشهور، وربما يكون السبب في ذلك أن مؤلفي هذه الكتب «الذيول» كانوا يرغبون في ضمان الرواج لأنفسهم ولكتاباتهم بنسبتها إلى كتاب مشهور مثلما فعل السخاوي عندما ألف كتاب «التبر المسبوك في ذيل السلوك» ليكون منسوبا إلى كتاب المقريزي الشهير «السلوك لمعرفة دول الملوك». وربما يكون الاتجاه المحافظ الذي ساد الحياة الفكرية وراء مثل هذه الظاهرة. وعلى أي-حال، فقد عكست هذه الظاهرة جانبا هاما من جوانب الروح المحافظة، والسمة الاجترارية للتأليف آنذاك.

ولأن الشعراء والأدباء والمفكرين الرسميين انصرفوا إلى محاولات حفظ التراث، أو جمعه، أو شرحه، أو تكراره، ولأن معظمهم أصبحوا من أبواق الدعاية والتبرير لتعبئة الناس حول قائد بعينه، أو للترويج لاتجاه أو لآخر؟ فقد فشل الأدب الرسمي في الإجابة عن تساؤلات كثيرة طرحها عامة

الناس حول عجز الحكام، ونجاح الصليبيين ؛ على الرغم من أنهم كانوا أقل عددا وعدة، وعلى الرغم من أنهم كانوا أقل شأنا في المفهوم الشعبي. أليس المسلمون هم أتباع الدين الحق؟ فلماذا كانت الهزيمة وانتصار الفرنج الكفرة؟

لقد فشل الحكام ودعاتهم في تفسير هذه التناقضات، كما فشلوا في تبرير عجزهم عن دحر الصليبيين طوال هذه السنوات الطوال. ولذلك تبلورت تيارات شعبية أخذت تعبر عن رؤيتها الوجدانية، وتفسيرها النفسي/ التعويضي لأحداث التاريخ. ومع مرور الوقت بدأ الأدب الشعبي والفن الشعبي يطرحان نفسيهما بديلا من الأدب الرسمي الذي ناله الجمود والاجترار. وقدم الأدب الشعبي من خلال الشعر، والزجل، والبلاليق (أبيات من الشعر)، ومن خلال السيرة، والحكاية، والنادرة الإجابات الفنية التعويضية عما طرحه الناس من تساؤلات محيرة مضنية.

وعلى الرغم من نجاح المسلمين النهائي في طرد الصليبيين من المنطقة في أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي إلا أن ذلك تم تحت مظلة النظام الإقطاعي العسكري الذي أفرز نظما سياسية سرعان ما تسلطت على الناس عندما انتهت من أداء دورها التاريخي في التصدي للصليبيين. وقد أدى ذلك إلى تمرد الناس على سلطة المماليك، وبدأت مقاومتهم للمماليك تتصاعد في الوقت الذي ازدهر الأدب الشعبي، والفنون الشعبية.

ففي ذلك العصر الذي شهد أول هزيمة كبرى للمسلمين في تاريخهم، والذي شهد خطرا استيطانيا يقتطع أجزاء من قلب المنطقة العربية، شاعت أنباء الرؤى والأحلام التي يرى النائم فيها النبي عليه الصلاة والسلام، أو الخضر، أو أحد أولياء الله الصالحين. وغالبا ما كانت هذه الرؤى والأحلام مرتبطة بالحرب والجهاد ضد الصليبيين.(99) كذلك كانت هذه الرؤى والأحلام تعبيرا عن الآمال التي تجيش في نفوس الناس حيال واقعهم المرير. وطفق المتعلمون يتكلمون عن القيامة وعلاماتها، ويتناقشون حول الجنة ونعيمها. وازداد تأثير طرق الدراويش في ثقافة المجتمع، فشاعت أخلاقيات الحزن والاستسلام، والاعتقاد في الخوارق والمعجزات، والاعتقاد وهو ما تكشف عنه تلك الطائفة الكبيرة من أخبار الخوارق والكرامات والخرافات التي تداولها مؤرخو تلك الفترة باعتبارها حقائق تاريخية. لقد

بث الناس همومهم وأحزانهم في أنماط الأدب الشعبي الذي اختاروه وعاء لأمانيهم وأحلامهم، وإطارا لأفكارهم ورغباتهم.

ففي مجال الشعر ظهرت «النبويات»، وهي قصائد مطولة كتبت في غرض جديد هو الاستغاثة بالرسول، والتوسل إليه برفع المعاناة.(100) كما تجلت هذه الظاهرة أيضا في مجال القصص الشعبي الذي كان القصاصون يلقونه على مسامع الناس في محافلهم وأنديتهم فيطربون لما تحمله هذه القصص في ثناياها من أحداث وشخصيات تحمل لهم التعويض من واقعهم البائس، وتوفر لهم الأمل، وتنتقم لهم من رموز الظلم.(101)

وحكايات «ألف ليلة وليلة» تحمل أصداء هذه التأثيرات التي تركتها الحروب الصليبية في العالم العربي في الجانب الثقافي. والحكايات التي تدور حول الحروب الصليبية في «ألف ليلة وليلة» ثلاث حكايات تستغرق أكثر من مائتي ليلة، وهي: 1- حكاية الملك نعمان وولديه شركان وضوء الزمان، 2- حكاية على نور الدين ومريم الزنارية، 3- حكاية الصعيدي وزوجته الفرنجية(102) لقد سربت الحروب الصليبية بعض أحداثها ووقائعها إلى حكايات «ألف ليلة وليلة»، وفيها نرى التفاعل بين الفن الشعبي والتاريخ. لقد لجأ الفنان الشعبي إلى التعويض من خلال هذه الحكايات لكي يتجاوز الواقع المؤلم بحدوده المكانية، وأطره الزمانية، صوب اللامحدود زمانا ومكانا، ولكي يطرح للناس ما تحتاجه عقولهم وعواطفهم من تعويض. لقد جسدت البعد البطولي في تصور الناس، كما جسدت البعد الديني أيضا في البطل الشعبي من ناحية، كما كشفت عن الكراهية والمرارة تجاه الفرنج الصليبيين من ناحية ثانية، وعبرت عن آمال الناس ورؤيتهم للأحداث من ناحية ثالثة.

وحكايات «ألف ليلة وليلة» نموذج ينسحب على السير الشعبية، وعلى سائر أنماط الأدب الشعبي التي أنتج عصر سلاطين المماليك الجزء الأكبر منها، والتي عوضت ذلك العجز والجمود الذي ميز الحركة الفكرية الرسمية آنذاك.

لسنا ندعى أن هذا هو كل حصاد التجربة الصليبية في التاريخ العربي، لكننا حاولنا، قدر الطاقة، أن نشير في إيجاز ووضوح إلى معالم رئيسة في هذا الموضوع الذي يستحق دراسة قائمة بذاتها. بيد أن أهم ما لفت نظرنا في معالجتنا لتأثيرات الحروب الصليبية في العالم العربي أن الفصل بين

تفاعلات الاقتصاد والسياسة، والاجتماع والثقافة، أمر يقرب من الاستحالة، فضلا عن أنه يمكن أن يؤدي إلى متاهات ضبابية، كما يمكن أن يفتت الظاهرة التاريخية إلى شذرات متناثرة لا تفيد شيئا. والأهم من ذلك، في تصورنا، أن رصد هذه التأثيرات يكشف عن مدى ما ينتج من استجابات في مجتمع يتعرض لعدوان يتهدد وجوده ذاته من ناحية، وما ينتج عن فشل الإدارة العسكرية لمجتمع مدني بعد زوال الخطر الذي يتهدده من ناحية ثانية. وهذا هو ما يجعل الحركة الصليبية وتأثيرها في العالم العربي جديرة بالدراسة والتأمل.

المراجع

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، جـ2، (تحقيق الدكتور محمد حلمي، القاهرة، 1971)، ص 232- 234، ص 236- 237، ص 257. ويعلق المقريزي على هذا بقوله « ... وهذه الحادثة كانت آخر سعادة الدولة الفاطمية، فإن الشام خرجت من أيديهم بعد قليل للاستيلاء الترك عليها، ولم يبق بيدهم غير مصر خاصة». انظر أيضا : ابن ميسر، أخبار مصر (نشره هنري ماسيه، القاهرة، 1919)، جـ 2، ص 8، ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (طبعة دار الكتب المصرية)، جـ 5، ص 11-12، راجع الفصل الثاني من هذه الدراسة.

(2) راجع الفصل الثالث من هذه الدراسة.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 189.

(4) المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، جـ 2، ص 265- 267. ويضع المقريزي عنوانا له دلالته على هذه الحادثة هو: «ذكر ابتداء الفتنة التي آلت إلى خراب ديار مصر». وقد استمرت هذه الأحداث عدة سنوات، وأدت إلى ضياع هيبة الخليفة المستنصر، إذ يذكر المقريزي في حوادث سنة 460 هـ ما نصه: «اشتد البلاء على المستنصر بقوة الأتراك عليه، وطمعهم فيه، فانخرق ناموسه، وتناقصت حرمته، وقلت مهابته 000». انظر: المصدر نفسه، جـ 2، ص 275.

(5) هناك روايات عديدة في المصادر التاريخية تحكي عن تعاظم قوة الوزراء على حساب الخلفاء الفاطميين، ففي حديثه عن الخليفة الحافظ الفاطمي ذكر ابن الأثير أن وزيره الأفضل كان صاحب السلطة« ... وبقى الحافظ اسم لا معنى تحته...». «انظر: الكامل في التاريخ جـ 8، ص 332: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ص 228- 229 ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، جـ 3، ص 11، حيث يذكر كيفية جلوس المستعلي على عرش الخلافة الفاطمية» «وذلك أن الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي عندما مات المستنصر بادر إلى القصر وأجلسه ولقبه بالمستعلي، وبعث فاحضر إليه نزارا، وعبد الله، وإسماعيل، أولاد المستنصر، فأمرهم الأفضل بتقبيل الأرض.. .»».

(6) قبل قيام دولة عماد الدين زنكي كانت ثمة محاولات سلجوقية لتوحيد الجهود ضد الفرنج أخطرها ما قام به مودود أمير الموصل في مطلع القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، بيد أن اغتياله سنة 507 هـ/ 1113م أوقف هذه الجهود-انظر:

ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 266 ؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 187- 188؛

Fulcher de Charters, pp. 205- 9; William of Tyre, II, pp.493- 9.

راجع الفصل الثالث من هذه الدراسة.

(7) عن دولة عماد الدين زنكي ودوره في قتال الصليبيون، انظر:

Gibb, <Zengi and the Fall of Edessa> in Sutton, I, pp.449- 6.

وعلية الجنزوي، إمارة الرها الصليبية، ص 301- 308.

(8) راجع تفصيلات هذه الأحداث في الفصل الثالث.

(9) عن صلاح الدين الأيوبي وحياته راجع:

ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين، (تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، 1964)، الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، (تحقيق محمد محمود صبح، القاهرة، 1965) ؛ أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (طبعة دار الحبل-بيروت)، جـ 1، ص 164-279، جـ 2، ص 1- 245 ؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 41-114 ؛ ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ 5، ص 381-389.

وهناك دراسات عديدة بالعربية واللغات الأجنبية عن صلاح الدين.

(10) في سنة 570 هـ كتب صلاح الدين إلى الخليفة العباسي في بغداد يعدد فتوحاته وجهاده للفرنج، وإعادته الخطبة العباسية بمصر. و «طلب من الخليفة تقليده مصر واليمن والمغرب والشام، وكل ما يفتحه بسيفه، فوافته بحماة رسل الخليفة المستضيئ بأمر الله، بالتشريف، والأعلام السود، وتوقيع بسلطنة مصر والشام وغيرهما» المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 59- 60 ؛ أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، جـ 1، ص 241، وقد تكرر هذا الأمر كثيرا طوال محاولات صلاح الدين توحيد المنطقة تحت حكمه.

(11) يتضح من الأحداث التي سبقت معركة حطين وحتى نهاية حياة صلاح الدين أنه كان يكتب «إلى الجهات باستدعاء الأجناد للجهاد» قبل كل معركة كبيرة. راجع: ابن شداد، النوادر السلطانية، في صفحات كثيرة متفرقة من الكتاب ؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 92- 93، ص 95- 96، ص 99، ص 02 1، ص 103.

(12) ذكر أبو شامة عبارة هامة في هذا الصدد (جـ 2، ص 177) نصها: «... فقد أنفق المولى (يقصد صلاح الدين) مال مصر في فتح الشام، وأنفق مال الشام في فتح الجزيرة، وأنفق مال الجميع في فتح الساحل...».

(13) راجع الفصل الثالث. وأيضا:

Hamilton A. R. Gibb, <The Ayyubids>, in Setton, II, pp.6- 714.

(14) عن المماليك البحرية ودورهم في تلك الفترة، انظر:

أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، (بيروت، 1986) ص 96- 100.

(15) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك،جـ 1، ص 259-260.

(16) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 422- 434 ؛ أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص 145- 172؛

Claude Cahen, “The Mongols and the Near East”, in Setton, II, pp.715-732.

حيث يناقش غزوهم وهزيمتهم، ثم الدول التي قامت نتيجة وجودهم في المشرق الإسلامي.

(17) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 409-410.

(18) جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، (دار المعارف-القاهرة، 1967) ص 171-172.

(19) ابن أيبك الدوادار، الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، (تحقيق رويمر) ص 72- 80 ؛ النويري-نهاية الأرب في فنون الأدب (مخطوط بدار الكتب المصرية، برقم 549، معارف عامة) جـ28، ورقة 18؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ص 328-329.

وقد أورد المقريزي في كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 453-457) نص الوثيقة التي حصل الظاهر بيبرس بمقتضاها على تفويض من الخليفة العباسي.

قارن:

ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الطاهر (تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر،

الرياض، 1976)، ص 99- 115. وقد ضمن ابن عبد الظاهر كتابه نص التقليد الذي فوض به الخليفة العباسي المستنصر بالله السلطان الظاهر بيبرس، وأهم ما يلفت النظر فيه التكليف بالجهاد وحفظ الثغور.

(20) راجع الفصل الثالث.

(21) صدر الدين أبو الحسن، الدولة السلجوقية (نشر محمد إقبال، لاهور، 1923)، ص 68 ؛ الأصفهاني، دولة آل سلجوق (القاهرة، 1900) ص 55 ؛ أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص 75-77.

(22) R.C. Smail, Crusading Warfare, 1097- 1193, (Cambridge University Press, 1978),pp65-66

(23) انظر الفصل الثالث.

(24) ذكر المقريزي، في حوادث سنة 569 هـ أن نور الدين أرسل يطلب من صلاح الدين الحساب «... عن جميع ما أخذ من قصور الخلفاء وحصل له من الارتفاع 000» «فعرض على رسول نور الدين الأجناد وعرفه مبلغ إقطاعياتهم وجامكياتهم، ورواتب نفقاتهم، انظر: المقريزي السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ، ص 52.

راجع أيضا: أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، جـ 1، ص 57-58، ص 69، ص 89، حيث يورد بعض الأمثلة على كيفية استدعاء جيوش أصحاب الإقطاعيات ؛ انظر كذلك: ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأزبكية (تحقيق عبد القادر طليمات، القاهرة، 1963) ص 308.

(25) ابن مماتي، قوانين الدواوين (تحقيق الدكتور عزيز سوريال عطية)، ص 354- 355 ؛ وقد ذكر القلقشندي (صبح الأعشى في صناعة الانشا،جـ 2، ص 457) الجامكية بأنها رواتب نقدية عندما ذكر أن نفقة مماليك السلطان هي: «... جامكيات وعليف وكسوة وغير ذلك...». وهو ما يعني أن الجامكية كانت راتبا نقديا.

(26) انظر ما ذكره ابن شداد (النوادر السلطانية، ص 121-123) في حديثه عن توافد الجيوش الإسلامية أثناء أحداث الحملة الصليبية الثالثة. فقد ذكر وصول عماد الدين زنكي صاحب سنجار: «يجر عسكره»، ثم وصول معز الدين سنجر شاه صاحب الجزيرة «... وصل في عسكر حسن...»، ثم وصل علاء الدين ابن صاحب الموصل مسعود بن مودود، ثم وصول زين الدين صاحب أربل-انظر أيضا ص 126-127، حيث يورد تفصيلا للأمراء وجيوشهم الإقطاعية التي سارت للقتال عند وصول خبر الإمبراطور فردريك بربروسا إلى أراضي الدولة البيزنطية، قارن، أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، جـ 2، ص 150-151.

(27) الأمثلة كثيرة ومتواترة في المصادر على صدق هذا الفض، انظر مثلا: المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 82 حيث يقول: (ارتجع العادل عن إقطاعه بمصر، وهو سبعمائة ألف دينار في كل سنة، فجهز إليها الملك المظفر تقي الدين عمر ابن شاهنشاه بن أيوب، وأنعم على تقي الدين بالفيوم أعمالها مع القايات وبوش، وأبقى عليه مدينة حماة وجميع أعمالها.

انظر أيضا: هاملتون جب-دراسات في التاريخ الإسلامي، (حررها يوسف أيبش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1973)، ص 157-159.

(28) في العصر المملوكي الأول كانت أعداد المماليك الذين يشتريهم السلطان تصل إلى ثمانمائة في بعض الأحيان، ولكن التدهور الذي شهده عصر المماليك الثاني (الجراكسة) جعل الرقم ينخفض إلى حوالي ثلاثمائة مملوك في المتوسط. انظر:

قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي-عصر سلاطين المماليك (الطبعة الثانية-

القاهـرة، 1983)، ص 18.

(29) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص 146 وما بعدها ؛ ابن الصيرفي، إنباء العصر بأنباء العصر (تحقيق الدكتور حسن حبشي، القاهرة، 1970)، ص 23-24، ص 33-34، ص 43 ؛ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ 3 (تحقيق محمد مصطفى)، جـ 3، ص 20-23، ص 37 ؛ قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص 18-20.

(30) المقريزي، الخطط المقريزية، جـ 1، ص 80-94.

(31) انظر عن عبث المماليك في عصر الجراكسة:

ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ 3، ص 82، ص 93-94، ص 96-147 ؛ جـ 4، ص 12-13، ص 363، جـ 5، ص 4- 7، ابن الصيرفي، إنباء العصر بأنباء العصر، ص 33- 37 ؛ قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص 39-61 ؛ ص 140-142، ص 150-177.

(32) كانت للعرب عدة إمارات في مدن بلاد الشام منها إمارة بني عمار في طرابلس التي أخذها الصليبيون سنة 502 هـ/ 1109م بعد حصار دام سبع سنوات، وإمارة بني شيزر التي دمرها زلزال، ثم ضمها نور الدين محمود لأملاكه سنة 552 هـ/ 1157م. أما القبائل البدوية فقد عاشت على أطراف المناطق الزراعية، وفي الصحراء، ومنهم «بنوطي»، و «بنو كلاب»، و «بنو عقيل»، و «بنو عابد»، و «بنو فهيد»، و ج بنو أبى»، وغيرهم.

انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 53-55 ؛ أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار (تحقيق فيليب حتى، طبعة بيروت، 1981) ص جـ-ذ من المقدمة، ص 12- 14 ؛

Philip Hitti, "The Impact of the Crusades on the Moslem Lands", in: Setton, V, p. 33; Joshua Prawer, "Social Classes in the Crusader States , the Minorities", in Setton, V,pp.63- 64,65.

(33) راجع الفصل الثاني والثالث عن السلاجقة

(34) أحمد رمضان، المجتمع الشامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، (القاهرة، 1977)، ص 55، وعن المشكلات بينهم وبين التركمان انظر: ابر الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 170- 171.

(35) كتب عنهم الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي بعض هذه الأخبار المثيرة:

The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, (ed. and translated by. 61.Marcus N. Adler, (London, 1907), I,p.61.

(36) Fulcher de Charters, pp.137- 8,143,149.

(37) يتحدث «جاك دى فيتري» عن جنسيات المستوطنين الوافدين من أنحاء أوروبا، ثم يردف قائلا: إن هناك أمما كثيرة أخرى تختلف في العادات والتقاليد والديانات تعيش في الأرض المقدسة، ويعدد عناصر سكان بلاد الشام. انظر:

Jacques de Vitry, The History of Jerusalem, in P.P. T.S., (translated by Aubrey Stewart, London, 1896), IX, pp. 56- 58 Joshua Prawer, "Social Classes", p.60.

(38) The Itinerary, I, p.35.

(39) Josiah C. Russell, "The Population of the Crusader States", in Setton, V. pp.305- 306.

(40) عن نماذج المذابح الصليبية، انظر:

ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 136- 137، ص 141، ص 297- 298 ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 187- 188.

(41) Fulcher de Chartres, pp. 148- 9; William of Tyre, I, pp.507- 508; Jacques de Vitry, pp.2- 3.

(42) ذكر جاك دي فيتري أن الصليبيين، اعتادوا نهب حمص، وبعلبك، وحماة لكي يرغموا أهلها على دفع إتاوة لهم (Jacques de Vitry, pp.21- 22)

انظر أيضا رحلة أبن جبير، (طبعة بيروت) ص 228 عن خراب قنسرين، ص 232، حيث يتحدث عن تدهور حمص بسبب كثرة هجمات الفرنج عليها.

(43) أبن شداد، النوادر السلطانية، ص 235- 236 ؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 106- 107.

(44) Russell, op. cit., p.308.

(45) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 136- 141 ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 86، ص 87 ؛ William of Tyre,I,pp 429- 43, 437, 442.

(46) رحلة ابن جبير، ص 273- 275.

(47) William of Tyre, I, pp.507- 508.

(48) Fulcher de Charters, pp.123.

(49) Joshua Prawe, "The Settlements of the Latins in Jerusalem", in Speculum, XXVII, (1952), pp.491- 503.

(50) William of Tyre, II, p. 459; Joshua Prawer, "Social Classes," pp.52- 53.

(51) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص 81- 82، ص 93. حيث يتحدث عن عدة حالات لافتداء أسرى المسلمين الصليبيين.

كذلك ذكر ابن جبير أن الأسرى المسلمين في عكا كانوا «يرسفون في القيود، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد»، رحلة ابن جبير، ص 280. وعن الأسرى الصليبيين في المناطق الإسلامية، أنظر:

Urban Tignor Holmes,"Life among the Europeans in Palestine and Syria in the Twelfth and Thirteenth Centuries", in Setton, IV, pp.4- 5.

(52) ابن أيبك الدوادار، كنز الدرر وجامع الغرر، جـ 8، ص 361، المقريزي، الخطط المقريزية، جـ 1، ص 73، قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص 29- 30.

(53) Nabih Amin Faris, "Arab Culture in the Twelfth Century", in Setton, V, p.5.

(54) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص 153- 154.

(55) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 105- 106.

(56) ابن جبير، الرحلة، ص 276.

(57) انظر الفصل الثالث.

(58) Fulcher de Charters, pp.125- 6,143- 4,163- 4,174- 5,198.

حيث يتحدث عن نهب المناطق الريفية. وانظر أيضا المصدر نفسه:

pp.153- 5,167,195- 200.

في وصف المذابح وهروب السكان عقب استيلاء الصليبيين على كل من: قيصرية، وطرطوس، وعكا، وطرابلس، و بيروت، وصيدا، انظر:

CF. William of Tyre, I, pp.429,437,442- 3; Jacques de Vitry, pp.21- 22,56- 57.

ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 13.

(59) عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، (الطبعة الثامنة، القاهرة، 1968)، ص 95- 104.

(60) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 10.

(61) المصدر نفسه، ص 82 ؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 75.

(62) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، جـ 1 (دار المعارف، 1971)، ص 193- 217.

(63) المقريزي، الخطط المقريزية، جـ 2، ص 432- 433، سعيد عاشور المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص 162-175).

ويذكر المقريزي أيضا في حوادث سنة 655 هـ نصا معبرا عن مدى انتشار الأنماط المشعوذة من الصوفية ؛ إذ يقول: «وفيها قدم إلى دمشق الفقراء الحيدرية، وعلى رؤوسهم طراطير، ولحاهم مقصوصة، وشواربهم بغير قص. وذلك أن شيخهم حيدر لما أسره الملاحدة قصوا لحيته وتركوا شاربه، فاقتدوا به في ذلك، وبنوا لهم زاوية خارج دمشق، ومنها وصلوا إلى مصر»

السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 407.

(64) هو أبوحفص عمر بن علي بن الفارض (576 هـ/ 632 م). انظر عن حياته وشعره: عبد اللطيف حمزة، المرجع السابق، ص 123- 131، محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي (دار المعارف، 1968) ص 338-350.

(65) محمد سيد كيلاني، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام، (مطبعة دار الكتاب العربي، القاهرة، 1949)، ص 36- 37.

(66) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 2، ص 661- 662، الخطط المقريزية، جـ 2، ص 34، ص 169 ؛ السخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك (بولاق، 1315هـ)، ص 103- 104 ؛ سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص 228- 229؛ كيلاني، الحروب الصليبية وأثرها، ص 34- 51.

(67) المقريزي، الخطط المقريزية، جـ 2، ص 95 ؛ السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 2، ص 640- 641 ؛ ابن حجر، إنباء الغمر بأنباء العمر (تحقيق حسن حبشي، القاهرة 1969- 1972)، جـ 1، ص 127 ؛ ابن الصيرفي إنباء العصر بأنباء العصر، ص 205 ؛ نزهة النفوس والأبدان (تحقيق الدكتور حسن حبشي، 1974)، جـ 1، ص 168، جـ 3، ص 144 ؛ قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص 139- 140.

(68) William of Tyre, II, p. 459, and Pssim; Joshua Prawer “Social Classes”, in Setton, V, pp.52- 53.

(69) Fulcher de Charters, p.144.

(70) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص 82.

(71) Philip Hitti, “The Impact of the Crusades”, p.41.

(72) رحلة ابن جبير، ص 273- 275.

(73) Jean Richard, “Agricultural Condition in the. Crusader States”, in Setton,V,pp.253- 259.

(74) أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، جـ 1، ص 69- 70.

(75) Jean Richard, op. cit., pp.263- 264.

(76) ابن جبير، الرحلة، ص 233.

(77) ابن العديم، زبدة الطلب في تاريخ حلب (تحقيق سامي الدهان، دمشق، 1951)، جـ 2، ص 173.

(78) Fulcher de Chartres, pp.125- 126,143- 144,163- 164,174- 175,195,198- 200; William of Tyre, I, pp.,429,437,442- 443, Jacques de Vitry, pp.21- 22,56,57.

ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 13 ؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 235- 236 ؛ المقريزي-السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 106- 107.

(79) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص 93، وقد ذكر ابن عبد الظاهر أن بيبرس بلغ من اهتمامه بالزراعة أن بلغه وهو في غزة أن جماعة من الجمالين تعرضوا إلى الزروع «... قطع أنوفهم.» (ص 292) ؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، ص 557، ص 560 ؛ العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص 207- ص 213.

(80) المقريزي، الخطط المقريزية، جـ 1، ص 84- 89، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 2، ص 103 ؛ ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ 9، ص43.

(81) قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (دار المعارف، 1978)، ص 18-37.

(82) William of Tyre, II, p. 6; Jacques de Vitry, pp.92- 93.

حيث يتحدث كل منهما في صناعة الزجاج في عكا وصور. أنظر عن الصناعات:

Holmes, "Life among the Europeans in Palestine and Syria", p.25; Philip Hitti, "The Impact of the Crusades," p.40.

(83) ابن جبير، ص 223- 224، ص 226- 227، ص 234- 269 حيث تحدث عن أسواق عدد من مدن بلاد الشام وازدهارها.

(84) ابن جبير، ص 260، ص 276 ؛ أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، جـ 2، ص 14 وتد وصف عكا بأنها «قسطنطينية الفرنج» ؛

Burchard, Description of The Holy Land, in P.P.T.S.,V,11- 12.

(85) William of Tyre,I,pp.555- 556;Jacques de Vitry,pp.16- 17.

Buchard,op.cit., pp.11- 12.

(86) Jacques de Vitry, p.57.

(87) Mayer, 'The Crusades", pp.170- 176.

(88) قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص 55- 60، حيث ترد دراسة عن تدهور النظام النقدي والقاعدة الشعرية في أواخر عصر سلاطين المماليك.

(89) رحلة ابن جبير، ص 260.

(90) كانت حافية السلطان صلاح الدين الأيوبي تضم عددا من العلماء منهم: القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، والقاضي بهاء الدين بن شداد. انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 7-13 : أبوشامة، كتاب الروتين في أخبار الدولتين، ج 2، ص 217- 218، عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر، ص 149-151.

(91) Nabih Amin Faris, "Arab Culture", p.12- 14.

(92) أسس صلاح الدين قي القاهرة مدرسة للشافعية وأخرى للمالكية قي القاهرة سنة 566 هـ، وهولا يزال وزيرا للعاضد الفاطمي، مما يدل على هذا الاتجاه. انظر: ابن تغري بردى، النسم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ 5، ص 385.

عن مكانة العلماء في زمن صلاح الدين راجع: عبد اللطيف حمزة، المرجع السابق، ص 150 وما

بعدها ؛ محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي ص 88-90.

(93) ذكر أبو شامة أنه خصص يومان في كل أسبوع لبيع الكتب في القصر. «... وهي تباع بأرخص الأثمان.. .». وذكر أن عددها كان أكثر من مائة ألف كتاب، «... وكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الأمصار ومصنفات الأخبار ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءا إذا فقد منها جزء لا يخلف أبدا...».

(كتاب الروضتين، جـ 1، ص 268).

(94).Nabih Amin Faris, op. cit. pp. 17- 18, ff

(95) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص 75-91

(96) قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص 24-332.

(97) عبد اللطيف حمزة، مرجع سابق ص 315-332.

(98) عن هذا الموضوع راجع: قاسم عبده قاسم، الرؤية الحضارية للتاريخ-قراءة في التراث التاريخي العربي (القاهرة، 1982)، ص 107- 279.

(99) محمد سيد كيلاني، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي، ص 95- 98.

(100) المصدر نفسه، ص 237- 244.

(101) قاسم عبده قاسم، بين الأدب والتاريخ، (القاهرة، 1986) ص 71-72.

(102) المصدر نفسه، ص 67- 102.

الخاتمه

من خلال هذه الدراسة توصلنا إلى عدد من الاستنتاجات التي قد تكون مفيدة لمن يهتمون بدراسة الظواهر التاريخية الكبرى، مثل الحركة الصليبية، والتي قد تلقي بعض الضوء على عدة حقائق تتعلق بهذه الظاهرة التاريخية الفذة:

أولا: إن هناك مشكلة تتعلق بتحديد المصطلح في الأدبيات العربية عن تاريخ الحروب الصليبية، وإن هذه المشكلة، في تصوري، نابعة من حال التبعية الثقافية والإسلامية والفكرية التي نعيشها. ولا يعني هذا أننا ندعو إلى نوع من الخصام الفكري والعلمي مع الحضارة المعاصرة بكل منجزاتها، فذلك أبعد ما يكون من موقفنا الفكري. ولكننا نريد أن ننبه إلى أننا مازلنا نستهلك النتاج الفكري والعقلي للآخرين، وبما أن نتاج كل مجتمع في مجال الفكر والثقافة تعبير عن هذا المجتمع ومحاولة لحل مشكلات اجتماعية/ ثقافية يواجهها، فإن نقل المصطلحات والمواقف الفكرية-دون نقد-قد يوقعنا في منزلق استخدام مصطلحات مضادة لموقفنا الفكري والقومي أيضا. وهذا بالضبط ما حدث باستخدام مصطلح «الحروب الصليبية» الذي نقلناه وترجمناه عن مؤرخي الغرب.

ثانيا: إن تطور الفكرة الصليبية في الغرب الأوروبي الكاثوليكي كان نتاجا للتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي نجمت عن انهيار سلطة الإمبراطورية الرومانية في الغرب في

القرن الخامس الميلادي، ثم الغزوات الجرمانية، ثم تبلور سلطة الكنيسة والبابوية، وصولا إلى نمو النظام الإقطاعي وبداية ظهور البورجوازية. فقد كانت الحركة الصليبية نتاجا للتفاعل بين الكنيسة والإقطاع، وتجلى هذا في أوضح صورة من خلال النزاع بين الكنيسة والدولة من جهة، والنزاع بين الدولة وأمراء الإقطاع من جهة أخرى. وفي ألمانيا وفرنسا وبعض مناطق غرب أوروبا جرت الأحداث في هذا الاتجاه بحيث وجهت البابوية دعوتها الصليبية إلى الفرسان الإقطاعيين، وتجاهلت رؤوس أوروبا المتوجة. ومن ناحية أخرى كانت البورجوازية الفتية في المدن التجارية الإيطالية تحاول الاستئثار بتجارة البحر المتوسط، فانضمت إلى المشروع الصليبي.

ثالثا: كان المشروع الصليبي مشروعا استيطانيا في مصطلحات كاثوليكية، ولذلك فهمته كل طبقة من طبقات المجتمع الفرنسي-صاحب النصيب الأكبر في الحركة-وغيره من المجتمعات، التي انضمت فيما بعد إلى الحملات الصليبية، بالطريقة التي توافق مصالحها الطبقية وتطلعاتها نحو حياة أفضل عجزت ظروف أوروبا المتردية في ذلك الحين عن تحقيقها. وتأتي الحملة الشعبية، أو حملات العامة، تعبيرا عن هذا الاتجاه الذي جعل الحملة الصليبية مشروعا لحل مشكلات أوروبا القرن الحادي عشر الميلادي على حساب المنطقة العربية وتحويلها إلى مجال حيوي للنفوذ السياسي والاقتصادي لأوروبا الكاثوليكية.

رابعا: كشفت أحداث الحملة الصليبية الأولى، والحالات التي تلتها عن معادلة هامة تحكم التاريخ السياسي لهذه المنطقة. فقد نجحت الحملة الأولى بفضل التشرذم والتمزق السياسي الذي جعل المنطقة نهبا للنزاع بين السنة في بغداد والشيعة في القاهرة وأتباعهما في بلاد الشام، وبين السلاجقة والعرب، وبين زعماء البدو وأمراء العرب في المناطق الحضرية. ومضت السكين الصليبية في الزبد العربي بسهولة ويسر بسبب هذه الفرقة السياسية. وقد تعين على الغرب الأوروبي أن يدفع بموجات تلو موجات للدفاع عن النصر الذي حققته الحملة الأولى. وخلال الصراع الطويل على مدى قرنين من الزمان كانت المعادلة واضحة دون لبس أو غموض، الوحدة والعمل المشترك في الجانب الإسلامي يقابلهما تدهور وهزيمة في الجانب الصليبي، والعكس صحيح تماما.

خامسا : إن حصاد المواجهة الإسلامية/الصليبية كان سلبيا على الجانب العربي/الإسلامي، إذ تعين على المنطقة أن تحشد كل مواردها وإمكاناتها في خدمة المجهود الحربي، وكان الإفراز السياسي هو نموذج الدولة العسكرية الإقطاعية، وقد نجحت هذه الدولة-التي تطورت نظمها عبر سنوات طوال من التجارب والخبرات السياسية والعسكرية-في مهمتها التاريخية، يضرب الوجود الصليبي حقا، ولكنها فشلت في إدارة المجتمع على أسس مدنية. وحين تدهور نظامها السياسي بدأت تمارس التسلط على شعوبها وهو الأمر الذي أدخل المنطقة في منحنى التدهور الحاد منذ القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي.

المؤلف في سطور:

د. قاسم عبده قاسم

* من مواليد القاهرة 1942.
* حصل على الدكتوراه من جامعة القاهرة 1975. بمرتبة الشرف الأولى.
* عمل رئيسا لقسم التاريخ بجامعة الزقازيق 84- 1987.
* حصل على جائزة الدولة التشجيعية سنة 1983- مصر.
* حصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى-مصر 1983.
* له عدة مؤلفات وترجمات حول تاريخ الحروب الصليبية وتاريخ العصور الوسطى عموما منها: رؤية إسرائيلية للحروب الصليبية-اليهود في مصر منذ الفتح العربي حتى الغزو العثماني-المؤرخون في العصور الوسطى-الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية.
* يعمل حاليا أستاذاً بجامعة الكويت-كلية الآداب-قسم التاريخ.

الكتاب القادم

الحاجات الأساسية
في المنطقة العربية
برنامج الأمم المتحدة للبيئة
ترجمة:
عبد السلام رضوان

هذا الكتاب

الحركة الصليبية حركة استعمارية استيطانية، تمثل السابقة الأوروبية الأولى لمحاولة استعمار العالم العربي وضرب الإسلام تحت راية الدين المسيحي وتحت شعار الصليب، وتذكرنا أطوارها ودوافعها ونتائجها بالحركة الاستيطانية «الصهيونية التي تتخذ من الدعاوى التاريخية/الدينية مبررا لها.»

هذا الكتاب يحاول رسم صورة شاملة لحقيقة الحركة الصليبية بدءا من الأيديولوجية التي أفرزتها، والدوافع التي حركتها، وصولا إلى تأثيراتها السلبية في العالم العربي، وفي الحضارة العربية الإسلامية بوجه عام. ولا يحفل هذا الكتاب كثيرا بالتفصيل والأحداث والوقائع بقدر ما يقدم رؤية متكاملة عن هذه الظاهرة التاريخية الفذة، وما نتج منها من استجابات. والكتاب يخاطب القارئ المثقف العام كما يخاطب المتخصصين أيضا.

ولأن الحركة الصليبية-التي استمرت أحداثها فوق الأرض العربية قرابة قرنين من الزمان-كانت ولا تزال من المنعطفات التاريخية الهامة في تاريخ الغرب الأوروبي والعالم العربي الإسلامي على السواء، فإنها لا تزال تحكم توجهات رجال السياسة والمفكرين في العالم الأوروبي الأمريكي في تعاملهم مع العرب والمسلمين حتى اليوم. ولأن العالم العربي الإسلامي عانى من هذا العدوان المتسربل برداء الدين فإن هذا الكتاب يحاول أن يقدم للقارئ العربي صورة صحيحة ومتكاملة عن هذه الحركة بعيدا عن المبالغات العاطفية، أو التهويمات والتعميمات التي قد تتسبب في حجب الحقيقة التاريخية عن القارئ.

والكتاب يحاول ذلك كله في أسلوب عربي سهل لا ينال من الحقائق التاريخية، ولا ينقص من قدر القيمة العلمية للبحث التاريخي.